ndu spirit

حزيران ٢٠١٢ عدد ٥٥

هل وَلّى زمنُ الأماناتِ في تدبيرِ شؤونِ النّاسِ وخدمةِ مصالحِهم وحفظِ أمنِهم وأمانِهم وكرامتِهم وحرّيّاتِهم؟
هل ولّى هذا الزّمنُ الّذي كان فيه الأهلون يلازمون أولادَهم بالعنايةِ والرّعايةِ والتّوجيهِ والإرشاد، ويُلزمونهم بقيمٍ ومعاييرَ نبيلةٍ وجميلة، ويراقبونهم في عشرتِهم وسلوكِهم وصيتِهم ومآتيهم ويحاسبون؟
وهل ولّى مع هذا الزّمنِ الزّمنُ الّذي كان فيه المعلّمُ منارةً ومثالاً، يَحرَصُ ويَسهرُ، يَقسو ويَحنو، يقوّمُ ويهذّبُ، يربّي حقًّا ولا يتوانى، ويَمضي في جهادِه الّذي من نورِ عينيه وإلهاماتِ قلبِه لا يبالي إلاّ بنعمةِ الثّمرِ في غراسِه الطّيّبةِ العزيزةِ ووسادةٍ لراحةِ الضّمير؟
وهل ولّى بَعدُ وأيضًا زمنُ تلك الدُّورِ الّتي لم تَشأْ إلاّ أن تكونَ الخميرَ في العجينِ وسلّمَ التّرقّي وميناءَ السّلامة، فلم تتنازلْ عن قناعةٍ بمبدأٍ قويم، ولم تساومْ على حقٍّ أكيد، ولم تفرّطْ بحقيقةٍ جليّةٍ ورأيٍ صائبٍ ورؤيةٍ بنّاءة،.. بل سَعتِ السّعيَ الحميدَ الدّؤوبَ المسؤولَ (والمقدّسَ أحيانًا كثيرةً) وراءَ الخرافِ الضّالّةِ وكلِّ ابنِ شاطرٍ وسامريٍّ ومخلّعٍ ونازفة؟

هل ولّى هذا الزّمنُ، وولّى زمنُ العطاءِ والسّخاءِ والتّضحيةِ والصّبرِ.. زمنِ التّرسّلِ والمجّانيّةِ.. زمنِ الأوفياءِ والأولياءِ والشّهداء؟!
فأينَنا نحن اليومَ من قاضٍ صالحٍ عادلٍ حصين، وحاكمٍ حكيمٍ متطلّعٍ طلاّعٍ شجاع، وتاجرٍ مستقيمٍ، وعاملٍ مثابرٍ، وكاتبٍ نيّرٍ حصيف، وطبيبٍ رحيمٍ يؤاسي، ومُثرٍ يَمسحُ الجرحَ برفقِ اليدِ وسحرِ الذّهب؟
أينَنا ممّن يقولون القولَ البيّنَ البليغَ الوديع، ويَعِدون الوعدَ الصّادقَ النّافذ، ويَعملون العملَ المجديَ النّاجحَ المفيد.. ويَبتكرون ويُبدعون.. يَستولدون الأصالةَ أصالةً يَشقعون، ويقيمون ممالكَ الفرحِ والأعيادِ السّعيدة؟
أينَنا من حُبٍّ يَسودُ، وخيرٍ يَعِمُّ، وجمالٍ تَدينُ به العقول؟!
إنّنا نعاني حقًّا من نقصٍ في المناعةِ حيالَ احترامِ الانسانِ الّذي فينا، واللهِ الّذي في هذا الانسان. ولذلك، نَستهونُ ونَستهينُ ونُهملُ ولا نبالي، فإذا نحنُ في هذا الدّرْكِ المحبطِ من الرّكّةِ والانحطاط، ولا نَني نَنتحرُ بوجودِنا ووجدانِنا والطّبيعةِ الغنّاء.. نَغدرُ بالأمانات!

التّحرير

NDU Spirit دوريّة حول علامات الحياة في عالم جامعة سيّدة اللويزة

رئيس التّحرير
جورج مغامس

التّحرير بالانكليزيّة
كينيث مورتيمر

تَتَبُّع أَنشطة
تاتيانا روحانا

تنضيد بالعربيّة
ليديا زغيب

تصوير
ع. بجّاني، م. بو شبل، ن. نصر

تصميم وإخراج
ريبيكا موراني

طباعة
مطابع معوشي وزكريّا

هاتف: ٢٠٨ ٩٩٤/٦ (٠٩)
هاتف /فاكس: ٢٠٥ ٢١٤ (٠٩)
موقع الكترونيّ: www.ndu.edu.lb/research/ndupress/spirit

المحتوى

THIRD MILLENIUM

كلمة

٠٦ فَلْتسقطْ كُفرسَغاب
جورج مغامس

مدارات الجامعة

٠٨ الأب موسى في عيد التأسيس: سأقترح...

١٣ تجديد النظام اللبنانيّ...
مؤتمر

١٨ سعيد عقل: الإرث والمبتكر
حلقة دراسيّة

٢٣ الجامعة بين التقليد والعولمة
مؤتمر

٢٦ مؤتمر أدباء طرابلس (٢)

٢٧ سوق العمل في الشمال
ندوة

٣٠ نتائج الدورة الرياضيّة السابقة

٣٠ اللقاء التوجيهيّ في الشّوف

٣١ من حصاد العمل الرعويّ الجامعيّ

وجوه

٣٥ غسّان تويني
جورج مغامس

٣٧ المطران فرنسوا عيد إلى حاضرة الكثلكة

٣٨ سيرة المطران أنطوان حميد موراني

٤٠ أمين معلوف مكلّلاً بحبره

ملفّات

٤٢ أدب مارون لريادة أين نحن منها اليوم؟
سيمون بطيش

٤٦ مارون عبّود الأديبُ المصلح
د. إيليّا نخّول

٥٠ بين مارون عبّود وبيني
د. منيف موسى

٥٢ مارون عبّود (١٨٨٦- ١٩٦٢)
جورج مغامس

أبحاث

٥٦ بين الزّعامة والتخلّف
الأب فرنسوا عقل

٦٠ أنا الكاهن، وتحدّيات العصر
الأب بيار نجم

٦٦ مسلك الوحيد (الدرزيّة)
د. سامي مكارم

٦٩ يا عذرا، عن شوف العذرا!
المحامي طانيوس رزق

٧٤ "أنشودة المطر" و"الأرض الخراب"
د. ديزيره سقّال

٨٠ تجربة الحب في شعر إيلي مارون خليل
د. جان طنّوس

٨٥ النقد الأدبيّ النفسيّ والتحليل السريريّ
دكتورة ديزيره القزّي

NOTRE DAME UNIVERSITY LOUAIZE
UNIVERSITY OF THE

مقالات

٩٠ قانون الإنتخاب...
د. أنطوان صفير

٩٢ القانون الاستثنائيّ للإيجارات...
د. لويس حبيقة

٩٣ المستشفى الحكوميّ: نموذج البوار
مع د. شربل عازار

٩٧ حوادث السير وسياسة النقل
د. جورج أبو جوده

٩٩ الربيع العربيّ بين الربيع العربيّ والبلقنة
د. جورج لبكي

١٠١ لئلّا تُنسى خفايا المؤامرة...
د. أنطوان يوسف صفير

١٠٣ يوسف الخال أيّها الصديق...
عبده لبكي

١٠٦ الشعر الزجليّ في كسروان
جان كميد

١٠٨ جوزيف نعمه حكايات وأشعار...
د. عصام الحوراني

١١٣ صدى الصورة
شربل شربل

مراجعات

١١٦ جورج مغامس: حسبي مشاركتُك إبداعَك
عبده لبكي

١١٩ جميل الدويهي يحكي «طائر الهامَة»
د. عصام الحوراني

١٢١ مع رحاب كمال الحلو في: كنعان.. أرض عشتروت
ندوة

براعم

١٢٢ على مقاعد الدراسة أم وراء المتاريس؟
عفاف راجي صليبا

١٢٣ تجمّع لا مجتمع...

المرأة في شعر نزار قبانيّ
نور زاهي الحسنية

١٢٥ EYE 2012 - FAAD, NDU

شعريّات

١٢٦ فالس الأرقام
العصافير المهاجرة
قائمة الانتظار
الغربة
أنطوان رعد

١٢٨ ديوان شَيْخ الشِّتي
حبيب يونس

من منشوراتنا

رجل في مرآة متكّسرة
جورج مغامس

Ameen Rihani's Arab-American Legacy: From Romanticism to Postmodernism

كنعان.. أرض عشتروت
رحاب كمال الحلو

١٢٩

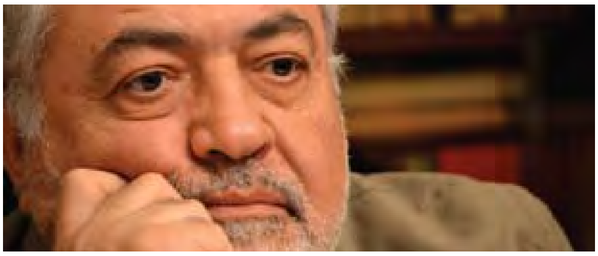

جورج مغامس

فَلْتسقطْ كُفرسَغَاب

أهلي يجوعون، قلَّ الخبزُ في معاجنِهم، وضاقتِ الدّنيا بأنفاسِهم وبالتّعبِ على العواتقِ وفي العيون.

أهلي يجوعون، يَهجِسون، في يقظاتِهم وفي الأحلام، بقرشٍ أبيضَ ورغيفٍ وسمكة.. وقلمٍ وكتاب، ويصلّون لسقفٍ وأَسِرّةٍ.. وضحكةِ الأولاد.

أهلي يجوعون، يَنشرون على حبالِ الليلِ ثيابَهم المغسولةَ بعَرقِ النّهار، ويَسهرون حتّى هجيعِه الأخيرِ لئلاّ يأتيَ السّارقُ ويتركهم عُراةً حتّى الحياءِ القاتم.

أهلي يجوعون، يضمّدون الألمَ بالحزنِ، والحزنَ بالكبرياء،.. ويقفون بممرّاتِ الرّيحِ كجذوعِ السّنديانِ تحدّثُ حديثَ الصّخورِ والجذور.. حديثَ المقاومةِ والصّمود.

أهلي يجوعون، يَنذرون بقايا دمائهم وشفاهَهم اليابسةَ لضوءِ شمعةٍ أمامَ حفنةٍ من بخورٍ وهالةٍ وأيقونة.

أهلي يجوعون، لم يكفروا، لن تكفّرَهم قوّاتُ ما في الأرضِ والجحيمِ من كَفرةٍ آثمينَ، ملأوا الدّنيا وشَغلوا النّاسَ بنعيقِهم وزعيقِهم وتفاهاتِهم وسفاهاتِهم وسائرِ القذارات...

أهلي يجوعون!

يجوعون، ويا أينَه العابدُ والمعبد؟ ولِمْ ليس بَعدُ في أيدينا، من مصادرِ الضّوءِ، سوى قنديلٍ ضئيلٍ بأيدي غُلْفٍ مساكينَ في مآذنَ نائيةٍ وقُببٍ قصيّة؟ فهل ولّى زمنُ المنوّرين الصّالحينَ المصلحينَ.. شهودِ الحقّ وشهداءِ الحقيقة؟ هل بيعتِ الألسنةُ للسّيوفِ الفاجرةِ وخزائنِ السّلاطينِ الماكرة، واستباحتِ النّخاسةُ حتّى معاقلَ الصّفوةِ والأحرار؟

ومَن..

مَن ذا الّذي يَفكُّ أَسرَ الله؟!

إنّ الله في الأسر، و«خاصّته» في قطاراتِ الأَنفاقِ الهُلاميّةِ اللزجةِ الدّاعرة، لئلاّ يَسمعوا صوتَه ويَروا وجهَه ويَسقوه كأسَ ماء.

فهل لنا أن نَسترقيَ الرّقّاءَ لعلّ وعسى؟!

ألا إنّه، حين السّقوطُ العظيمُ، ولا حولَ ولا، يُعتصَمُ بالقَذى والعُوّارِ وحبالِ الهواء.. بمتاهاتِ كهوفِ الغيوب.

فلكَ الله يا الله، أيُّها الأسيرُ، يا سيّدَ الأسرى أهليَ الجياع!

لك الله تعالى..

فتعالَ إلى الليالي الّتي نَطويها على صريرِ الأسنان، والنّهاراتِ نَبسطُها على قارعةِ طرقِ الذّلّةِ والمَهانة..

هناك، في عُرينا وذُبولِ الهممِ الكسيحة، نَتقاسمُ صلبانَ الخيباتِ وكِسَرَ الحسرةِ وحشرجاتٍ صُفرًا بائسة.. وهذا التّهافتَ المريعَ لمصابيحِ القيمِ الصّباحيّة.

على أرصفةِ قلوبنا نَبتَ الشّوكُ الوحشيُّ، وفي حقولنا جرذانٌ وغربانٌ تطاردُ ظلالَها الرّماديّةَ الخاويةَ وبيوتَ النّمالِ الضّامرة،.. فالقيظُ والغيظُ قدّدَ العروقَ ونفثَ أوبئةَ الوهَنِ وعُقمَ العَواقر، فعمَّ غَمُّ البلاءِ الشّرسِ وهَمٌّ يَهُمُّ، واستشرى صوتُ صمتٍ أسودَ وخبثٌ كلعنةٍ عاهرة. فهلاّ وافيتَنا، يا طعينَ الأجيالِ القتيلة، إلى زمنِنا الصّاغرِ العجيف.. إلى موائدِ الطّواحينِ الفارغةِ والشّفاهِ الصّاديةِ البَرصاء؟!

في المستنقع.. مستنقع زبانيةِ الشّياطينِ وقراصنةِ الياسمينِ وأجاجينِ الفرح،حيثُ أرماقُنا على أعوادِ المشانقِ وَنلفظُ قيحَ

المرارات، لا شيءَ يتيحُ الإرّثاء حالَنا العفراءِ ورشَّ الملحِ الأُجاجِ على الجراحِ السّاخنة. أَفتتقاوى على رَسْفِكَ والأغلال، وتجيئُنا بجنبِك النّازفِ وبلَفْعِ السّياطِ الغائرِ في الجسدِ الرّطبِ وفي رَجعِ النّبوءاتِ السّارّةِ، تؤدّي، عن يميننا الشّحيحةِ الشّلّاء، جِزيةً فحشاءَ لكلّ قيصرٍ وكسرى.. وجزيةً مُضافةً بَلاّعةً لغِلمانٍ وبَبّغاء؟!

أيّها الأسيرُ، يا سيّدَ الأسرى أهلي الجياع، مَن لكَ بَعدُ ومَن لنا.. نَرفعُ إليه شكوانا والظّلّامات، نُلقي رؤوسَنا المصدّعةَ على صدره وأنشودةَ الزّفراتِ في منديله الأبيضِ الحميم!

إنّ الخيولَ، يا سيّدي، أغرقتها الرّمالُ. والفتيانُ المُرْدُ دُمىً من ورقِ الخريفِ، حاصَرها الإعصارُ الهصور. فهل لنا إلاّ أن نَسترقيَ الرّقّاءَ لعلّ وعسى؟!

أهلي يجوعون، يا سيّدي! واليمامةُ الزّرقاءُ الّتي على سفينةِ الطّوفان، سقطَ منقادُها في يأسِ الماءِ الصّخوب، فكيف تأتي بغصنِ زيتونٍ أخضرَ ورائحةِ سَعترٍ صخريّ.. كيف تُرشدُ إلى موطئ قدمٍ وحَجرٍ يُسنِدُ إليه ابنُ الانسانِ رأسَه.. كيف تَهدِلُ فوق عشٍّ وفراخٍ وحلمٍ بقمحٍ وفضاء؟!

أهلي يجوعون! لا قِلالٌ، لا سِلالٌ، لا غِلال.. والمطرُ محبوسٌ في السّماءِ السّابعة، والسُّوسُ الآكلةُ تُفني جَرْشَ المؤونات. وثمّةَ اللِحمانُ من ورَمٍ، والعظامُ من رَغوةِ الهَشاشات!

كتبُهم ممصوصةٌ حافيةُ الأحرفِ والكلمات، والدّفاترُ أذبلَها الحبرُ الحارقُ وصَريرُ زيزِ جَدولِ الشّجر، ورُقَعُ كلِّ مئزرٍ وسِروال.. فليس في العُرى إلاّ ذكرياتُ الأزرارِ النَّخرةِ وبَردٌ قارصٌ كقبضةِ الخيانة.

غِطاءُ الشّتاءِ بَلَلٌ رَشْحٌ وداءُ صدرٍ ومفاصل، وفي الصّيفِ تثاؤبٌ وكَشّحُ ذبابٍ وقراميدُ تَذرفُ السُّهومَ المَلولَ على الطّيورِ المهاجرة.. فلا شيءَ يعزّي الأبوابَ المكابدةَ أو يَمسحُ عن عتباتِها أطيافَ مطاميرِ التّرابِ الكئيب.

إنّ المراثيَ، يا سيّدي، كبرجِ بابلَ، والأنفسُ سَبايا في زَنازينِ كُفرسَغاب.

- كُفرسَغاب كُفرسَغاب..!

- قريةُ الجوعِ، يا سيّدي، بلادُنا: حيثُ الحُثالةُ من فاجرٍ وتاجرٍ في حِلفٍ قابضٍ على مسارٍ ومصير، وعلمٍ وعمل، وصحّةٍ وعافيةٍ وصيتٍ أثيل؛ حيثُ الضّميرُ فاسدٌ، وفاسقٌ كلَّ نهجٍ وسلوك؛ حيث الغِشُّ بالمعرفةِ والمقدرةِ وطعامٍ وشراب؛ حيثُ الجوعُ ضاربٌ أطنابَه، وأنتَ في الأسر.

- من كُفرسَما إلى كُفرسَغاب! ما هذه الآخرة؟!

- إذًا نقيمُ حلفَنا. ولْيكنْ بيننا وبينَهم فيصلُ السّراطِ المستقيم، ومصابيحِ العذارى الحكيمات. أهلي يجوعون وأنتَ في الأسرِ لدى هياكلَ ومحافلَ وشِيَعٍ وبِيعٍ وعُصَبٍ وأحزاب. كلّنا أسراهم يا سيّدي، وخلاصُنا بيدِنا. بيدِنا نُحيي الرّبيعَ، ندحرجُ به الحجرَ على كُفرسَغاب.. على الرَّامة، على قريةٍ قبرٍ حقًّا!

فَلْتسقطْ كُفرسَغاب فَلْتسقط.

وإنّها لن تَسقطَ إلاّ بشجرةِ توتٍ وفيلجةٍ وفراشة، بحلمٍ جميلٍ وبيدرٍ ونولٍ ومولدٍ سعيد.

والوَحدةُ تُسقِطُها: وحدةُ الجوعِ والوجع، ووَحدةُ الرّأيِ والرّؤيا، ووَحدةُ الإرادةِ والإقدامِ والالتزمِ والثّباتِ على دوامِ الاقتحام...

تُسقِطُها معًا وعلى الدّوام، وكلّما ذَرَّ تنّينٌ بمخلبٍ وناب.

فيا أهليَ الّذين تجوعون، ويا أيّها الله الّذي في الأسر.. يا سيّدَ الأسرى أهليَ الجياع، ألا أنتم اتّحدوا بوجهِ حلفِ الأشرارِ واعصِفوا، ولْتسقطْ كُفرسَغاب فَلْتسقطْ..

حينئذٍ يَعتدلُ الميزان.

الأب موسى في عيد التأسيس

سأقترح برنامجًا واسعًا لإحياء رسالتنا وتحقيق أهدافنا وإحداث التغيير المطلوب

هذه السنة، عيدُ التأسيس واسطةُ العِقد في اليوبيليّة الفضيّة، فإذا الفرحةُ فرحتان. وفي المناسبة، عَمرالاحتفالُ بأسرة الجامعة وسائر المدعوّين؛ وفيه كان لرئيس الجامعة الأب وليد موسى كلمةٌ، كان فيها عَودٌ بالذاكرة إلى الماضي وما فيه من وقائع وما منه من عِبر، وتطلّعٌ إلى المستقبل من منطلق العمل في حقل الحاضر في إطار «اقتراح برنامج واسع لإحياء رسالتنا وتحقيق أهدافنا المرسومة وإحداث التغيير المطلوب في البنى الأكاديميّة والانسانيّة».

قال **الأب الرئيس وليد موسى:**

هي السنة الخامسة والعشرون، السنة اليوبيليّة الفضيّة لهذه الجامعة.

منذ مطلع هذه السنة ٢٠١٢، بدأنا نشاطاتنا الاحتفاليّة من الندوات والمحاضرات إلى المسرحيّات والمعارض والمؤتمرات...

وها قد مرّت خمسة أشهر، ونحن نتابع الطريق؛ إلاّ أننا، الليلة، نقف وقفة مختلفة، نعبّر فيها، عن معنى العيد، بالعمق الانسانيّ الذي تفرضه علينا يقظة الضمير، بعيدًا عن البهرجة والفولكلور، هذا الذي لا بدّ منه أحيانًا، ولاسيّما بمناسبة مولد انسان أو مؤسّسة أو جمعيّة أو جامعة حتّى.

هذه الوقفة، أقفها أمامكم، بكلّ صراحة وواقعيّة، لأعرض معكم ملامح الصورة بكلّ تفاصيلها منذ ١٩٨٧ وحتّى اليوم.

عودوا معي في الذاكرة إلى سنة ١٩٨٧:

Address of Fr. Walid Moussa
President of Notre Dame University – Louaize
Celebrating Founders' Day

Dear Friends,

This year, we are celebrating the silver jubilee of Notre Dame University – Louaize.

Since the beginning of 2012, we have embarked on a series of activities including conferences, seminars, plays, exhibitions, etc. Five months into the year, and we are still following the same endeavor; however, tonight we look anew at the situation in order to come to a deeper understanding of these celebrations in light of our human dimension which is embedded in the University's mission. This standpoint differs from the traditional customs and festivities, which are the features of any event, particularly when celebrating the birth of a child, an institution, an association, or a university.

I stand before you tonight, speaking sincerely and realistically, to review together our history from 1987 to the present within the context of both the bigger picture and its details.

Let us journey back in time to 1987.

The Lebanese Situation: As many of you may well remember, 1987 was a year of raging and conflict, battles, assassinations, occupations, sectarian divisions, and funeral processions.
The International Situation: We all recall the Cold War and the continued global state of political and military tension emanating from the polarized parties: the United States of America and the Soviet Union.
NDU's Situation: Our university was in the pangs of labor: the campus simply lacked the capacity and environment conducive to university learning. At the time, students, faculty members, and staff combined were approximately one hundred persons.
It is true that we started our endeavor in 1978 in collaboration with Beirut University College (currently the Lebanese-American University), when the late Fr. Boutros Fahd was Superior General of the Order and Father Bechara Rahi was Director.
We established the Louaize Center for Higher Education, but we lacked the experience and capacity for autonomy. Despite the prevailing situation, the Maronite Order of the Holy Virgin Mary decided to pursue its vision and overcome every obstacle.
Believing in the need to establish a university following the American system of education, and in collaboration with a group of sincere laymen, we submitted the necessary documents to the Ministry of Education during the term of Abbot Marcel Abi Khalil. Encouraged by the blessing of our founding father, formerly Bishop Bechara Rahi, and supported by friends, we were able to obtain the license required to establish NDU on August 14, 1987, during the term of Abbot Antoine Sfeir, then director of the Center. That same year, Father Boutros Tarabay, current Superior General, was appointed President of NDU - Louaize. On the occasion of our Silver Jubilee, I would like to take this opportunity to extend heartfelt congratulations on your behalf to our Superior General Abbot Tarabay.
NDU's journey began on that day in 1987; however, the time has come to reflect on the developments in our history since then:
On the Order and University Scene: We had to take bold steps to turn dreams into reality. The Order chose this property, laid the cornerstone, and began the construction, during the terms of Abbot Saad Nemr and NDU's former President, Fr. Francois Eid, currently Archbishop of Egypt and Sudan. To this day, we are still engaged in the extension of the campus, and believe me, we have never had a moment›s rest,

على الصعيد اللبنانيّ، كانت سنة ١٩٨٧ سنة حروب ومعارك واغتيالات واحتلالات وانقسامات ومراسيم جوّالة، كما تذكرون.
أمّا على الصعيد الدوليّ، فكلّنا يعلم مقدار الصراع والتجاذب في الحروب الباردة التي كانت تدور بين قطبي العالم: أميركا والاتحاد السوفياتي.
على صعيدنا الجامعيّ، كانت مؤسّستنا تعاني آلام المخاض، وصعوبة الولادة؛ فالبناء كان متواضعًا، لا تتوفّر فيه شروط المناخ الجامعيّ الصحّيّ، وأعداد الطلاّب والأساتذة والموظّفين تُحسب بالعشرات ولا تتجاوز المئة.
صحيح أننا كنّا بدأنا، سنة ١٩٧٨، محاولتنا الجامعيّة، عهد الأباتي المغفور له بطرس فهد، وبإدارة الراهب يومذاك بشارة الراعي، وذلك بالاتفاق مع كليّة بيروت الجامعيّة (الجامعة اللبنانيّة الأميركيّة، حاليًا)، وأنشأنا مركز اللويزة للتعليم العالي، إلاّ أننا، وببساطة، لم نكن نملك لا التجربة والخبرة ولا الإمكانيّات التي تسمح لنا بالاعتماد على أنفسنا. ومع ذلك، أقدمت الرهبانيّة المارونيّة المريميّة، ولم تخشَ الصعوبات والعراقيل.
وإيمانًا من الرهبانيّة بضرورة إنشاء جامعة ذات منهجيّة أميركيّة، وبالتعاون مع جماعة من العلمانيّين المخلصين، تقدّمنا بالمستندات المطلوبة، عهد قدس الأباتي مرسيل أبي خليل، واستطعنا، بدعم الأصدقاء وبركة أبينا المطران يومذاك، بشارة الراعي، من الحصول على الترخيص المطلوب لجامعة سيّدة اللويزة، في ١٤ آب ١٩٨٧، عهد قدس الأباتي أنطوان صفير، وحيث تسلّم رئاستها قدس الأباتي الحاليّ بطرس طربيه، الذي أقدّم له اليوم، باسمكم جميعًا، التهنئة بهذا اليوبيل الفضّي.
وابتدأت المسيرة... ولكن لا بدّ من التوقّف عند التحوّلات التي حصلت منذ ذلك التاريخ:
على صعيدنا الرهبانيّ والجامعيّ، كان لا بدّ لنا من خطوات شجاعة قادرة على تحويل الحلم إلى حقيقة: فكان اختيار الرهبانيّة لهذه الأرض، ثمّ الإقدام على وضع حجارة الأساس والبدء بالعمار، مع قدس الأباتي سعد نمر، ورئيس الجامعة يومذاك الأب فرنسوا عيد، وما يزال العمار مستمرًا حتّى اليوم؛ وصدّقوني أنّنا ما استرحنا يومًا، ولا توقّفنا، وها نحن نشاهد حوالى ١٥٠ ألف متر بناء، في مساحة أرض تقارب المليون متر مربّع.

nor have we ever ceased our labor. Presently, we occupy one hundred and fifty thousand square meters of construction spread across a land area of one million square meters.

Today, NDU's population comprises of approximately seven thousand students and one thousand faculty and staff members. We offer roughly one hundred majors at different levels (Bachelor, Masters, and Doctorate). In addition, NDU has two other campuses in a state of continuous development: the North Lebanon Campus in Barsa – Koura and the Deir el-Kamar campus in the Shouf region. Both campuses were established during the two-term tenure of former NDU President, Boutros Tarabay.

I can confidently assert today that despite the tribulations our nation witnessed, NDU was able to withstand, develop, and prosper, during the term of Abbot Semaan Abou Abdo. At present, NDU still faces the inherent challenges of growth and development. (When others demolished, we built; when others fled, we remained firmly rooted in this land, resilient in the face of adversity to open new horizons for future generations).

On the Lebanese Scene, Lebanon suffered from much violence before finally reaching the Taif Agreement, without failing to recall the military confrontations between Israel and Lebanon, the Syrian occupation, which was followed by a period of assassinations, and the eventual withdrawal of the occupying Syrian army from the national territory.

Today, Lebanon is on the verge of another political collapse due to divisions on both the religious and political fronts, a fact which reveals decadence in values and ethics.

On the International Scene, we have witnessed the fall of the Soviet Union, the fall of the Berlin Wall, the world domination of a superpower, the United States of America, the rapid globalization and widespread of the use of technology and their consequences - both positive and negative.

At this juncture, it is worth pausing to reflect on the events taking place across the Arab world. We are yet to understand the consequences of these revolutions and their impact on Lebanon and us in the long term.

In this general perspective, I wish to revert to our University's mission and goals, which impart values that form good citizens. These values may be summarized into six words: **respectable, educated, moral, pious, liberal,** and **industrious.**

The persistent question that worries me is: Have we succeeded in forming this citizen? And why?

Anyone here can pretend and say, 'Don't blame me, everyone else is doing it!' Or bury his/her head in the sand-or in worst scenarios-to shift the responsibility from self to others by saying, 'These are the consequences of political, social, economic,… situations.'

But, no! Each of us should bear a burden of this responsibility. Must we yearn for 1987? Isn't it painful to hear some of us say that Lebanon was better forty or fifty years ago?

أمّا من حيث الأعداد، فالجامعة تضمّ اليوم حوالى سبعة آلاف طالب وطالبة، إلى جانب حوالى ألف أستاذ وموظّف، ناهيك عن ١٠٠ شهادة اختصاص بين بكالوريوس وماجستير ودكتوراه، بالإضافة إلى فرعين جامعيين نراهما يتطوّران باستمرار: فرع الشمال في برسا- الكورة، وفرع دير القمر في منطقة الشوف؛ والفرعان نشأ زمن الأب بطرس طربيه، رئيسًا للجامعة على فترتين. وأستطيع التأكيد أنّ الجامعة شهدت زمن الأباتي سمعان أبو عبده، تطوّرًا وتقدّمًا، رغم كلّ الظروف الصعبة التي يمرّ بها الوطن. وهي لا تزال تتحدّى الصعوبات وتتابع مسيرة الإنماء والتقدّم. (في حين كانوا يهدمون، كنا نحن نعمّر... وفي حين كانوا يهربون، كنّا نحن نتثبّت في هذه الأرض ونفتح الأبواب والآفاق لاستقبال أجيالنا الجديدة).

هذا على صعيد الجامعة، أمّا على **الصعيد اللبنانيّ،** فقد مررنا بعد ١٩٨٧، بحروب متعدّدة ثمّ بوثيقة الطائف، دون أن ننسى، وفي فترات متعدّدة، حروب اسرائيل على لبنان، والوصاية السوريّة على النظام، ثمّ مرحلة الاغتيالات وانسحاب الجيش السوريّ، وصولاً إلى ما نحن عليه اليوم، من انهيار مخيف على المستوى السياسيّ، ترون مظاهر له في هذه الانقسامات الطائفيّة والمذهبيّة والحزبيّة التي تعبّر عن انهيار في القيم والأخلاق.

أمّا على **الصعيد العالميّ،** فشهدنا انهيار الاتحاد السوفياتيّ، مع انهيار حائط برلين، وسيطرة الآحاديّة الأميركيّة، وانتشار التكنولوجيا الحديثة والعولمة بكلّ وجوهها، الحضاريّة منها والمتوحّشة.

ولا بدّ هنا، من التوقّف عند ما يجري في محيطنا العربيّ، من أحداث وثورات واضطرابات، لا ندري إلى أين ستصل، وما هي مفاعيلها علينا وعلى لبنان.

أمام هذا المشهد البانوراميّ، لما نحن عليه سنة ٢٠١٢، أعود إلى رسالتنا الجامعيّة وإلى الأهداف التي وضعناها، والتي يمكن اختصارها بستّ كلمات: بناء مواطن **صالح، مثقف، أخلاقيّ، مؤمن** بالله، **حرّ، ومنتج.**

والسؤال الذي يقلقني: هل نجحنا في بناء هذا المواطن؟ ولماذا؟ يمكن لكلّ منّا أن يدّعي، أو أن يقول: شو وقفت عليّ؟ أو أن يضع رأسه في الرمال، أو، بأقصى الحالات، أن يضع المسؤوليّة على غيره وأن يقول: هذه نتيجة الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والإعلاميّة...

ولكن، لا، على كلّ منّا أن يتحمّل المسؤوليّة: هل نضطرّ إلى القول: رزق الله على سنة ١٩٨٧. أليس موجعًا أن يقول البعض منّا: لبنان منذ أربعين أو خمسين سنة كان أفضل؟!

Isn't it painful to hear the mothers and fathers with us here today say, 'Our generation is so different from that of our children's? In our day, we used to study, read, go to Mass, respect our parents, search for books to read or seek a conference to attend… and dream.'
What do we see today?
Political corruption generating more corruption;
Violence creating more violence;
Lust for money, resulting in human decadence;
Absence of listening and absence of dialogue, except in the virtual world;
Unhealthy students' political divisions due to lack of political culture;
Chaos instead of real freedom;
Inability to make a change in matters such as food safety, water, electricity, electoral law, decentralization, or even media.
Nelson Mandela once said, 'Education is the most powerful weapon which you can use to change the world.'
Through these words, Mandela challenges us. Given this challenge: where do we stand?
It is true that the numbers of students and alumni have increased, and so has the use of cell phones and the Internet, TV and radio "zapping"…, savings accounts in banks for a few or hundreds of people…, brain exports brains by the thousands.
But, where are we heading? Have we really 'lost the compass'? Amin Maalouf, the renowned Lebanese-French author in his book Le dérèglement du monde speaks about intellectual, financial, environmental, geopolitical, and moral disorder. He says, 'The boat we board sails aimlessly; Time is not our ally; it is our judge, and we are as of this moment sentenced to execution… A public awareness is necessary; a state of emergency is indispensable to avoid drowning.'

أليس مؤلمًا أن يقول الآباء والأمّهات منّا: جيلنا لم يكن كجيل أولادنا. على الأقلّ، كنّا ندرس ونقرأ ونحضر القدّاس ونحترم أهلنا، ونبحث عن كتاب وعن محاضرة... وكنّا نحلم.
اليوم، ماذا نرى؟
الفساد السياسيّ يولّد الفساد في كلّ أبعاده،
العنف يستولد العنف في كلّ صوره،
حبّ المال يسبب كلّ أنواع السقوط الأخلاقيّ والانسانيّ.
لا إصغاء ولا حوار إلاّ بالمعنى الفولكلوريّ.
الانقسامات الطالبيّة ليست صحيّة ، ولا تعبّر عن ثقافة سياسيّة.
الحريّة تحوّلت إلى فوضى.
لا أحد قادر على التغيير: لا في الكهرباء، ولا في الماء، ولا في الأمن الغذائيّ، ولا في قانون الانتخاب، ولا في اللامركزيّة، ولا في ضبط الإعلام وصحّته.
يقول نيلسون مانديلاّ: القوّة القادرة على التغيير هي التربية... وكأنّه بذلك، يضعنا في موضع التحدّي. فأين نحن؟
صحيح أنّ أرقام الطلاّب والخرّيجين قد تضاعفت، وكذلك استخدام وسائل الخلويّ والانترنت، و«تفقيس» محطّات التلفزيون والإذاعة و... وتكديس الأموال في المصارف لبضعة أشخاص أو مئات... وتصدير العقول بالآلاف إلى الخارج.
ولكن: إلى أين نحن سائرون؟ وهل بالفعل، فقدنا البوصلة؟
يقول أمين معلوف في كتابه «إختلال العالم» Le dérèglement du monde، والاختلال، كما يعبّر عنه، هو إختلال فكريّ، ماليّ، مناخيّ، جيوسياسيّ، أخلاقيّ، يقول: إنّ المركب الذي نحن على متنه، بات هائمًا على وجهه، بلا طريق ولا رؤية. الزمن ليس حليفنا، وإنّما هو القاضي الذي يحاكمنا، ونحن منذ الآن محكومون، مع وقف التنفيذ.
ويضيف: لا بدّ من صحوة، ومن حالة طوارئ تفاديًا للغرق.

Dear Friends,

A state of consciousness is imperative. We should not despair, because we believe. Our duty is to conquer anything that hinders us from achieving our humanity. I, therefore, find myself here today with all my associates—clergy and laymen—invited to enter into a state of consciousness and stand with God and you. On the occasion of Founders' Day and the Silver Jubilee, I pledge to review all our academic, administrative, human, and social affairs. I will suggest to the Order, our Mother, to the Board of Trustees, and the University Council, that a comprehensive program be devised to renew our mission, achieve our objectives, and make these necessary changes in the academic structure and human capital in order to attain the following goals:

- Fulfill our founders' dreams of a free and dignified university and society.
- Earn accreditation to which we have already made significant progress.
- Endeavor to make the University, and every university, a wellspring that nourishes men and women who can shape the future according to moral principles and the needs of the modern world.

Our concern, dear friends, is the human being, the student, the alumnus, the teacher, the employee, the clergyman, and the layman. We have built a beautiful university, with a strong foundation. Now our concern is the super-structure: minds, ethics, souls, culture, creativity…

I can assure you that attaining these goals is no easy task. It requires a new modus operandi, just as the French writer Antoine de St. Exupéry said, 'It is not important to define objectives. What is really important is to realize them.'

Dear Friends,

I call upon you to join hands with me in order to move forward. I need each hand and mind to achieve this task. Do not withhold your opinions or advice from me.

I pray so that promises do not remain unfulfilled. I pray for you, and I thank you for your cooperation: the Order's Supreme Council, the Board of Trustees, vice-presidents, deans, directors, fathers, faculty, staff, students, alumni, parents, and friends.

Happy Founders' Day

أيّها الأصدقاء

لا بدّ من صحوة، لن نقع في اليأس، نحن مؤمنون وأهل رجاء، ومن واجبنا أن نتغلّب على كلّ ما يمنع انسانيّتنا من تحقيق ذاتها وأهدافها. ولهذا، أراني اليوم، مع جميع معاونيّ من رهبان وعلمانيّين، مدعوّا إلى وقفة مع الله والضمير ومعكم، أعاهدكم، خلالها، في هذا العيد، وفي هذا اليوبيل، أن تكون لنا مراجعة شاملة في كلّ شؤوننا الجامعيّة: الأكاديميّة والإداريّة والانسانيّة والماديّة... وسأقترح على أمّنا الرهبانيّة، وعلى مجلس الأمناء، وعلى مجلس الجامعة، بعد الاستشارة الشاملة، برنامجًا واسعًا، لإحياء رسالتنا وتحقيق أهدافنا المرسومة وإحداث التغيير المطلوب في البُنى الأكاديميّة والانسانيّة، وصولاً إلى ثلاث غايات:

١. تحقيق أحلام آبائنا بجامعة وبمجتمع حرّ كريم.

٢. الحصول على الاعتماد الأكاديميّ الذي قطعنا شوطًا كبيرًا في تأمينه.

٣. العمل على أن تكون الجامعة، كلّ جامعة، مقلعًا لرجال ونساء يصنعون المستقبل، برقيّ ووعي ومحبّة.

همّنا أيّها الأصدقاء هو الانسان، طالبًا وخرّيجًا، أستاذًا وموظّفًا، راهبًا أو علمانيًا. بنينا جامعة من أجمل الجامعات. عملنا على البُنى التحتيّة، بطريقة صحيّة وسليمة. همّنا أصبح البُنى الفوقيّة: العقول، الأخلاق، الروح، الثقافة، الإبداع...

أؤكّد لكم أنّ تحقيق هذه الأهداف ليس سهلاً، بل هو بحاجة إلى آليّة عمل جديدة؛ وهذا ما آمن به Antoine de St. Exupery حيث قال: ليس المهمّ أن نحدّد الأهداف، بل المهمّ أن نجعلها قابلة للتطبيق.

فيا أيّها الأصدقاء، ندائي إليكم أن نتعاون لنحقّق آليّة العمل. أنا بحاجة إلى كلّ يد وعقل، للقيام بهذه المهمّة، فلا تبخلوا عليّ برأي أو مشورة.

أصلّي كي لا يبقى الوعد وعدًا، وأصلّي من أجلكم، وأشكر تعاونكم جميعًا مجلس الرهبانيّة، مجلس الأمناء، نوّاب الرئيس، العمداء، المديرين، الآباء، الأساتذة، الموظّفين، الطلاّب، الخرّيجين، الأهل، الأصدقاء.

وكلّ عيد وأنتم بخير.

«تجديد النظام اللبنانيّ على ضوء رسالة لبنان ودوره في المنطقة» -مؤتمر-

تقرير د. إيلي الهندي

برعاية رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة العماد ميشال سليمان، نظّمت كليّة العلوم السياسيّة والإدارة العامّة والدبلوماسيّة مؤتمرًا بعنوان **«تجديد النظام اللبنانيّ: على ضوء رسالة لبنان ودوره في المنطقة»**. جاء هذا المؤتمر في إطار احتفال الجامعة بيوبيلها الفضيّ، وبمناسبة مرور خمسة عشر عامًا على إطلاق الإرشاد الرسوليّ «رجاء جديد للبنان». وهَدفَ إلى تأمين منبر أكاديميّ علميّ يجمع مختلف الأفرقاء السياسيّين وأصحاب الآراء لمناقشة النظام السياسيّ اللبنانيّ وإعادة قراءة واقعه، نجاحاته وفشله، على ضوء الدور الذي ظهّره الإرشاد الرسوليّ للبنان والإرشاد الرسوليّ القادم لمسيحيّي الشرق، ولاسيّما في خضمّ التحوّلات الكبيرة التي تمرّ فيها المنطقة.جمع المؤتمر عددًا كبيرًا من السياسيّين والأكاديميّين وأصحاب الاختصاص، تقدّمهم ممثّل فخامة الرئيس وزير البيئة الأستاذ ناظم الخوري.

في جلسة الافتتاح، شكر عميد الكليّة **د. شاهين غيث** لرئيس الجمهوريّة رعايته، وحدّد أهداف المؤتمر في «التعمّق في استيعاب وتقدير إيجابيّات نظامنا وإخفاقاته ، ومن ثمّ اقتراحات تعديلات التحسين».

وتساءل **الأستاذ سهيل مطر**، نائب رئيس الجامعة للثقافة والعلاقات العامّة، إلى أيّ مدى «استجبنا، أعمالاً وسلوكًا وأنظمةً وقوانين، لما وردَ في الإرشاد الرسوليّ... البعض يريد رسالة لبنان صورةً عن مفاهيمه الحزبيّة أو الدينيّة الخاصّة، وهنا يقع المأزق، ونبقى في دوّامة البحث الذي لا ينتهي». وتابع: «دورُنا، اليوم، حدّده فخامة الرئيس في لقائه الأخير، مؤكّدًا على احترام ثلاثة مفاصل: الأوّل، الانتماء العربيّ من خلال جامعة الدول العربيّة، دون انحياز أو تطرّف؛ الثاني، البُعد العالميّ من خلال الارتباط بالأمم المتّحدة، واحترام حقوق الإنسان، كلّ إنسان، في مواقفه وآرائه وتطلّعاته...».

ورأى **الأب الرئيس وليد موسى** من جهته أنّ الجامعة هي «صورة مصغّرة عن طاولة الحوار التي دعا إليها فخامة الرئيس... لهذا، نحن هنا، من كلّ لبنان، من كلّ الأطياف، ومن كلّ الطوائف والأحزاب، وإن شئتم من كلّ الدويلات التي تتناسل في هذه الجمهوريّة العزيزة. نحن هنا، برعاية الرئيس سليمان، وصورتُه تظلّلنا، مؤمنين، وبصراحة مطلقة، أنّ النظام السياسيّ اللبنانيّ، وكما يطبّق حاليًا، بحاجة إلى إعادة نظر، بعيدًا عن المزايدات والديماغوجيّة الفارغة. البعض يدّعي أن المسّ بالطائف هو مسّ بالمقدّسات؛ نحن لا نقول أنّ الطائف سقط، ولا عودة إليه، بل نقول: أنّ «الطائف» كما طُبّق، كان استنسابيًا، ولم يصل إلى تحقيق صيغة الوحدة الوطنيّة المُثلى. لذلك نتنادى إلى كلمة «سواء»، لعلّنا نصلح ما عجز عنه خلال ٢٣ سنة».

أمّا **الوزير ناظم الخوري** فنقل أحرّ تهاني رئيس الجمهوريّة وأطيب تمنيّاته للجامعة «الحبيبة والمميّزة بدورها البنّاء وعطاءاتها العلميّة والثقافيّة والوطنيّة، هذه الجامعة التي هي أكثر من جامعة، إنّها رسالة محبّة وسلام وعيش مشترك، إنّها منارة للعلم والمعرفة ومنبع للرجال وللأجيال الواعدة تسلّحهم بالقيم الإنسانيّة التي نعول عليها كبير الأمل وعميق الرجاء». وأضاف: «لقد آمن فخامة رئيس البلاد «بمبدأ لبنان الرسالة» وعمل على تجسيد هذا الشعار ووضعه موضع التنفيذ من خلال كلمته من على منبر الأمم المتحدة حيث أعلن عن طموحه بأن يكون لبنان مقرّا دوليًا للحوار بين الثقافات والأديان في العالم... ومنذ حوالى الشهر تقريبًا وبعد اجتماع فخامته مع دولة رئيس مجلس النوّاب أعلن أنّه «قد تمّ درس السبل العمليّة لجعل لبنان مقرّا دوليًا معترفًا به من الأمم المتحدة كمركز رسميّ لحوار الأديان والثقافات». وقال: «إنّ الموضوع

الأعمال كاملةً تصدر قريبًا في كتاب عن منشورات الجامعة.

الأهمّ حاليًا هو تجاوز الحالة الطائفيّة والمذهبيّة المسيطرة على البلاد كي نرتقي إلى حالة التفاعل والإبداع وأن ننتقل من دولة المذاهب إلى وطن المواهب وإلى استعادة القرار الوطنيّ الحرّ والدولة المدنيّة، وهذا يملي علينا إقرار قانون انتخاب عصريّ وحديث يؤمّن المشاركة الحقيقيّة والتمثيل الصحيح لكلّ مكوّنات وأطياف المجتمع اللبنانيّ المقيم والمغترب».

كما نقل الوزير رسالة من فخامته إلى الطلاّب تقول: «كلّي إيمان بكم، رجالاً للغد، تنطلقون، تحملون الراية، تتبادلونها وترفعونها عالية. إرفعوا رؤوسكم عاليًا، فأنتم أبناء وأحفاد هؤلاء الرجال العظام الذين رفعوا اسم لبنان بإنجازاتهم ومثابرتهم وصبرهم ونضالهم. إنّ التحدّي أمامكم كبير جدًا، ولن يكون سهلاً عليكم المحافظة على مستويات إنجاز الكبار الذين سبقوكم وساهموا في إصلاح وطنكم، بعيدًا عن الحزبيّة الضيّقة والتقوقع. وليكن التضامن فيما بينكم شعارًا وهدفًا تعملون على تحقيقه أينما نزلتم وحللتم. المستقبل لكم إذا عرفتم كيف تهدمون جدران الانقسام والتباعد وتبنون منها جسورًا للتفاهم والتعاون والتواصل. المستقبل لكم فاصنعوه بأفكاركم وبأيديكم. أرضكم لكم فحافظوا عليها وافتخروا بانتمائكم لهذا الوطن. وتذكّروا دومًا ضرورة العمل على تحقيق نظام رعاية وحماية اجتماعيّة وتعاضد، إذ أنّ الأوطان لا تستقيم وتنمو إلاّ بتوازن كافّة أطياف مجتمعاتها».

الجلسة الأولى كانت تحت عنوان **«فلسفة النظام التعدّديّ اللبنانيّ: نجاحات وفشل»** وترأّسها **دولة الرئيس إيلي الفرزلي**، الذي طرح ثلاثة أسئلة استنتج من أجوبتها بأنّ النظام التعدّديّ اللبنانيّ ليس قائمًا فعليًا، ولذلك لا يمكن تقييم نجاحاته وفشله. كما اعتبر أنّ «رسالة لبنان موجودة بالقوّة» بالمعنى الأرسطيّ، ولكنّها تحتاج إلى من ينقلها إلى «الوجود الفعليّ».

ثمّ كانت مداخلة **للأباتي بولس نعمان** الذي تكلّم عن **أسس الكينونة اللبنانيّة وما إذا كانت لا تزال صالحة أم لا**، عارضًا للمراحل التاريخيّة التي أدّت الى تأسيس الدولة اللبنانيّة، مستخلصًا بأنّ الأسس لا تزال صالحة، ولكنّ اللبنانيّين عمومًا والمسيحيّين خصوصًا مدعوّون لإعادة التأكيد على هذه الأسس بشكل مستمرّ، وخاصّةً اليوم، إذ تتقدّم المنطقة كلّها باتجاه قيم التسامح والانفتاح والديمقراطيّة، ولا يجوز للبنان التراجع أبدًا.

أمّا مداخلة **الوزير إدمون رزق** فكانت تحت عنوان: **فلسفة الميثاق الوطنيّ: مقارنة مع الطائف**، وتضمّنت إعادة قراءة لمرحلة قيام الطائف والمبادئ التي قادت هذا الإتفاق. كما راجع سوء تطبيق الطائف في المرحلة السابقة مطالبًا بتطبيقه بشكل فعليّ وكامل قبل المطالبة بتغيير أيّ من نصوصه.

تلت ذلك كلمة **الوزير سليم جريصاتي**، ألقاها بالنيابة عنه الأستاذ **أندره الشدياق** بعنوان **«بين الميثاق والطائف: أيّهما بحاجة إلى تعديل؟»**. عرضت الكلمة للخصائص التي تتميّز بها الدساتير الديمقراطيّة مقارنةً مع واقع الدستور اللبنانيّ وتعديلاته على مرّ السنين. كما عرض جريصاتي لأبرز المشاكل التي يعاني منها الدستور المبنيّ على وثيقة الطائف كعدم المرونة، والحاجة إلى وصاية، والافتقاد إلى موقع المحكّم، مع تسجيل إيجابيّة تطوير مفهوم الديمقراطيّة الميثاقيّة.

الجلسة الثانية تعنونت «**النظريات العلميّة للأنظمة التعدّديّة والتطبيق اللبنانيّ**». ترأّسها البروفيسور إبراهيم نجّار الذي رفض كلّ توجّه نحو فدراليّة أو مركزيّة سياسيّة، لأنّه سيقضي على الصيغة اللبنانيّة. وتكلّم فيها الشيخ سامي الجميّل عن الأنظمة التشاركيّة والتوافقيّة ومتطلّبات نجاحها، والدكتور فارس سعيد عن مفهوم الدولة المدنيّة: وهل هو إبتكار مارونيّ؟ والدكتور إيلي الهندي عن الحقوق المدنيّة والإنسانيّة في النظام التوافقيّ الطائفيّ. كما أرسل الدكتور زياد ماجد ورقة عن الأفق العلمانيّ وأزمة الديمقراطيّة التوافقيّة، لكونه خارج البلاد.

تمحورت كلمة **الجميّل** حول التأكيد على أنّ لبنان لم يكن يومًا موحّدًا، وأنّ كلّ محاولات التوحيد بالقوّة وفرض الهويّة والانصهار الوطنيّ فشلت وستفشل لأنّها لا تعكس واقع المجتمع. كما اعتبر أنّ التصارع على سلطة واحدة مركزيّة هو سبب الخطر والمشاكل، ويمكن استبدال ذلك بنظام لامركزيّ موسّع بعدّة سلطات قريبة من الناس وخاضعة لمساءلتهم المباشرة بحيث يكون لكلّ فريق سلطته الخاصّة التي تعالج أموره ومخاوفه بالقانون والدستور، بدل أن تكون هذه الضمانات تتّكل على توافقات شخصيّة لأفراد وزعامات.

ثمّ تكلّم **سعيد** عن مفهوم الدولة المدنيّة، مناقشًا نشأة هذا المفهوم ومعناه الحقيقيّ الذي يعرف بالنفي، أي أنّ الدولة المدنيّة هي الدولة غير الأمنيّة وغير الشموليّة/الدينيّة. وتساءل ما إذا كان هذا المفهوم ابتكارًا مارونيًّا، أو إذا كان يمكن أن يكون مفيدًا للأنظمة الجديدة التي تقوم في مختلف الدول العربيّة...

الهندي تكلّم عن الحقوق المدنيّة والإنسانيّة في إطار النظام التوافقيّ الطائفيّ، مؤكّدًا على ضرورة التنبّه لحقوق الإنسان الفرد اللبنانيّ، التي رزحت تحت ثقل حقوق الجماعات وتجاذبها وصراعها على السلطة. وأكّد أنّ النظم التشاركيّة وُجدت لتضيف مستوىً تمثيليًا ينبع من الحاجة والواقع، كون الأفراد في بلد معيّن يشعرون بانتماء وسطيّ معيّن بالإضافة إلى انتمائهم الوطنيّ، ولكنّ النظام يفشل إذا ما فقد التوازن بين تمثيل الجماعات وتمثيل الأفراد وبين حقوق الإثنين، وهذا هو الحاصل في لبنان.

الجلسة الثالثة ترأّسها **الوزير زياد بارود**، وتركّزت على «**أسس السلم الأهليّ والاستقرار**» اللذين يشكّلان منطلقًا لا بدّ منه، بحسب بارود، ليتمكّن لبنان من القيام بدوره. تتالت في الجلسة أربع مداخلات.

تكلّم **البروفيسور شاهين غيث** على «**النظام الانتخابيّ: أيّ قالب لأيّ منتج**»، مقاربًا موضوع النظام الانتخابيّ النسبيّ ومقيّمًا نتائجه المحتملة وانعكاساها على الحياة السياسيّة اللبنانيّة. رأى غيث أنّ النظام النسبيّ لن يحقّق التغيير المنشود في الطبقة السياسيّة، بل سيَزيد من استئثار الزعامات القلائل بسياسة البلد على مدى طويل، خاصّة إذا اعتُمد حدّ أدنى للتمثيل هو ١٠٪ من الأصوات. كما شرح أنّ النسبيّة تزيد فترات اللااستقرار والمفاوضات والمحاصصة التي تسبق تشكيل كلّ حكومة، إذ سيصبح من الصعب تأمين وجود كتلة كبيرة لديها الأكثريّة.

ثمّ تكلّمت **الدكتورة ريان عسّاف** على **اللامركزيّة الإداريّة** مفنّدةً العوامل التي تجعلها حاجة ملحّة، وأهمّ المشاكل التي يمكن أن تساهم في حلّها. كما تكلّمت على المخاوف التي يمكن أن تكون من اللامركزيّة وعليها عند نشوئها وخلال قيامها. وإذ سألت عن كيفيّة خرق جدار المراوحة، رأت وجوب مناقشة وتوضيح بعض الأسس كالمعايير الواجب اعتمادها في عمليّة رسم حدود الوحدات اللامركزيّة، وفي عدد المستويات الإداريّة والنظام الانتخابيّ للمجالس المحليّة، ومدى صلاحيّات الوحدات اللامركزيّة، ومدى رقابة السلطة المركزيّة على ممارسة الوحدات اللامركزيّة لصلاحيّاتها، ومصادر تمويل الوحدات اللامركزيّة. وفي المناسبة أعلنت أنّه بات لدى رئاسة الجمهوريّة تصوّر واضح لكلّ هذه الأمور، بنتيجة ورشة عمل أُطلقت منذ فترة وضمّت عددًا من الخبراء، وأنّ مشروع قانون سيطرح في التداول قريبًا جدًّا.

الإعلاميّة جيزال خوري تحدّثت عن **دور الإعلام** وما إذا كان لبنان لا يزال يشكّل مثالاً وريادةً في هذا المجال، فرأت أنّ الإعلاميّ اللبنانيّ فقد دوره وبريقه وريادته لعدّة أسباب، أهمّها: محاصصة رخص المؤسّسات الإعلاميّة بين الطوائف، والإتّكال على العلاقات الشخصيّة والمصالح المتبادلة لإستقاء الأخبار لعدم وجود مصادر علميّة، وصغر حجم السوق الإعلاميّ والإعلانيّ اللبنانيّ، وفقدان الإهتمام بلبنان لاسيّما بعد بدء التحرّكات العربيّة إذ أنّ أخبارنا ومشاكلنا لم تتغيّر منذ عشرات السنين.

وفي الختام كانت كلمة **للنائب الأستاذ غسّان مخيبر** حول **دور المجتمع المدنيّ**، فاعتبر أنّ مؤسّساته هي في أساس العمل السياسيّ، أكانت أحزابًا سياسيّة أو نقابات أو منظمات غير حكوميّة

أو مؤسّسات أهليّة. وفضّل مخيبر الإبقاء على قانون الجمعيّات الحاليّ الذي يعود إلى ١٩٠٩، على أن يوضع قانون جديد قد يكون أسوأ منه في الظروف الحاليّة. لكنّ مخيبر أكّد ثقته بحيويّة المجتمع المدنيّ اللبنانيّ وفاعليّته التي تبرهنت في السنوات الأخيرة في عدّة مجالات، والتي يمكن أن تكون مثالاً للمجتمعات المدنيّة العربيّة في المرحلة الانتقاليّة.

الجلسة الرابعة توجّهت أكثر نحو رحاب المنطقة وتعنونت **«رسالة ودور لبنان في المنطقة»**، ترأّسها **الوزير خالد قبّاني**، وتضمّنت ثلاث كلمات حول ثلاثة مواضيع هي في أساس رسالة لبنان: الديمقراطيّة مع الدكتور جورج لبكي، العيش المشترك مع المقدّم شريف فيّاض، وحوار الحضارات مع الوزير أبراهيم شمس الدين.

د. لبكي ظهّر في كلمته **أهميّة الديمقراطيّة في حياة الإنسان**، معتبرًا أنّ التوق الإنسانيّ الطبيعيّ للديمقراطيّة لم يكن بالإمكان كبته إلى ما لا نهاية. ورأى بالتالي أنّ المرحلة الانتقاليّة في العالم العربيّ ستطول، كونها فعليًّا المرحلة التأسيسيّة الأولى لبناء الدولة على الأسس الصحيحة في هذه الدول. قال أنّ المخاطر والصعوبات كبيرة. وقدّم بعض التوصيات على الصعيد السياسيّ، كالإصلاح الاقتصاديّ، والعلاقة بين الدين والدولة، والعلاقة بين الأمن والديمقراطيّة.

المقدّم فيّاض عرض لتاريخ **التنافس والتصالح في تاريخ لبنان الحديث** وصولاً إلى مصالحة الجبل الأخيرة في العام ٢٠٠١، وغيرها الكثير من المبادرات الأهليّة والمحليّة التي تؤكّد للمراقب أنّ العيش المشترك في لبنان، ورغم بعض السقطات، قد نجح إلى حدّ كبير. واعتبر فياض أنّ هذا النجاح يجب أن يكون جزءًا من رسالة لبنان إلى المنطقة. وشدّد على تعبير العيش المشترك أو العيش معًا انطلاقًا من أدبيّات كمال جنبلاط والإرشاد الرسوليّ على حدّ سواء، بعيدًا من تعبير التعايش الذي يعني «أنّ نتحمّل أن يعيش في جوارنا فلان على علاّته.... الذي نريده هو القبول بفلان بانفتاح ومحبّة وتفهّم كامل لعقيدته وتفكيره».

الوزير شمس الدين أضاء على أمكان قيام **لبنان كمركز لحوار الحضارات،** معتبرًا أنّ هذا من صلب كينونته وسبب وجوده. ولكنّ لبنان في وضعه اليوم- قال- بعيد عن القيام بهذا الدور، كونه ليس موحّدًا وليس فيه لا حوار ولا استقرار. ورأى أنّه لم يكن في لبنان يومًا حربٌ دينيّة، لأنّ كلّ من قاتلوا ويقتلون باسم الله هم من غير المتديّنين ولا يمثّلون حقيقة الدين، أيّا كان هذا الدين. أضاف شمس الدين، منطلقًا من أدبيّات والده الإمام، أنّ الحوار يمكن أن يكون حوار السيف الذي يسعى إلى الغلبة بالقوّة على الآخر، أو حوار اللاهوت الارغاميّ الذي يسعى إلى تغيير دين الشخص الآخر. أمّا الحوار المطلوب فهو حوار للحياة والمستقبل، مدركين بأنّ المسيحيّين والمسلمين في الشرق هما كضفّتي نهر لا يمكن افتراقهما، وإذا ما افترقا انتفى سبب وجود الآخر.

وفي الخلاصة التي يمكن استقاؤها من المحاضرات والمناقشات أنّ دور ورسالة لبنان كما أُوكلا إليه هما أكبر وأهمّ بكثير من واقعنا الحاليّ، وبالتالي فنحن كلبنانيّين مدعوّون لإعادة اكتشاف دورنا والارتقاء إلى حجم المسؤوليّة، لكي يبقى لبنان، ويبقى المسيحيّون ملح هذا الشرق ونوره، لا بل لكي لا يخسر هذا الشرق نكهته وسحره. خمسة عشر عامًا مرّت على الإرشاد الرسوليّ للبنان، وها هو إرشاد رسوليّ جديد لمسيحيّي الشرق يُطلق من لبنان، فهل بنينا في الخمسة عشر عامًا هذه مؤسّساتنا وأهّلنا أنفسنا لهذه المرحلة التاريخيّة والدور المطلوب منّا أبعد من الحدود.

«في نهاية هذا العمر سنحاسَب ليس فقط على الأمور السيّئة التي فعلناها، بل أيضًا على الأمور الجيّدة التي لم نفعلها».

سعيد عقل الإرث والمبتكَر
-حلقة دراسيّة-

تقرير د. جميل الدويهي

في إطار الاحتفالات باليوبيل الفضّيّ لجامعة سيّدة اللويزة، وبمناسبة مئويّة ولادة الأديب والشاعر سعيد عقل، دعت كلّيّة العلوم الإنسانيّة في الجامعة إلى حلقة دراسيّة، في ٢٠١٢/٦/٢٩، بعنوان: «سعيد عقل الإرث والمبتكَر»، برعاية وزير الثقافة غابي ليّون، شارك فيها عدد من الباحثين الأكاديميّين والشعراء والأدباء وجمهور الثقافة والأدب ومحبّي سعيد عقل.

استهلّ **جلسة الافتتاح** نائب الرئيس للعلاقات العامّة والشؤون الثقافيّة **الأستاذ سهيل مطر** مرحِّبًا وقائلاً إنّ سعيد عقل يشاركنا الاحتفال و«ما صعدنا إليه مرّة، ونحن دائمًا نصعد، إلاّ وبادر بالقول: كيف جامعتي؟... أعطاها وأعطته، ولكن شتّان. أعطيناه الحبّ، نعم، ولكن أعطانا لا الإرث فحسب، بل عظمة أن يكون أحدَ زملائنا في الجامعة». وتمنّى مطر على ليّون أن تعمل وزارته على نشر أفكار سعيد عقل، كتبًا وأفلامًا وحلقاتٍ دراسيّة، وشوارعَ وطوابعَ وتماثيلَ مجد وكرامة.

د. منصور عيد، رئيس قسم العلوم السلوكيّة والاجتماعيّة في الجامعة، تناول في كلمته مسألتين: الأدمغة اللبنانيّة التي ستغزو العالم، واللغة اللبنانيّة التي ستصبح لغة الناس في كلِّ بقاع الأرض. وأشار إلى أنّ شباب لبنان «يحقّقون منذ ثورة التكنولوجيا حُلم سعيد عقل: الأدمغة اللبنانيّة التي تغزو العالم وأبناء العالم الذين وحّدتهم لغة الكومبيوتر والعولمة يكتبون بلغة سعيد عقل». وذكر عيد أنّ عالمًا يابانيًا اسمه ماسودا قد تحدّث عن لغة كونيّة توحِّد الشعوب، وذلك بعد ربع قرن من دعوة سعيد عقل. وأبناؤنا اليوم «هم جيل هذه المعادلة الكونيّة في التواصل والتفاهم والحوار». وختم: إنّ سعيد عقل كان لفترة من الزمن أستاذًا في كلّيّة الإنسانيّات في الجامعة... وكان على طريقته يحلم، فيبدع، ويمتع ويخلق المبتكَر.

ثمّ كانت كلمة **رئيس الجامعة الأب وليد موسى**، الذي أشار إلى أنّ زمالة الجامعة مع سعيد عقل تعود إلى أكثر من عشرين سنة، فحضوره الدائم في جامعتنا يجعله أكثر من أخٍ، وتصبح هويّة الثقافة مظلّة تظلّلنا جميعًا بالدفء والنور والعطاء.

وأكّد الأب الرئيس أنّ سعيد عقل لا يعيش على دواء بقدر ما يعيش على الحبّ والإيمان والشعر، «ينتعش عندما يصلِّي أو يردِّد إحدى القصائد، فكأنّه يتحدّى ذاكرته، ويرتفع بالإيمان إلى درجة القداسة».

ووعد الأب موسى أن تعمل الجامعة على الاحتفاظ بإرث سعيد عقل... «لبنان لا يحيا إلاّ بالثقافة. سعيد عقل وأمثاله يمنحوننا الأمل والتفاؤل. لن نيأس. سنتابع الطريق، رغم كلِّ الظروف الصعبة».

وختم **الوزير غابي ليّون** الجلسة الافتتاحيّة بتوجيه شكر إلى الجامعة على هذا اللقاء الثقافيّ. ثمّ اعتبر أنّ سعيد عقل ولبنان لا يختلفان، «كلاهما خالد، وكلاهما يتميّز بالحضارة والحرّيّة والإيمان والعظمة». وأضاف: «سعيد

الأعمال كاملةً تصدر قريبًا في كتاب عن منشورات الجامعة.

عقل ورث الكثير وأورثنا الكثير. والإرث ليس مادّة، بل هو ثقافةٌ وفنٌّ وجمال. وقد حوّل الشاعر هذا الإرث، في معجن عقله، إلى أرغفة تحمل اسم سعيد عقل وطابعه الخاصّ».

ووصف عقل بالظاهرة العالميّة: «رجل في المئة لا يزال يتمتّع بالنبض والحيويّة والابتكار».

وأشار الوزير ليّون من جهة أخرى إلى الاضطراب السياسيّ الذي يعمّ العالم العربيّ، حيث «تختلط المفاهيم، وتتساوى القيم المتناقضة... فلا يعود يسهل التمييز بين الصراخ والغناء، بين الضجيج والنغم، وأكاد أقول بين الخير والشرّ، أو بين التجديف والصلاة. ولكنّ الغريب أن يتساوى المثقّفون بالغوغاء، والمفكِّرون بالّذين لا يعنيهم التفكير، والكتّاب بمن لا يعرفون القراءة والكتابة».

وانتقد أخيرًا تلك المواقف التي تنال من سعيد عقل، حيث يخلط المنتقدون بين القيمة الإبداعيّة لأدبه وبعض مواقفه السياسيّة الشخصيّة المرتبطة بظروف وأزمنة صارت غابرة.

الجلسة الأولى:

الجلسة الأولى «بين الصورة والأسطورة والنظريّة الشعريّة» ترأّسها نائب الرئيس للشؤون الأكاديميّة **د. أمين ألبرت الريحاني**، الذي أشار إلى أنّ سعيد عقل «لا يستهوي المدارسَ الشعريّة، ولا الاتجاهاتِ الأدبيّةَ التي عبثًا تحاول تصنيفَ الشعراءِ وأهلِ القلم. وإذا شئنا تصنيفًا، فالتصنيفُ مع شاعرِ قُدموس لا يكونُ مستمدًّا سوى من ذاتِه، لا يكونُ غيرَ شعرِ «سَعقَليّ» نسبةً لسعيد عقل نفسِه، لا لسواه من المدارسِ والاتجاهات».

واعتبر الريحاني أنّ سعيد عقل ليس مأسورًا في المذاهب الأدبيّة المختلفة، فهو «ينحتُ في الضوء، لأنّه أرادَ لصورته الشعريّة أن تكونَ شباكًا للقارئ تواجِهُهُ وتفتحُ قدراتِه التخيُّليّةَ المتحرّكة، لا جسورًا تصلُ إليه وتستقرّ». أمّا صور سعيد عقل فقلّما تشبه صورةً عند شاعر قديم أو حديث، وقد يتوهّم القارئ أنّه يستطيع الإمساك بهذه الصور، غير أنّها «تنطوي على طبقاتٍ من المعاني اللامتناهية في كثير من الأحيان». ووصف الريحاني سعيد عقل بالشاعر المقدام، والرائد في اللغة والتركيب والصورة والموضوع.

د. جميل الدويهي، من جامعة سيّدة اللويزة، تناول في مداخلته «الأسطورة في أدب سعيد عقل»، معتبرًا أنّ «المجدليّة» ليست أسطورة، ومثلها «بنت يفتاح» بحسب التعريف العلميّ الدقيق للأساطير، ولذلك فإنّ التركيز في البحث يتناول مسرحيّة «قدموس» وكتاب «لبنان إن حكى».

وردّ الدويهي أساطير عقل إلى مصادرها في التراث الفينيقيّ، واليونانيّ، والمصريّ القديم، والتوراتيّ، والمسيحيّ. وبيّن العناصر التي أبقاها سعيد عقل من دون تغيير، وتلك التي تصرّف بها. ثمّ قدّم دراسة تحليليّة للقَصص الأسطوريّ عند عقل، فاعتبر «أنّ الكاتب يضع في المقام الأوّل مضمون العمل الفنّيّ، والهدف الذي كُتب من أجله. فهو يريد التأكيد على مجموعة من القيَم، التي يتطلّبها النصّ الكلاسيكيّ. فقدموس يمثّل الشجاعة الفائقة، لأنّه مغامر في البحر، يتحدّى الإله زوش أعظم الآلهة، محاولاً استعادة أخته أوروب، ومحاربًا التنّين الشرّير الذي لا يقهرِه بطل عاديّ».

ولاحظ الباحث وجود نفحة ملحميّة في أساطير عقل، ودرس القيَم الإنسانيّة والوطنيّة التي أراد أن يركّز عليها، كالشجاعة، والوفاء، والصراع بين الخير والشرّ بحيث تتخطّى الأسطورة الطابع المحلّيّ لتصبح أكثر شمولاً وإنسانيّة.

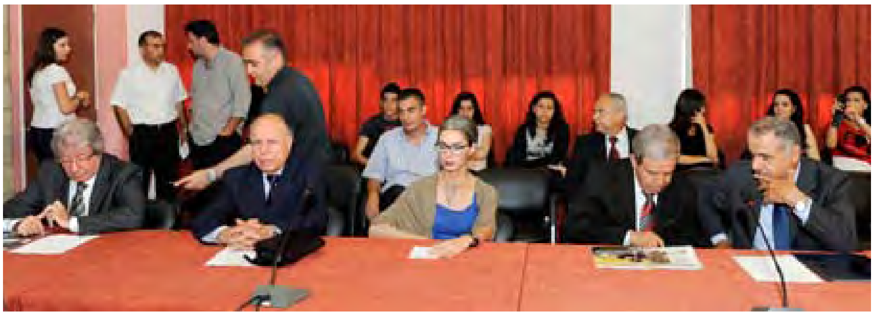

وعلى الرّغم من تقيُّد عقل بحقيقة التاريخ، فقد نجح في تقديم نصوص أسطوريّة هادفة، انطلق فيها من الفضاء المحدود للكلاسيكيّة إلى فضاء الرمزيّة الأوسع؛ ولا ينبغي هنا الخلط بين الأدب والموقف السياسيّ، فإنّ «انتقاد سعيد عقل على تمجيده للقوميّة اللبنانيّة، لا يأتي في إطار النقد الأدبيِّ، إنّما في إطار النقد السياسيِّ».

د. منيف موسى، من الجامعة اللبنانيّة، تحدّث في موضوع «النظريّة الشعريّة»، فتناول علاقته بسعيد عقل، وقال: «غدا هذا الرجل شاعرًا عجبًا، ففكّ رصد الإيقاع الموسيقيّ، وجعله جملاً موسيقيّة توازي العروض الكلاسيكيّة، فكان كبير الماهدين في حركة الحداثة الشعريّة، على صعيد الشعر، وكانت قصيدته «شيراز»... تسجيلاً لبداية عهد حداثة القصيدة العربيّة بمفهومها الأكاديميّ النقديّ- اليوم».

وفصّل موسى علاقته تلك، مسجّلاً لشاعرنا مواقف أدبيّة رفيعة، كما لفت إلى العديد من النصوص النادرة عن عقل وله، وجميعها من أرشيفه الشخصيّ، فختم مداخلته بالقول: «قد قبسنا من أدبه وشعره وفكره مجموع تعاليم وأفكار وقيَم، وهو اليوم في عامه المئة، نهدي باقة ورد وأرز وغار من أرض لبنان إلى «دولة لبنان الروحيّة... ويا سعيد عقل، ستبقى وهج الشعر العربيّ المعاصر».

د. ديزيريه سقّال، مدير كلِّيّة الآداب في الجامعة اللبنانيّة، تناول من جانبه موضوع «الصورة الفراغيّة في شعر سعيد عقل»، فأشار إلى تأثُّر سعيد عقل ببول فاليري، ومن خلاله بمالارميه، «وسعيد عقل حدّد رسالته الشعريّة بخلق كثافة جمال، وكانت الكلمة عند فاليري، وكذلك عند مالارميه، هي «الوسيلة» التي يلجأ العقل إليها ليتكاثر في العدم». وقال سقّال: «لقد سعى هذا الشاعر إلى رفع الذات الإنسانيّة إلى مستوى الذات الإلهيّة، لتستطيع الاتِّحاد بالله من خلال سفرها المطلق، وذلك عبر الحبِّ».

وحدّد الدكتور سقّال صورة الفراغ بأن «يولِّد الشاعر صورة من مركّبين لا يجتمعان... والصورة الفراغيّة تصدم الوعي العامّ، لأنّها تَخرج من المألوف، وتُخرج الأشياء من حكم الواقع إلى ما هو خارج، إلى فراغ صاف هو بمنزلة العدم الأوّل».

وأشار إلى أنّ عقل «آمن كفاليري بأنّ الشعر الصافي لا يكون إلاّ في بيت، أو في فلذة بيت... وكلّ كلمة تنمو على أساس تراكم من المعاني يتكاثر عليها عبر الزمن من خلال الاستعمال، ويعطيها ذاكرتها... وعندما يعمل الشاعر على إزاحة التراكم من فوق الكلمة ينسف مرجعها، وتصير تلك الكلمة أشبه باللغو، لأنّ المعنى ينفتح فيها على أيِّ شيء يمكن أن يستمدّه. سعيد عقل لم يترك الكلمة تسقط في اللغو، بل أسّس لها مرجعًا جديدًا ليعيد استعمالها بشكل مختلف، وبهذا الفعل كان يخلق بها ما ليس موجودًا في الواقع».

وبعد أن شرح الدكتور سقّال معنى «قراءة الغياب» واللغة كضرب من الصمت، «ختم مداخلته بالقول إنّ العمارة التي وضعها سعيد عقل في الشعر العربيّ "بلغت ما لم يبلغه شاعر قبله، وقبضت على وشائج البناء الشعريّ، لتجعل منه أفق خلاص للذات، تتحرّر به من نقصان الواقع، وتسمو إلى سماء الألوهة».

الجلسة الثانية:

الجلسة الثانية كانت بعنوان **«من لبنان إلى السماء»** ترأّسها **د. هنري عويط**، نائب رئيس جامعة القدِّيس يوسف، الذي توقّف عند ثلاث محطّات: الوطنيّات، الروحانيّة، والتسامي بالوطن فوق قيود الزمان والمكان والتاريخ والجغرافيا، ليغدو الوطن «معراجًا إلى السماء ومرقاةً إلى الله من جهة، ومهبط الوحي ومستودع الرسالة من جهة ثانية». ولفت إلى أنّ دنيا سعيد عقل الأدبيّة «هي من الرحابة والكثافة والعمق،

بما يتيح تعدُّد القراءات، وتنوُّع الإشكاليّات والمقاربات، ووفرة الأسئلة والإجابات».

د. أنطوان نجيم، من جامعة الروح القدس- الكسليك، تحدّث تحت عنوان «سعيد عقل والربيعُ اللبنانيُّ المبكر»، فاعتبر أنّ سعيد عقل «أسهم إسهامًا حاسمًا في إيقاظ وعيٍ لبنانيّ أكيد، بما ضمّنه كتاباته من عنفوان وكرامة وحسّ وطنيّ، ما كان له فعله في النفوس وحفَزها على التمسُّك بالحرّيّة والديمقراطيّة والحفاظ على الحقوق الأساسيّة للإنسان».

واستعرض نجيم علاقة سعيد عقل بالتيّارات السياسيّة المختلفة، وذكر باقة من قصائده الوطنيّة، ومقتطفات من مسرحيّة «قدموس»، ومقاطع من «لبنان إن حكى»، مؤكِّدًا أنّه أراد بناء النفوس استعدادًا للربيع الدائم، وعمل على «بلورة ما يتصوّره جوهر الكيان اللبنانيّ، وما يجب أن يكون عليه المواطن اللبنانيُّ، ليستحقّ الانتساب إلى هذا الوطن».

ثمّ أكّد على فكرة الحرّيّة عند سعيد عقل، و«هذا هو الربيع الذي زرع بذوره في النفوس، فأثمرت بواكيرها قبل انتفاضة أيِّ سنونوة ربيعيّة في دنيا العرب... أجل كان لدى سعيد عقل رؤيا نبويّة، وما يكفي من الجرأة لتجسيدها شعرًا، والالتزام بتبعاتها».

وأشار الباحث إلى المسؤوليّة التي تقع علينا كورثة، أملاً في أن تؤول بنا هذه المسؤوليّة إلى اجتراح إنجازات تليق بقدر المثال.

وعن «السماء في شعر سعيد عقل» تحدّث **د. حسام سباط،** عميد كلّيّة الآداب في جامعة الجنان، ورئيس دائرة الإفتاء في طرابلس، فأوضح أنّ للسماء خصوصيّة عند سعيد عقل حتّى كأنّها له وحده ولمن يحبُّ... كما أنّها مسرح الخيال، ورمز الرفعة والعلاء، وشاعرنا واسع المخيِّلة، وله في نفسه عزّة وفخار».

وأقام سباط علاقة جدليّة بين القدس، زهرة المدائن ومدينة الصلاة من جهة، والسماء من جهة ثانية، وهي علاقة إيمان وجمال، وهما (الإيمان والجمال) من أبرز ملامح شخصيّة سعيد كما فهمتها."

وتطرّق الباحث إلى «سماء سعيد»، فإذا هي سماء القدس، وسماء مكّة، وسماء لبنان. ثمّ قدّم نماذج من شعره، بدت فيها صورة السماء بمختلف ألوانها ومعانيها.

وأخيرًا انتقل إلى الحديث عن المفردات والصور والإيقاع، خالصًا إلى أنّ عقل وظّف العناصر الشعريّة لكي يمزج «التاريخ بالجغرافيا بالرمز الدينيِّ المستقى من ذاكرة موغلة في استنباط الصور وابتكار الحالات».

د. جورج زكي الحاج، من الجامعة اللبنانيّة، وتحت عنوان «الأثرُ اللاهوتيُّ في أدب سعيد عقل»، توقّف عند المحاور اللاهوتيّة المسيحيّة في شعر عقل، شارحًا المفردات والتراكيب ذات البعد الدينيّ. كما أوضح العلائق بين الأبعاد اللاهوتيّة في شعر سعيد عقل وحياته التي تميّزت بالبعد عن الشهوة، والالتزام بالأسرار المسيحيّة، كالاعتراف الذي «يولِّد الطمأنينة، لأنّه يعتقد أنّ الخلاص من رزء الخطيئة والدنس قد تمّ نتيجة هذا الاعتراف».

وأشار الباحث إلى مجموعة من الأسئلة التي طرحها سعيد عقل في شعره، «منطلقًا من المذهب الديكارتيِّ بالشكِّ»، مشيرًا إلى تأثُّر الشاعر بالفلسفة اليونانيّة، والكلاسيكيّة الأدبيّة، وثلاثيِّ الحقِّ والخير والجمال، الذي يعادل في المفهوم الدينيِّ القدرة والمعرفة والمحبّة. وأضاف أنّ سعيد عقل «ينطلق من «الأنا» صوب الاتِّحاد الإلهيّ، إلى حدّ الاقتراب من الله، سالكًا طريق الشفوف الارتقائيّ».

وبعد أن أوضح معنى المشاركة الإلهيّة، أي مشاركة الله في الأبد، ومشاركة الله في إكمال التحفة- الكون، خلص إلى القول: «مع سعيد عقل ينتفي وجود النسبيّة «الأينشتاينيّة»، وتنشف الدمعة، وتمسح في الخفاء، كي لا تترك أثرًا آخر

في عالم الغبطة الذي سعى إليه الشاعر جاهدًا كي يرسو فيه».

الجلسة الثالثة:

الجلسة الثالثة «**سعيد عقل والمبتكَر**» ترأّسها **د. جميل الدويهي**، الذي اعتبر أنّه مهما اجتهد الباحثون في دراسة سعيد عقل، فإنّ كثيرًا من الأسرار ستبقى محجوبة إلى سنين طويلة، ولعلّ الشاعر نفسه أراد لتلك الأسرار أن تبقى محجوبة، فلا يهتدي إليها أحد. وهذه الإشكاليّة ستبقى معلّقة، وسيبقى هناك مَن يتعثّرون، وهم يحثّون الخطى في اتّجاه قلب الشاعر وفكره، وعقيدته الفنّيّة الغنيّة.

وقدّم **د. سعدي عبد اللطيف ضنّاوي**، من الجامعة اللبنانيّة- طرابلس، قراءات تحليليّة، تناول فيها قصيدة «أجمل من عينيكِ»، فرأى أنّ سعيد عقل، الشاعر المحلِّق، لم تستهوه محبوبة من البشر، لأنّه لم يجد فيهم من تستطيع التحليق إلى عالمه، فخلق لنفسه محبوبة... «إلاّ أنّ محبوبة سعيد عقل، إن هو أوجدها، قد بقيت في عالمها، عالم الظنّ والوهم، وأرقى، وهو يربأ بها أن تسكن هذا العالم، عالم الصراع على المصالح، عالم الحسد...»

أمّا اللقاء بين عقل وحبيبته، فاعتبره د. ضنّاوي لقاءً صوفيًا، «فهو ليقوم بالنقلة الصوفيّة، يركب الأرجوحة... إنّ حركة الأرجوحة أشبه بحركة الارتقاء الصوفيّ، أو بحركة التشوّق الأفلاطونيّ».

وتساءل الباحث عن كيفيّة الوصول إلى عالم المحبوبة، أي عالم الروح، والوصولُ إلى ذلك العالم «يقوم على إرادة سامية تحفّزها نفس متشوّقة ارتاضت على قهر الجسد، ومحاولة الانفلات منه صعدًا».

ومن الجامعة اللبنانيّة، تحدّث أيضًا **د. ساسين عسّاف** عن «معايير الابتكار مستلّةً من براءات جائزة سعيد عقل»، فرأى أنّ الكائن عند سعيد عقل هو ثالوث من معرفة (الفلسفة)، وقدرة (اللاهوت)، ومحبّة (الأخلاق). وهذا الثالوث يختصر بواحد هو الجمال.

وقال عسّاف: «لكلِّ ابتكار عنده بعدان: جماليّ وأخلاقيّ. الجماليّ والأخلاقيّ يشكِّلان وحدة عضويّة. فالجميل هو الأخلاقيّ الذي يسمو بالإنسان، ويزيده قدرًا وشرفًا. والأخلاقيّ هو الخير عندما يرتبط بالجميل...». أمّا ضروب الابتكار عند سعيد عقل فهي البساطة والأناقة واللطف، ومعيار الابتكار «الجلال والبساطة الآسرة والقوّة

والكتناز والذهول وسحر الكلمة الرائعة. الكلمة البكر الطليقة المتحرِّرة من سجن الاستخدام المعجميّ العاديّ أو المألوف، والمنفلتة من سياقها التقليديّ».

وعدّد الباحث ضروب الابتكار عند سعيد عقل، ومنها: نهاية صلاة، الوقار، العطاء الشهم. وهذه الضروب مترابطة ومرتّبة في نسق كامل. كما أشار الباحث إلى مصادر المفاهيم المتعلّقة بالابتكار عند عقل: فمن الأكويني استنبط مفهوم «النزوع إلى السعادة»، ومن أغسطينوس استنبط مفهوم الخير المتجسِّد في الله، ومن هيرقليط استنبط مفهوم النار القادرة على الخلق، ومن كانط استنبط مفهوم النظرة المثاليّة إلى الأخلاق، ومن لونجينوس يستنبط مفهوم الجليل، أي ما هو سامٍ ورائع غير متناه في سموّه وروعته، ومن سبينوزا يستنبط مفهوم الجوهر القائم بذاته، ومن فلسفة الطهريّين يستنبط مفهوم النقاء.

وخلص الباحث إلى القول إنّ «معياريّة الابتكار عند سعيد عقل تتجاوز بكثير محدوديّة المعايير المألوفة والمقروءة في كتب النقد الادبيّ أو النقد الفنّيّ. وإذا ما حاول الناقد المسؤول والأكاديميّ الرصين تطبيقها على متصدِّري لوائح الأدب والفنّ... لسقطت أسماءكثيرة، لا بل لوائح بكاملها، ولغابت وجوه عن قاعات وشاشات ومنابر موسومة بكلام غير مأمون».

الجلسة الرابعة:

وكانت الجلسة الرابعة «**قصائد في سعيد عقل**»، شارك فيها: **فيكتوريا سلموني نصراني، وإيلي مارون خليل، وريما نجم بجّاني**.

الجامعة بين التقليد والعولمة
مؤتمر جامع ما بين ملامح المستقبل وظلال التراث والمعتاد في دير القمر

تقرير د. سوسن نجّار

نظّمت جامعة سيِّدة اللويزة- الشوف، فرع دير القمر، وضمن النشاطات الفكريّة والثقافيّة الدوريّة التي دأبت على تفعيلها، مؤتمرًا تحت عنوان: «الجامعة بين التقليد والعولمة»، وذلك نهار الجمعة، ٣٠ آذار ٢٠١٢، حيث توزّعت الجلسات والمداخلات على يوم طويل بدأ عند التاسعة صباحًا بحفل الافتتاح الذي حضره ممثّل راعي المؤتمر، معالي وزير التربية والتعليم العالي الدكتور حسّان دياب، المستشار الدكتور مازن الخطيب، ورئيس جامعة سيِّدة اللويزة الأب وليد موسى، والمضيف، مدير جامعة سيِّدة اللويزة- الشوف، الأب فرنسوا عقل، بالإضافة إلى حشد من الشخصيّات الدينيّة والسياسيّة، والفعاليّات الأكاديميّة والتعليميّة والإعلاميّة، وممثّلي المجتمع المدنيّ، ونخبة من أصحاب الفكر والريادة؛ ولم ينتهِ إلاّ عند الرابعة عصرًا، بتلاوة للتوصيات التي خرج بها المؤتمرون.

• الافتتاح

- الأب المدير عقل: الدعوة إلى ربيع علميّ ثقافيّ تكنولوجيّ حضاريّ

بعد النشيد الوطنيّ اللبنانيّ، وكلمة ترحيب وتقديم من الدكتور الياس رزق، كانت كلمات لكلٍّ من مدير جامعة سيِّدة اللويزة الأب فرنسوا عقل، الذي رحّب بحفاوة بالحضور، وعرض لمعاني العلم والعولمة، ولأهداف المؤتمر، قائلاً: «أرادت الجامعة عبر هذا المؤتمر أن تقوم بدورها الثقافيّ الريادي، وتخاطب المجتمع الخارجيّ بمواجهة إحدى إشكاليّاته الراهنة، طامحة إلى الخروج من شرنقة التقاليد الجامدة، نحو عصرنة علميّة نوعيّة مدروسة».

- الأب الرئيس موسى: استبدال «التقليد» بـ«الأصالة»، و«العولمة» بـ«العالميّة»

ورأى رئيس جامعة سيِّدة اللويزة، الأب وليد موسى في كلمته، أنّ القرن الحادي والعشرين يحمل، منذ استهلاله الأوّل، بذور الصدام ما بين العولمة والأصوليّة؛ لذا فإنّ دور الجامعات يكمن في كيفيّة التوفيق ما بين الأصالة والعولمة، أو العالميّة، مشدّدًا على أنّ ذلك لا يكون إلاّ بالعمل الجدّي، على أن تكون الثقافة أساسًا للعمل الجامعيّ.

- الدكتور الخطيب: التناغم ما بين حاجات المجتمع وما تقدّمه الجامعات المستوردة للبرامج والأنظمة التعليميّة

أمّا مستشار وممثّل راعي المؤتمر، معالي وزير التربية الدكتور حسّان دياب، الدكتور مازن الخطيب، فقد تناول موضوع تأثير عصر العولمة واقتصاد المعرفة على التعليم الجامعيّ، وشدّد على ضرورة زيادة حركة البحث والتطوير بتمويل من القطاع الخاصّ، وبإعداد خرّيجين قادرين على مواكبة التطوّرات العلميّة والتكنولوجيّة.

• الجلسة الأولى: مجتمع أمثل... جامعة فضلى

- البستاني: الجامعة هي في خدمة المجتمع

بعد استراحة قصيرة، بدأت أعمال الجلسة الأولى، والتي كانت بإدارة عميد كلّية الحقوق في جامعة الحكمة، ورئيس جمعيّة أصدقاء المكتبة الوطنيّة في بعقلين، الدكتور مارون البستاني، الذي عرض لعلاقة الجامعة الوثيقة بالمجتمع؛ لأنّ الجامعة تعمل في المجتمع وله، عارضًا لأهمّية «صناعة البشر» و«المعرفة البنّاءة».

-المطران الحدّاد: دور الدين في بناء الجامعة والمجتمع

ورأى المطران إيلي بشارة الحدّاد أنّ الدين هو الذي يضبط إيقاع العمل الجامعيّ، والذي سينعكس بدوره انتظامًا في إيقاع المجتمع. وقدّم دراسة فائضة عن ارتباط العلوم بالدين، وأثر الأخير في تطوّر الحياة العقليّة والفكريّة، سائقًا الأمثلة الرسوليّة المباركة، وانعكاس أثر المدارس المسيحيّة (الفكريّة) على تطوّر المجتمعات بكلّ أطيافها.

-الشيخ أبو خزام: بيئة سليمة، جامعة سليمة

أمّا الشيخ نظام أبي خزام، رئيس جمعيّة مؤسّسة البيت اللبنانيّ للبيئة، فقد فنّد لمجموعة خطوات وتوصيات توجّه بها إلى الطالب الجامعيّ، داعيًا إيّاه لأن يلعب دوره البنّاء، كإنسان هو ابن بيئته ومجتمعه، في الحفاظ على البيئة، وموارد الطبيعة والطاقة، واحترام الخلق والإبداع في صوره الأوّليّة.

-مطر: الجامعة والمجتمع، تناقض أم توافق؟

وتوقّف نائب رئيس جامعة سيّدة اللويزة للعلاقات العامّة والشؤون الثقافيّة، الأستاذ سهيل مطر، عند الواقع الاجتماعيّ اللبنانيّ الراهن وسلوكيّات الشباب والسلطة، متوقّفًا عند «الآثار الجانبيّة» للطفرات العصريّة، داعيًا إلى التبصّر في استخدامها.

• الجلسة الثانية: لكَ رأيكَ ولي رأيي

-بو هدير: معالجة صراع الحضارات يكون بالحوار الهادئ، والبنّاء، والمسؤول

أمّا الجلسة الثانية، فقد أدارها الإعلاميّ ماجد بو هدير الذي قدّم لكلمته باستذكار لدستور الحياة، من خلال نصوص الكتاب المقدّس القائمة على المحبّة، والتسامح، وقبول الآخر، مشدّدًا على القيمة الإنسانيّة للفرد/الطالب الذي خصّه بصفات ومميّزات تعمّق أهمّيته ككائن بشريّ تقوم على مسيرته وسلوكيّاته في المجتمعات.

- برّي: مواجهة أم تفاهم مع العائلة؟

وميّزت عميدة كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة في الجامعة اللبنانيّة، الدكتور وفاء برّي، في مداخلتها، ما بين جغرافيّة الطفولة (العائلة)، وجغرافيّة الراشدين (الجامعة)، عازيةً إلى الجامعة الدور الأهمّ في تعليم الطالب كيفيّة اكتشاف ذكاءاته واستخدامها، وتنمية قدرته على اتخاذ القرار.

- صفير: قوانين الجامعة

أمّا الدكتور أنطوان صفير، فقد أضاء على مسائل قانونيّة تتعلّق بتنظيم العمل الجامعيّ، بعد أن بدأت أزمات القطاع الجامعيّ بالتوالي. وفي معرض حديثه عن العولمة، رأى صفير أنّ الجامعات يجب أن تواكب العولمة، لا أن تصبح إحدى ضحاياها!

- بو نصر الدين: الطلاّب، والصراع الدائم

وتحدّثت الطالبة ميليا بو نصر الدين عن شؤون وشجون الطالب اللبنانيّ أينما كان، وإلى أيّ جامعة انتمى، عارضة لأوضاع الجامعة اللبنانيّة، والجامعة الخاصّة، مفنّدة المشاكل التي يعاني منها الطلاّب في لبنان وسبل معالجتها.

هذا، وقد أعقبت هذه الجلسة مجموعة مداخلات كانت أولاها للأب المدير فرنسوا عقل الذي صوّب ما ذُكر بشأن الأقساط الجامعيّة المرتفعة في الجامعات الخاصّة، سائقًا مثال جامعة سيِّدة اللويزة التي فتحت للطلاّب أكثر من باب للإفادة من المنح الجامعيّة والمساعدات التي تصبّ في خدمة الطالب ليس إلاّ. كذلك تحدّث الأستاذ عدنان منذر (مدير مدرسة سابق، وناشط في أكثر من جمعيّة ثقافيّة وفكريّة) متسائلاً عن دور الجامعات في تحسين المستوى التعليميّ، وأثر استخدام الوسائل التعليميّة الحديثة المعتمدة على شبكات التواصل عبر الإنترنت. أمّا المداخلة الأخيرة، فكانت للدكتور جورج عيد، الذي تحدّث في موضوع شهادة الدكتوراه.

وبعد فراغ المنتدين من إبداء الرأي، انتقل الجميع لتناول طعام الغداء، في مأدبة أقامتها إدارة الجامعة على شرف ضيوفها في ذلك اليوم المميّز.

• **الجلسة الثالثة: الجامعة وتحدّيات العصر**

- الشيخ أبي المنى: مسؤوليّة إقامة التوازن ما بين التقليد والتجدّد

وفي تقديمه للجلسة الختاميّة، عرض أمين عامّ مؤسّسة العرفان التوحيديّة، الشيخ سامي أبي المنى، لما يجب أن تتحلّى به الجامعة من قدرة على مواكبة تحدّيات العصر، منوّهًا بدور التعليم من حيث هو عمليّة «صناعة أجيال المستقبل».

-الحاج: العلم والفنّ ما بين التقليد والعولمة

في المداخلة الأولى، تحدّث عميد معهد الفنون الجميلة في الجامعة اللبنانيّة، الدكتور محمّد حسني الحاج، وبشكل مفصّل، عن الفنّ وملازمته لمقولة «تحديث التقليد»، وذلك لكون الفنّ إرثًا حضاريًا وفكريًا واجتماعيًا لا يمكننا أن نضرب به عرض الحائط، إرضاءً لشعار العولمة.

-يشوعي: تأثير الثورة التكنولوجيّة على الحياة الجامعيّة والمهنيّة

أمّا الدكتور إيلي يشوعي، والذي جاءت مداخلته نصيرة للثورة التكنولوجيّة المتمكّنة والسائرة قدمًا، فقد رأى أنّ التعليم الجامعيّ سينطلق نحو آفاقٍ رحبة تتناسب وشباب اليوم، ما يستوجب تأهيل الكادرات التعليميّة والأكاديميّة، وتدريبها على التقنيّات الحديثة، لمجاراة هذه الثورة «الذكيّة» بنجاح!

- نصر: الجامعات ودور الإعلام

وبكلمة مختصرة وصادقة، أماطت الإعلاميّة سنا نصر اللثام عن تجربتها الخاصّة المتعلّقة بالجامعة ودورها في تهذيب الإعلاميّين؛ فكان لها انتقاد لعمل الجامعات، وخصوصًا في اختصاص الإعلام، وختمت بدعوة الجامعات إلى ضرورة العمل على تخريج إعلاميّين على مستوى جيِّد.

• **التوصيات**

ومع نهاية الجلسة الثالثة، أذاعت الدكتور سوسن النجّار نصر التوصيات التي دارت بمعظمها في إطار داعم لضرورة التمييز ما بين العولمة والعالميّة، والتقليد والأصالة، والتركيز على دور الجامعة الرائد في تنظيم المجتمع وتطويره، من خلال خلق الفرد البشريّ الفاعل ضمن محيطه، وعبر تشجيع «التطوّر الخلاّق» الذي يحفظ الإرث الفكريّ ويستفيد ما أمكن من آفاق التكنولوجيا الحديثة، بما لا يُلغي الإنسان، كقيمة أخلاقيّة وفكريّة مبدعة.

مؤتمر أدباء طرابلس(٢) في جامعة سيّدة اللويزة- برسا

تقرير د. إميل يعقوب

نظّمت جامعة سيّدة اللويزة بالتعاون مع نادي ليونز طرابلس ليدرز، مؤتمر أدباء طرابلس (الجزء الثاني) في حرم الجامعة- برسا، بحضور حشد كبير من المهتمّين والطلاّب. بداية جلسة الافتتاح كانت كلمة ترحيب وتقديم من منسّق المؤتمر د. إميل يعقوب، الذي نوّه بدور الجامعة في احتضان هذا المؤتمر تكريمًا لأدباء طرابلس والشمال.

الأب المدير سمير غصوب قال: «إنّ جامعة سيّدة اللويزة تفتح منبرها لكوكبةٍ من المفكّرين والمنتدين لدراسة آثار المبدعين، هؤلاءِ الذين «هذه آثارهم تدلّ عليهم». فأدباء ومفكّرو هذا المؤتمر هم: ناديا شعبان، وحسين الجسر، وسعيد الولي، وكوستي بندلي، وخالد زيادة، وعزّة مَلك، فكّروا وكتبوا ليُدخلوا شيئًا ما في تاريخ مدينة طرابلس ليعبُرَ كلامُهم شهادةً فَيحاويّةً إلى المدى اللبنانيّ والعربيّ والعالميّ. أمّا الباحثون المنتدون: منصور عيد ومحسن يميّن ومارون عيسى خوري وإميلي فيعاني وسهيل مطر وشفيق حيدر ورشيد درباس ونجاة الطويل، فسيجولون ويبحرون في متون كتب المبدعين المكرّمين في هذا المؤتمر».

د. رامي عبد الحي رئيس نادي ليونز طرابلس ليدرز، رحّب بدوره بالحضور منوّهًا بهذا الحدث الثقافيّ الذي يسهر عليه النادي بالتعاون مع الجامعة، مؤكّدًا الاستمرار في تنظيم هذا المؤتمر سنويًا، تكريمًا لمن خدم مدينة طرابلس ورفع اسمها في الميادين الثقافيّة الإبداعيّة.

الجلسةُ الأولى، رئسها د. منصور عيد، رئيس قسم العلوم السلوكيّة والاجتماعيّة في الجامعة، الذي قدّم للمنتدين: الصحافيّ محسن يميّن والأديب مارون عيسى الخوري وأميلي شمّاس فيعاني.

تناول يميّن نتاج ناديا ظافر شعبان الأدبيّ حيث «تتقاطع مشاعر الدكتورة شعبان مع مشاعر لوركا، الذي تحمّله مسؤوليّة إلقائها في قلب البيئة الأندلسيّة، في قلب ياسمينها والخزامى، تحت ظلال قصر الحمراء، وعلى سلّم الألحان الإشبيليّة، تقاطعها مع مشاعر كلّ الشعراء والباحثين العرب الذين يعلمون مبلغ الخسارة التي مُني بها العرب، جرّاء خسارتهم للأندلس».

أمّا الخوري فتحدّث عن حسين الجسر، الذي «أمضى سنوات بعيدًا عن لبنانه وذويه وصحبه، خائفًا من فراق لا لقاء بعده بوطنه وأهله، مطيلاً التفكير والتأمّل ومأخوذًا مع ذلك كلّه بالقراءة المتأنيّة. وفي خواتيم إقامته في المنفى النفطيّ شرع يكتب مطوّلته الرائعة: «معنا دمع للبيع»».

وتحدّثت فيعاني عن الموسيقيّ د. سعدي الولي وهو: «الشاعر كقائد أوركسترا يدير الآلات اللغويّة والآلات الوتريّة التي تتناغم وتتبادل وتتزاوج، خارجةً من سباتها العميق فتتوّج كلمته الموسيقيّة على عرش الكون الشعريّ إذ يجعلها ملكته ومملكته».

الجلسة الثانية، رئسها الأستاذ سهيل مطر نائب رئيس الجامعة للشؤون الثقافيّة والعلاقات العامّة، وافتتحها المربّي شفيق حيدر بالحديث عن د. كوستي بندلي قائلاً فيه: «لم يكن حوار بندلي مع الشباب شبيهًا بحوار سقراط مع تلاميذه، لأنّ منهج سقراط الحواريّ قام على التهكّم فالتوليد، أمّا كوستي فقد أبى التهكّم في محاورته. فمهما بدت الآراء ضعيفة سخيفة كان يتقبّلها باحترام بالغ، إذ صاحبها إنسان يستحقّ الآراء بمعزل عن آرائه».

فإلى مداخلة النقيب رشيد درباس عن الأديب السفير خالد زيادة؛ وممّا قاله: «لقد جعلني سعادته أنتقل من ثلاثيّة مدينته المتوسّطيّة بعد أن جال بي طويلاً في حواريها من العصر البرونزيّ إلى العصر الخشبيّ (أي استبدال عائلته سريرها النحاسيّ القديم بسرير من خشب الفورمايكا) إلى الشخصيّة التي تقمّصها في «حكاية فيصل»، فروى لي بأسلوب سلس وحزين خيبات ملك وشعب وثورة عربيّة كبرى».

وتحدّثت **د. نجاة الصليبي الطويل** عن الأديبة د. عزّة ملك، التي «طرحت في رواياتها مشاكل الزواج والخيانة والانتفاض على كلّ ظلم إنسانيّ، متأثّرة بالعنف والاغتيالات والحروب، إلى جانب مجموعاتها الشعريّة باللغة الفرنسيّة والتي تتميّز بانسياب المشاعر فيها والأحلام».

وكان في ختام المؤتمر عشاء وتوزيع دروع تذكاريّة للمكرّمين والمحاضرين.

سوق العمل في الشمال: واقع ومقترحات حلول

-ندوة-

في فرع الجامعة بالشمال- برسا الكورة، مساءَ ٢٠١٢/٦/١٥، تلاقى معنيّون وأهلُ اختصاص حول سوق العمل في الشمال واقعًا ومرتجى، فكانت جلستا عمل وتوصيات.

رعى المؤتمر وزير الاقتصاد المهندس نقولا نحّاس، الذي رحّب به وبالمنتدين وبالحضور مديرُ الفرع **الأب سمير غصوب**، آملاً من المؤتمر: «أن يخرج بتوصيات مفيدة على صعيد رسم خارطة طريق تساهم ولو جزئيًا في توضيح مسرى الشؤون الاقتصاديّة التي تعمّ شبابنا، وكيفيّة تفاعلهم مع الوضع الاقتصاديّ، إضافةً إلى ما يمكن أن نستفيد منه نحن الجامعات في مسيرة رسمنا لرؤية جامعيّة تلبّي حاجات السوق الاقتصاديّة، وعلى صعيد توفير معطيات علميّة لإنماء الشباب علميًا وتقنيًا ليكونوا على مستوى مواجهة تسونامي التكنولوجيا والتغييرات الحاصلة المتسارعة والمتطوّرة».

وتحت عنوان **كلّنا عمّال في خدمة الله والوطن والانسان**، وبعد إشارته إلى عدم توفّر الأرقام الجديّة حول اليد العاملة وسوق العمل في لبنان، وبالتالي إلى حمّى غلاء المعيشة واحتدام المطالب وما للجامعات وسائر المؤسّسات المدنيّة من دور في المعالجات الواجبة، أمل رئيسُ الجامعة **الأب وليد موسى** في أن يأتي هذا المؤتمر ببعض الثمار المرجوّة في هذا السبيل، مضيفًا:

نحن نؤمن أنّ راعي هذا اللقاء معالي الأستاذ نقولا نحّاس قادر بحكمته وثقافته واستقامته، أن يكون جسر عبور إلى إيجاد حلول لبعض مشاكلنا الاقتصاديّة، ولاسيّما مشاكل العمل والعمّال، ووضع توصيف لمنطقة الشمال، بحيث نتعرّف إلى حاجات المنطقة، بشكل علميّ مدروس؛ ونحن على استعداد للتعاون معكم، ومع وزارتكم، في هذا الشأن.

أمّا **الوزير نقولا نحّاس** فكانت له جولة أفق واسعة في الاقتصاد اللبنانيّ، مشيرًا إلى المحاولات الحكوميّة الجادّة لتخطّي العقبات والمعوّقات من سياسيّة وإداريّة وأمنيّة أحيانًا، ولكنْ من دون البلوغ إلى الأهداف المرجوّة حتّى الآن، ما يُبقي البلادَ والأجيالَ الجديدة في حالٍ من الاضطراب والتقلق. وكانت له توضيحات حول مبادرات تتولّاها الحكومة كالعمل على تحديث القوانين وتحفيز المؤسّسات الصغيرة والسعي لإيجاد مشاريع كبيرة في منطقة المعرض.

مدير الجلسة الأولى **مقبل ملك**، من جمعيّة العزم والسعادة، وبعد لمحة إحصائيّة لبنانيّة وأخرى شماليّة، رأى أن تكون المعالجة بالربط بين سوق العمل والتعليم الجامعيّ والمهنيّ من خلال:

١. التواصل مع المجتمع المدنيّ وتعريف الطالب على مهنته المستقبليّة.

٢. إقامة المعارض السنويّة للتعريف بسوق العمل.

٣. إستخدام الإنترنيت للتعريف بالوظائف الشاغرة وعرض مشاريع الطلاّب.

٤. إقامة حاضنة لنقل التكنولوجيا الحديثة لشرائح المجتمع.

٥. التركيز على التدريب بعد التخرّج.

٦. التوجيه باتجاه اختصاصات تعاني من نقص في سوق العمل، مثل: التمريض، صيانة السيّارات والاختصاص الفندقيّ والسياحيّ، وفي مجال الرياضيّات الأبحاث العلميّة.

وحول واقع العمل بلغة الأرقام في الشمال ١٩٧٠- ٢٠٠٠، كانت المداخلةُ الإحصائيّة للدكتور **فضل يخنة**، من جامعة سيّدة اللويزة، والتي تؤشّر لما هو عليه الحاضر، وإن بنسبٍ معيّنة من التراجع أو التقدّم في هذا الاتجاه أو ذاك».. وتتيح بالتالي وضع التصوّرات المناسبة لمستقبل السوق.

ومن غرفة التجارة والصناعة والزراعة في الشمال، تحدّث الأستاذ **توفيق دبّوسي** مقدّمًا مقاربات إحصائيّة، ومشيرًا إلى الشراكة مع وزارة التعليم المهنيّ والتقنيّ، والتعاونِ مع خبرات ألمانيّة، وتشجيعِ حاضنة الأعمال Biat للمؤسّسات الصغيرة والمتوسّطة، والدورِ المتعاظم لمختبر فحص الصناعات الغذائيّة».. منتهيًا إلى القول أنّ الغرفة، بالرّغم من تعاونها الكامل مع جهات دوليّة مانحة وداعمة لتطبيق عدد من المشاريع التي تفضي إلى التنمية المستدامة، فإنّ لديها الاستعدادات للمبادرة بالقيام بمشاريع حيويّة ومستحدثة، تصبّ كلّها في إطار تطوير خدماتها تجاه مجتمعها الاقتصاديّ الشماليّ بكلّ مرافقه ومؤسّساته.

العميد **د. إيلي يشوعي**، من جامعة سيّدة اللويزة، اتّجه بمداخلته إلى السياسة الماليّة التي يتّبعها مصرف لبنان، سواء من حيث الرقابة على المصارف أو إصدار سندات الخزينة أو تقديم السلفات أو مواكبة أسواق العملات الخارجيّة والتّنسيق مع البنك الدوليّ وسائر البنوك العالميّة أو الأخذ في الاعتبار سياسات الحظر الضاغطة، بسببٍ من الأحداث السياسيّة الأمنيّة على مسرح بعض الدول».. وهي كلّها عواملُ مساعدة في تحفيز النشاط الاقتصاديّ على أنواعه.. أو الحدّ من طموحاته.

وفي الجلسة الثانية، أشار المدير **د. مصطفى حلوة** من مؤسّسة الصفدي، إلى أنّ «طرابلس لم تعد راهنًا أفقرَ مدينة في لبنان وحسب، بل هي الأكثر فقرًا على الساحل الشرقيّ للمتوسّط».

و أبدى **د. نادر الغزال** رئيس اتحاد بلديّات الفيحاء عتبه على الدولة لعدم صرفها الاعتمادات لطرابلس، وهي من أهمّ مدن البحر المتوسّط من حيث آثارها المملوكيّة، وفيها معرض دوليّ حصريّ هو اليوم في إجازة قسريّة.

العميد **د. كميل حبيب**، من الجامعة اللبنانيّة، الذي تناول «القطاعات التي توفّر فرص عمل وكيفيّة تطويرها»، أضاء بدايةً على بعض المعوّقات كالمنافسة الإقليميّة وانعدام المقوّمات الانتاجيّة الداخليّة وتردّي الوضع الاجتماعيّ، داعيًا بالتالي إلى التخلّص من العوائق الإداريّة وخلق أجواء سياسيّة ملائمة والتفكير في إمكانات الانتاج المتاح في مختلف القطاعات. ثمّ توقّف عند مبدأ التوازن السلعيّ. وخصّ السياحة على أنواعها من الترفيهيّة إلى الدينيّة، والتجارة الإلكترونيّة من صناعة وتأمين ومصارف وطباعة ونشر، فضلاً عن الصناعات الصغيرة والمتوسّطة، بالعناية المناسبة. وانتهى إلى القول: «ممّا لا شكّ فيه أنّ العمل على تفعيل هذه المعطيات واستغلالها بالطريقة الصحيحة يجعل لبنان بلدًا خدماتيًا مميّزًا يعتمد على كفاءة الانسان ومقوّمات من غير الممكن أن تجمع في بلد واحد».

وتحت عنوان: **تطوّر المناطق الريفيّة في القطاعات المنتجة**، ذكّر **جود صوطو**، رئيس جمعيّة تجّار زغرتا، بما نصّ عليه اتفاق الطائف عن الإنماء المتوازن للمناطق، متسائلاً: أين نحن من ذلك، فيما تُهجَر القريةُ سعيًا وراء الأفضل في المدينة».. وبالتالي لماذا لا نَنقل هذا الأفضل إلى قرانا؟!

وجاء في مداخلة رئيس اتحاد بلديّات الكورة **كريم بو كريم** أنّ بداية الحلّ للكثير من مشاكلنا هو اللامركزيّة الإداريّة، باعتبار أنّ «أهل مكّة أدرى بشعابها»، ما يؤدّي إلى تحسين الخدمات للمواطنين وتسهيل حياتهم، وتخفيف الهدر وزيادة الانتاجيّة...

احتفاءً.. وبَعدُ وأيضًا

.. وتتوالى الاحتفاءاتُ بمئويّة سعيد عقل في جامعة سيّدة اللويزة؛ وقد كان منها مشهديّاتُ الرّقص والأداءِ والعزفِ والغناء، مساء ١٣ حزيران ٢٠١٢، تكلّلت برفع السّتارة عن نصبٍ لشاعرنا الكبير، قدّمته د. ريما نجم بجّاني، وتقدّمَ أنصابَ النّظراءِ الأُلى أَتحفوا لبنانَ بجنى عبقريّاتهم، فاستحققنا لهم من الجامعةِ هذا المتحفَ الجامعَ عند صدرِها الطّلق.

في الرّقصِ، ومن مدرسة جورجيت جباره للباليه، كانت تحيّتان من فراشاتٍ صغيراتٍ وفراشاتٍ يافعات.

وفي الأداءِ، كانت قصائدُ ورجعُ جمالاتٍ، بأصواتِ إلفيرا يونس وجهاد الأطرش معًا، ورفعت طربيه منفردًا.

وفي العزفِ، ارتدى العودُ كرّاتِ الوترِ من ريشةِ شربل روحانا وإيلي خوري، وشقّ صدرَه والحنجرةَ عن قصيدةِ الغناء.

وفي الغناء، صدحت جاهدة وهبي، يرافقها على البيانو مايك ماسي، بمشوار، كان كقطفٍ وشمٍّ ونقدةِ عصفورٍ على بيدر...

.. وأخيرًا، وقبل رفع السّتارةِ ورفعِ الأنخاب، رفعَ الأب الرئيس وليد موسى، ومع الرئيس العامّ للرهبانيّة المارونيّة المريميّة الأباتي بطرس طربيه، شكرَ الجامعةِ للمشاركين في إحياءِ هذا الاحتفالِ، من تنسيق ماجد بو هذير، بدروعِ الذّكرى.

نتائج دورة جامعة سيّدة اللويزة الرياضيّة المدرسيّة السابعة

شارك في دورة جامعة سيّدة اللويزة الرياضيّة المدرسيّة السابعة، وعلى مدى أكثر من شهر، ٣٩ مدرسة من بيروت وجبل لبنان. وقد جاءت النتائج النهائيّة كالآتي:

كرة طاولة:	ذكور: ١. جوزف تمرز (اللويزة)	٢. رودي قزّي (اللويزة)
	إناث: ١. ناي عبيد (عينطورة)	
كرة مضرب:	ذكور: ١. إميليو خوري (الألمانيّة)	٢. جان ماري يزبك (الناصرة)
	إناث : ١. برونا خوري (الألمانيّة)	٢. رومي غبريل (مار يوسف قرنة شهوان)
كرة طائرة:	ذكور: ١. اللويزة	٢ . مار يوسف قرنة شهوان
ميني فوتبول:	١. الليسيه دو فيل	٢. القلبين الأقدسين كفرحباب
كرة سلّة:	إناث: ١. مار يوسف عنطورة	٢. الشانفيل
كرة سلّة:	ذكور: ١. سيّدة اللويزة	٢. الليسه الفرنسيّة نهر ابراهيم

وفاز في مسابقات السباحة، في مجمّع جعيتا كونتري كلوب، ومن مختلف الفئات، كلٌ من:
جينيفر رزق الله، غاييل غصن، لين بيطار، جايد أخرس، أنطوني غصن، إيليو بيطار وراي خوري.

اللقاء التوجيهيّ في الشوف

نظّم مكتب القبول في جامعة سيّدة اللويزة- فرع الشوف- اللّقاء التوجيهيّ «Open House» لتلامذة القسم الثانويّ من مدارس الشوف- عاليه- الشويفات- المتن- صيدا- جزّين- الإقليم، طوالَ نهار ٢٠١٢/٣/٢٨. وقد استقطب هذا اللّقاء، الذي جاء ثمرة للتّعاون ما بين إدارة الجامعة ومديري تلك المدارس، مئات الطلاّب، بحيث تمّ توجيهُهم من قبل الأساتذة المختصّين في جميع الكليّات، وتعريفُهم بالاختصاصات والمساعدات والنشاطات الطلاّبيّة اللاصفيّة، فضلاً عن تواصلهم مع طلاّب الجامعة الذين زوّدوهم وأغنَوهم بما جرّبوا وخبروا، ما كلّلَ النّهارَ بنجاح مميّز.

من حَصاد العمل الرعويّ الجامعيّ

سهرة صلاة الثلاثاء ٢٨ شباط

في إطار السّنة البيبليّة، إجتمع شبيبة العمل الرعويّ الجامعيّ في منزل الصّديق بطرس عساكرِ في زوق مكايل لصلاة المسبحة والمُشاركة بالإنجيل.

قراءة الكتاب المقدّس، إنجيل يوحنّا الخميس ١٥ آذار ٢٠١٢

بما أنّ سنة ٢٠١٢ هي سنة الكتاب المُقدّس، نظّمت الأمانة العامّة للعمل الرعويّ الجامعيّ في لبنان قراءة العهد الجديد، كلّ قسم منه في جامعة. وقد كان من نصيبنا قراءة نصّ الإنجيل بحسب القدّيس يوحنّا في كنيسة جامعتنا، ولم يكُن ذلك صدفةً بل عناية، لأنّ أوريجانوس يقول: «زهرة الأناجيل إنجيل يوحنّا، ومن أراد أن يفهم هذا الإنجيل عليه أن يفعَل أمرَين: أوّلاً، أن يُلقي برأسِه على صدر المسيح. وثانيًا، أن يأخذ العذراء أُمّا لهُ». وجامعتُنا قد اتّخذت أمّ الله أُمّا لها ومَلِكةً عليها وشفيعةً لعائلتها. وكان ذلك يوم الخميس ١٥ آذار ٢٠١٢ عند السّاعة ٣:٣٠ بمشاركة الأساتذة والموظّفين والتلاميذ.

Open Doors الجمعة ٢٣ آذار

كالعادة في كلّ سنة، كان لشبيبتِنا حُضور مُميّز في هذا الاحتفال، من خلال قيامهم بدور الدليل لتلاميذ المدارس، وإقامتهم المنصّةَ التي تعرّف بالعمل الرّعويّ في الجامعة ونشاطاته، في جوّ بهيج مضياف.

Easter retreat مع العمل الرعويّ الجامعيّ العامّ- يومَي السّبت والأحد في ١٠ و ١١ آذار ٢٠١٢.

للمُصالحة مع النّفس قبل حلول عيد الفصح، نظّم العمل الرعويّ الجامعيّ العامّ رياضة روحيّة في ١٠ و ١١ آذار في دير مار يوسف للآباء اللعازريّين- بحرصاف، تحت عنوان «إيه وبَعدين؟» «سيروا إلى العمق» (لوقا٥/٤) تخلّلها سهرة سجود وشهادات حياة، ومواضيع روحيّة بالإضافة إلى فقرات ترفيهيّة، بمُشاركة حوالى ٣٠ شابّا وصبيّة من العمل الرعويّ الجامعيّ NDU.

Easter Mass, Wednesday April 4, 2012

نظّم العمل الرعويّ الجامعيّ NDU بمُشاركة سائر النوادي في الجامعة قدّاس الآلام، في ٤ نيسان ٢٠١٢. قبل القدّاس، قدّم شبيبتنا مشهدًا تقليديًا حول موت وقيامة لعازر، ثمّ دخل أعضاء النوادي بأغصان النّخيل والزيتون، يتقدّمون الآباء لإقامة الذّبيحة الإلهيّة، التي ترأسها الأب فادي بو شبل. وختامًا وزّعت بركة العيد.

عيد الأمّ بعنوان «لي إليكِ كلمة» (سفر الملوك ١/٢-١٤) نهار الأحد ١٨ آذار ٢٠١٢

كما جرت العادة، نظّم شبيبة العمل الرعويّ الجامعيّ NDU حفل لتكريم لأمّهاتهم في الجامعة. فابتدأ اللقاء بالقدّاس الإلهيّ الذي ترأسه الأب فادي بو شبل، ثمّ كانت وقفة لشرب القهوة تلاها عرض فيلم عن نشاطات الشّبيبة والتّعريف بما يعيشونه في الجامعة. ومثّل الأعضاء عبرةً، قسمٌ منها من العهد القديم حيث كرّم سُليمان الملك أُمّه، والقسمُ الآخر من العهد الجديد عندما كرّم يسوع أمّه في عرس قانا الجليل، وكان الهدف من هذه العبرة إبراز أمومة العذراء لنا وشفاعتها. بعدها تناول الجميع الطّعام، ثمّ كانت وقفة مع الألعاب، وتمّ بعدها قطع قالب الحلوى مع الأُمّهات.

وفي الختام عُرِض فيلم، وَجّه من خلاله كلّ من الأعضاء كلمة من القلب إلى أمّه، وقدّم لكلّ أمّ هديّة تذكاريّة.

أمّا كلمة الأب فادي بو شبل في هذه المناسبة، فكانت:

أمّي

إنّي وإن كنتُ حكيمًا، فلن أكونَ أحكمَ من سُليمان الملِك. وإنّي وإن كنتُ عظيمًا، فأنا لستُ أعظمَ من الربّ يسوع. فإذا كان سُليمان قام وانحنى لأمّه يومَ قام ليستقبلَها ويُجلِسَها عن يمينه (١ملو١٩/٢)، فهل أستطيع أنا ألاّ أقومَ وأستقبِلَكِ وأُجلِسَكِ، لا على عرشٍ من صُنعِ بشر، بل على عرشِ قلبي الذي هو من صُنع الله.

وإن كان المسيح الذي لم تأتِ ساعتُه بعد، لم يستطِع أن يُقاوِمَ طلبَ أُمِّهِ ورغبتَها (يو٢/٤-٨)، فهل أستطيعُ أنا ألاّ أُلبّيَ طلباتِكِ وأعملَ ما أنتِ تريدينه منّي؟

تَمُرّ السّنواتُ وأنا أكبرُ وأنتِ أيضًا تكبُرين، وأكتشفُ يومًا بعد يوم أهميّةَ حضورِكِ في حياتي. فعندما أُغمِضُ عينيّ أعودُ بالذّاكرة إلى أيّام طفولتي الأولى، فأرى عينيكِ تَشعّان فرحًا بقدومي، أو بالقلقِ حين أحدُنا يمرَض.

عجيبٌ هو سِرُّكِ يا أمّي، وأعجبُ منه هو قلبُكِ. وإنّي أقول اليوم:

«إن كان قلبُ أمّي هو هكذا، فكيف إذًا يكون قلبُ ربّي؟»

وإن كان حُبُّ أمّي نحوي كبيرًا إلى هذا الحَدّ، فما عساهُ يكون حُبُّ مَن خلقَني فكنتُ، وافتداني فَخَلُصتُ؟

ما أعظمَ حضورَكِ في حياتي يا أُمّي! فإنّي من خلالِكِ أدخُل إلى سرّ الله المحبّة، لأغوصَ فيه وأنعَمَ بلُجَجِ الحبّ المُتدفّق منهُ.

تذكّري يا أمّي، أنّي وإن كنتُ أرغبُ في أن أراكِ أجملَ نساء العالم، فهذا لا يعني أنّني سأُقلّلُ من حُبّي لكِ إن عَلَت مُحيّاكِ بعضُ التّجاعيد.

وإنّي وإن كنتُ أرغب دائمًا في أن أراكِ بصحّةٍ قويّة وأمامي وأمام العائلةِ كلّها في كلّ شيء، فهذا لا يعني أبدًا أنّني، وإن شاهدتُكِ يومًا ضعيفةً، سيتغيّرُ تصرُّفي نحوكِ.

صدّقيني أيّتها الحبيبة، إنّ رغبتي الوحيدة هي أن أرى البَسمةَ على وجهك، والسّلامَ الحقيقيّ في حياتكِ. وأعاهدُكِ أنّني، وإن رأيتُكِ يومًا خائفةً أو مُضطربة، أو حزينةً أو مُتألّمة، فإنّي سأُضاعف من حُبّي لكِ، لأنّكِ حقًّا تستحقّين الحُبّ دائمًا.

أطلبُ منكِ يا أمّي، أن تعرفي أنّني كلّما نظرتُ إليكِ، أرى وجهَ مريم أُمّ ربّي وأمّي السماويّة مطبوعًا على وجهكِ. فإنّي أسألُ رِضاكِ يا نعمة الحياة، وأطلبُ عفوَكِ يا فرحَ النّاس، ولا أنسى صلاتَكِ لأجلي ولأجل العائلة أمام مُحبّ البشر ربّنا وإلهنا يسوعَ المسيح.

إسمحي لي، وأنا أتحدّثُ معكِ، أن أتوجّهَ إلى مَن أعطاني إيّاكِ لأقولَ له:

شكرًا لكَ ربّي على نعمة الأمومة، شكرًا لكَ على الحُبّ الذي وضعتَه في قلب أمّي.

شكرًا لكَ لأجل كلّ أمٍّ نسِيَتْ ذاتَها وفكّرتْ في أولادها.

إقبلْ صلاتي ربّي، فإنّي إليكَ أُقدّمُها على يدَي مريم أمّكَ. نعم، على يدَي مَن حمَلتكَ وأنتَ طفلٌ، وسَهِرَت عليكَ وأنتَ مُراهِقٌ، ورافقتكَ وأنتَ شابٌ، وبقيت لكَ أمينةً وأنتَ مصلوبٌ، وشاهدَتْ مع الكنيسة تحقيقَ وعودِكَ يومَ أرسَلتَ الروحَ القدس، ولا تزالُ ساهرةً لكي يصِلَ كلُ أبنائها إلى الوطن السماويّ. أطلبُ منكَ أن تحميَ كلّ أمٍّ وتباركَها وتُبارِكَ كلّ أبٍ وعائلته، وأن تَرفُقَ بكلّ من ترغبُ في أن تعيشَ فرحَ الأمومةِ فتمنحَها أطفالاً يُمجّدونك، وأن تُعيدَ هذا العيدَ على أُمّي وعلى كُلّ أمٍّ حاضرةٍ معنا أو غائبةٍ عنّا.

إن كان في هذا العالم أمٌّ سبقتنا إلى دنيا البقاء، فأمطِرْ عليها غزيرَ رحمتِكَ وفيضَ حُبّكَ، فإنّكَ أنتَ إلهُنا ومُخلّصنا، ونحنُ لكَ نرفعُ المجدَ والتّسبيحَ، ولابنكَ وروحك القدّوس. آمين.

Workers party, Monday April 30 2012

عشية عيد العمّال، نظّم الـ sponsorship office بمشاركة العمل الرعويّ، غداءً على شرف العمّال الأجانب، كان فيه للأبوَين بشارة الخوري وفادي بو شبل كلمة شُكرٍ للعمّال على جهودهم وصلاة من أجلهم. وقد تخلّل المناسبة الرّقص والألعاب التّرفيهيّة وتوزيع الهدايا.

Trip to Afka, Tuesday May 1, 2012

زار العمل الرعويّ الجامعيّ مغارة أفقا حيث التقى «مغاوير الجبل» ثكنة صخور اللقلوق، وأقام معهم عدّة نشاطات: Rapel, Escalade، Tyrolienne، وتناولوا طعام الغداء. وقدّم الشبيبة درعًا تكريميّة لهم كُتِبَ عليها: «الرّبُّ يَحرُسُكَ في ذَهابِكَ وإيابِكَ مِنَ الآنَ وللأبدِ» (مز ١٢١/٨). ثمّ توجّهوا إلى كنيسة مار سابا في مجدل العاقورة حيث احتفلوا بالذّبيحة الإلهيّة مع الأب فادي بو شبل.

Founders day, and Mass, Friday May 11 2012

بمناسبة العيد الـ ٢٥ للجامعة، نظّم العمل الرعويّ القدّاس الإلهيّ الذي ترأسه الأب خليل رحمة وخدمه الشباب والصبايا مع المُرنِّمة ليال نعمة. وفي الختام قدّم الأب الرئيس وليد موسى تذكارًا للأبوين خليل رحمة وسمير غصوب لمناسبة احتفالهما هذه السّنة أيضًا باليوبيل الفضّي لسيامتهما الكهنوتيّة.

«Once upon a time» كان موضوع هذه السنة. وقد اختار له شبيبة العمل الرّعوي موضوع Cinderella ، باعتبار ما فيها من عبرة وهي أنّ الخير سوف ينتصر في النّهاية على الشّرّ. وقد أُعدّت المنصّة على شاكلة عربة Cinderella.

Fundraising events

بهدف دعم صندوق نشاطات العمل الرعويّ الجامعيّ، نظّم الشبيبة نشاطاتٍ ماليّة، ببيع الـ croissant في ١٦ آذار و ٣٠ نيسان، والـ crepe والشورما في ٢ و ٣ و ٤ أيّار، بالاشتراك مع نادي Salvare.

Spiritual weekend, May 12, 13 2012

في هذين اليومين، اجتمع بعض أعضاء العمل الرعويّ في جامعة سيّدة اللويزة مع العمل الرعويّ في باقي الجامعات في رياضةٍ روحيّة. تخلّل اللّقاء صلوات، ومواضيع روحيّة، وسجود للقربان الأقدس، وسهرة توبة واعتراف، وفقرات ترفيهيّة...

Tuesday may 22, 2012, Mass in Saint Lourde Harissa

إحتفل شباب وصبايا العمل الرعويّ مع جوقة Sancta Maria بعيد القدّيسة ريتّا في كنيسة سيّدة لورد في حريصا، وتخلّل اللّقاء صلاة المسبحة والقدّاس الإلهيّ ورتبة تبريك الورود.

عيد القربان الأقدس، ٧ حزيران ٢٠١٢

احتفلت جامعتُنا بعيد القربان الأقدس، للسنة السابعة على التوالي، مساء الخميس ٧ حزيران ٢٠١٢، تحت شعار «رأينا مجدَهُ» (يو ١٤/١). ترأّس الذّبيحة الإلهيّة الرّئيس العامّ للرهبانيّة المارونيّة المريميّة الأباتي بُطرس طربيه، وعاونه لفيفٌ من آباء الرهبانيّة والجامعة.

ثمّ كانت مسيرة بالقربان مع الشموع، تخلّلتها محطّتان: الأولى تحت عنوان «طوبى للّذين يسمعون كلمة الله» (لوقا ١١:٢٨)، والثانية: «طوبى للّذين يعملون بكلمة الله» (لوقا ١١:٢٨).

نظّم الاحتفال شبيبة العمل الرعويّ الجامعيّ NDU، وخدمه جوقة Sancta Maria بقيادة الأستاذ جميل توفيق، وشارك فيه حشد من الطلاّب والأساتذة والأصدقاء المحبّين.

غسّان تويني

ك٢ ١٩٢٦ – ٨ حزيران ٢٠١٢

جورج مغامس

هو الّذي لم يتفرّغْ للّيلِ ليكتبَ رواياتٍ كمقالاتٍ كتبَها في النّهارِ نهارا، كَمَنَ له الليلُ لدى الرّمقِ الأخيرِ مُنتهزًا غانما..

ففي غَمرةِ السّكونِ الّذي يُغمِضُ جفونَ النّجومِ، وعلى الشّهابِ الّذي خطّه مرورُ الزُّهرةِ بالأرضِ، عَبرَ الليلُ ذاكَ برحمِ رواياتِه السّريّةِ إلى فيءِ أُمّ شجرِ التّفّاح..

فلمّا طلعَ النّهارُ أنصتتِ القلوبُ والعيونُ إلى فمِ السّماءِ بلسانِ الحوّاءِ، يُفشي خَبيئةً وخبيئات...

لكنّ النّهارَ الّذي ضَجّ بالدّمعِ والذّكرياتِ وما على رؤوسِ الأشهاد، أَحالَ الانتظارَ إلى مواعيدَ أخرى تأتي في هَدأةِ صفاءِ النّفسِ والوجدان؛ ولعلّه أوحى أنّ الّذي لم يَكتبِ الرّواياتِ هو الّذي ستكتبُه الرّوايات..

وهل هو إلاّ غسّان تويني، مَن له وحدَه بَعدُ يَليقُ أن تغنّيَ الماجدة: ما حدا بيعبّي مطرحَك «بشعبي»..؟!

غسّان تويني الآتي من لبنانيّةِ شارل مالك وأرثوذكسيّتِه المكثلكةِ والممورنةِ حتّى، ومن عقلانيّةٍ وبراغماتيّةٍ مع كَنط وفي هارفرد وعواصمِ الغربِ الثّقيف، وعلى مَسامِه وشمُ المشرقيّةِ المضيئةِ من حضاراتٍ ما بين النّيلِ والفراتِ وعروبةٍ ما قبلَ مجيءِ الإسلامِ وبعدَه، ومن منابعِ الأديان،..

هذا الرّجلُ، وأمامَه صورُ حُشاشاتِه نايلة ومكرم وجبران، تَفطّرتْ بهم عيونُ الحبيبةِ المبرّحةِ بحرائقِ الألمِ ناديا، ورفقُ أبٍ قتيلِ قلبِه العاصفِ وأمّ حانيةٍ صابرة،..

إنّه لَكأنّه من ملاحمِ الإغريقِ ويمشي في موكبِ قدرِه بعينَي ذئبٍ فينيي، يَردُّ غيلةَ المغتالِ بصلبانِ الايمانِ والرّجاءِ والمحبّة.

رجلُ المحنِ الكبرى.. بالموتِ يلي الموتَ في بيتِه والوطنِ ودنيا العربِ وحيثما قهرٌ وحرمانٌ وسَفحُ آمالٍ وأحلام،.. هو هو رجلُ الامتحاناتِ الكبرى في النّيابةِ والوزارةِ والدّبلوماسيّةِ، وفي الصّحافةِ دائمًا وأبدًا، يَزدري بذيّاك السُّباتِ الرّومنسيّ في سجونِنا الصّغيرةِ والكبيرةِ، ويَدعو للذّهابِ إلى رأسِ النّبعِ، حيثُ الماءُ النّقيُّ، ماءُ الحرّيّةِ، الّذي من كَوثرِه يولدُ الرّبيعُ.. ربيعُ النّاسِ ربيعُ الشّعوب!

تَرى إليه بالرّفَالِ من شَعرِه على الفَوْدَين، وجبهةٍ رحبةٍ فسيحة، ونظّارتَين ما بين حاجبَين مقوّسَين وأنفٍ كمِنْسَرِ النّسور، وثغرٍ ما بين هلالَين من دائرةِ الوجنةِ إلى دائرةِ الذّقن، وأناقةِ زيّ أزهرتْ مناديلُه فراشاتٍ في شقوقِ الصّدر، وسيكارةٍ بيضاءَ تَتراقصُ حرائقُها على رؤوسِ أصابعِه بين رائحةِ القهوةِ ورياحِ الخافقَين،.. تَرى إليه كأنْ هو المفردَةُ النّوّارةُ في كتابِ فرائدِ الرّسومِ الباهرة، ويَمشي إليك بتؤدةِ الحكيمِ وخفَرِه.

ولكم من ثَمّ، وهو يحدّثُ، لا يَحيدُ عن سراطٍ، يحدّدُ ويصوّبُ ويكثّرُ زوايا الرّؤيةِ.. يضيفُ ويضيءُ فضاءاتٍ، يَقتحمُ تحريمًا وتحظيرا، يَكسِرُ تحنيطًا وتصنيما، يغربلُ القديمَ، يقدّمُ الأصيلَ، يجترحُ يبتكرُ يستفزُّ الهممَ والعقولَ، يثيرُ جدلاً وداحسَ وغبراء، يَفعلُ فعلَ المثقّفِ حقًّا.. فعلَ المؤمن.

فإنّه الّذي يُنتظرُ كلّ صباحٍ، ويُنظَرُ إليه كلّ النّهارِ وفي الليلِ أيضًا وبعدُ: ماذا يَعرفُ، ماذا يَرى، ماذا يريدُ، ماذا يتوقّعُ، ماذا يَفعل...؟! ولم يَتعبْ. ولم يَضجرْ. ولم يتردّدْ في قولةِ حقّ، وفي نُصرةِ حقّ، وفي بيعِ عرشٍ بنعشٍ في سبيلِ الحقّ. لم يَقِلّ إيمانُه.

إنّه الكشّافُ يَستطلعُ، والخزّافُ يقولبُ: فالأفقُ على الرُّقعةِ جدليّةُ معطياتٍ واحتمالات، والصّلصالُ شخوصٌ تلعبُ الأدوار... فيقيمُ المدينةَ الّتي من جيناتِ الشّعرِ والفلسفةِ، وعند بابِها ديكٌ وكتاب!

وحدَه، مَن يَظلُّ على الحياةِ تلميذًا، يظلُّ على الحياةِ أستاذًا. والغسّانُ بقيَ أستاذًا ناجحًا لأنّه بقيَ تلميذًا دائمًا. فالمعلّمُ يتعلّمُ أيضًا. وقد كان يتعلّمُ كلَّ يومٍ من قراءةٍ، من نقاشٍ، من سلوك. يتعلّمُ، ويعلّمُ كيف نتعلّم. ويستوقفُه المختلفُ والمخالفُ وما يتبدّى وراءَ الأكماتِ، يطلبُ له أو عليه حجّةً ودليلا.

هذا الرّجلُ الّذي بلا حدودٍ لصحافةٍ بلا حدودٍ، وما أَطلق حول «النّهار» من دار نشرٍ وملاحقَ في الاقتصادِ والمالِ والثّقافةِ والشّباب، وعقدَ من لقاءاتٍ، ونظّمَ من حملاتٍ، وجَمعَ من تبايناتٍ، وشاركَ وأَشركَ في مؤتمراتٍ، ورصدَ أو رعى في المواهبِ مبادراتٍ واعدة، ليست إلاّ الظّاهرَ من جبلِ جليدِه والحِمم،.. هذا الرّجلُ لم يكنْ إلاّ متتالياتٍ من أفعالِ الإضافةِ في اتّجاهِ الغدِ، حيثُ سُكنى فؤادِه.

إنّه السّاكنُ في الغدِ بذاكرةٍ من كلِّ أمسٍ به يُفتكَرُ ويُعتبَر. ولذا صحّت فيه نعوتٌ جَمّة: المعلّمُ والمثالُ والقدوة، الرّمزُ والعنوانُ والمحجّة، المغامرُ والمقاومُ والمجاهدُ وفارسُ التّجديدِ والتّحديثِ والتّحديات، صانعُ الأحلامِ والأحداثِ والحقبِ ويستولدُ الجمودَ والهمودَ أخبارا، القارئُ والدّليلُ إلى القراءاتِ وما بين الكلمات ويقارعُ ويقرّعُ ويَستفزُّه النّقاشُ والجدلُ ويحاسبُ بتشجيعٍ وشجاعة، الخفِرُ والسّاخرُ والمتفجّرُ بحضورِه المؤثّرِ الآسر، العدّاءُ جوّابُ الآفاقِ ويملكُ إرادةَ الاختبارِ الدّائمِ وأداةَ الابتكارِ الدّائم، القلِقُ المقلِقُ المتألّقُ ولا شيءَ عندَه، مهما تقدّمَ، يَتقدّمُ على الحرّيّة،...

بلى. صَحّ فيه أَنّه عاشقُ الحرّيّة، أحبّها وعملَ بها ولها، بل كانَها أوّلاً وأخيرًا، لأنّه آمنَ أن لا حرّيّةَ من دون أحرار؛ ولذا ظلّ داعيةَ ثقافةِ السّلام..

بلى. وصَحّ أَنّه يَجمعُ ما لا يُجمَع.. يَجمعُ الجميعَ؛ ولذا ظلّ العرّابَ الّذي يُملي ويُشير، وبه يُلاذُ، وإليه يُركَنُ، وعنه يُروى، وعليه يُشاد..

بلى. صحّت فيه تلك النّعوتُ، وصحّ أنّه للعصرِ عنوانُه وأيقونةُ قلعتِه وصليبُ جلجلتِه ومرآةُ قضاياه..

بلى. صَحّ هذا الّذي صَحّ. ويَصِحُّ الأكثرُ.

لكنّ الّذي يصحُّ أيضًا فوق هذه الذّخائرِ جميعًا أَنّ ما يُنعَتُ به إطلاقًا أنّه غسّان تويني. وحَسْبُنا أنّنا عشنا في زمنِه، وحَسْبُه أَنّه المدرسةُ الّتي كلّما فتحنا فيها ورقةً انفتحت على أخرى وتَضوّعَ عبقُ لبنانَ في سماءِ الشّرق.

.. ثمّ إنّه لا شيءَ يُنبئُ عن الرّجلِ كقلمِه. وللمريدِ أو المستزيدِ هذه النّماذج.. هذا المثال في المباني والمعاني (رزق الله على أيّام أهل الفكر والشّعر والأدب!):

- المقالات المجموعة

الجنوب ٢٠٠٦، المقاومة السلم والحرب والميثاق، سجالات دار النهار (٢٠٠٦)- حوار مع الاستبداد، دار النهار (٢٠٠٣)- الإرهاب والعراق قبل الحرب وبعدها، دار النهار (٢٠٠٣)- مسارات السلام ودبلوماسيّة الـ ٤٢٥، أبحاث افتتاحيّة (١٩٩٨- ١٩٩٩) سجالات («دار النهار»، ١٩٩٩)- قبل أن يدهمنا اليأس، مقالات الانتخابات ١٩٩٢ (دار النهار)- الجمهوريّة في إجازة، لبنان ١٩٩٨- ١٩٩٠ (دار النهار)- نزهة العقل ١٩٨٣- ١٩٨٤، مجموعة مقالات (دار النهار)- كتاب الحرب، ١٩٧٥- ١٩٧٦ (دار النهار)- الثورة الفلسطينيّة والحقائق اللبنانيّة ١٩٧١- ١٩٧٤- خواطر انتخابيّة، آذار- نيسان ١٩٧٢- فلسطينيّات ١٩٦٧- ١٩٧١، ملفّ «النهار» ١٩٧١- ثورة الطلاّب (مقالات ١٩٦٧- ١٩٦٨ وكلمات ١٩٦٨- ١٩٧٠)، ملفّ «النهار» ١٩٧١- رئاسيّات ١٩٧٠، ملفّ «النهار»- الخطر الأحمر... والعالم الحرّ؟ ١٩٤٨- ١٩٥٩- الأيّام العصيبة أيّار- آب ١٩٥٨- منطق القوّة أو فلسفة الانقلابات في الشرق العربيّ، دار بيروت (١٩٥٤).

- الوثائق والمراسلات والخطب

١٩٨٢، عام الاجتياح، لبنان والقدس والجولان في مجلس الأمن، القرار ٢٠٨ والقرار ٥٢٠، حقّقه وقدّم له فارس ساسين (١٩٩٨)- القرار ٤٢٥، المقدّمات، الخلفيّات، الوقائع، الأبعاد. حقّقه وقدّم له فارس ساسين، المراسلات الدبلوماسية ١٩٧٧- ١٩٧٨ (١٩٩٦)- رسائل إلى الرئيس الياس سركيس ١٩٧٨- ١٩٨٢ (١٩٩٥)- أتركوا شعبي يعيش، لبنان في الأمم المتّحدة، مقدّمة الرئيس شارل حلو. دار النهار (١٩٨٤)- ملفّ الجنوب (مع جوزف نصر وآخرين (١٩٧٣)- آراء في السياسة والحكم، آذار- نيسان

(١٩٧٢)- ١٠٠ يوم في الحكم، ملفّ «النهار» (١٩٧١)- من أجل مجلس حرّ.
رصيد سنة في مجلس النوّاب ٢ حزيران ١٩٥١- ٣١ أيّار ١٩٥٢.

• في الصحافة والتاريخ وبيروت

البرج ساحة الحريّة وبوّابة المشرق (مع فارس ساسين وآخرين)، دار النهار (٢٠٠٠- بالعربيّة والفرنسيّة)- كتاب الاستقلال بالوثائق والصور (مع فارس ساسين ونوّاف سلام)، دار النهار (١٩٩٨)- سرّ المهنة وأسرار أخرى،

• المؤلّفات بالفرنسيّة والإنكليزيّة

دار النهار (١٩٩٥)- سرّ المهنة... وأصولها، النهار كتاب التسعينات، محاضرات في الصحافة ومقالات عن كبارها (١٩٩٠).

* Enterrer la Haine et la Vengeance (Albin Michel) 2009- Un siècle pour rien, (avec Gérard Khoury et Jean Lacouture) Albin Michel, 2002- 1981- 1991 Conférences, Dar An-Nahar, 1992- Une vieille poésie d'enfance, 1940- 1943, Dar An-Nahar, 1990- Laissez vivre mon peuple, le Liban a l'ONU, préface de Charles Helou, Jean Maisonneuve, Paris, 1984, (nouvelle édition et postface de l'auteur 2004, Dar An-Nahar)- Une guerre pour les autres, préface de Dominique Chevallier, JC lattes, 1985- Peace-Keeping Lebanon, 1979.

المطران فرنسوا عيد إلى "أرضِ ميعادِه".. إلى جَناه الجديد...

ج.م.

.. وإنّ نجمَه لمّا يَزلْ يَسري في مشارقِ المارونيّة ومغاربِها، يُحِلُّ حيث يَحِلُّ عَماراتٍ للرّوحِ والعقلِ ومواجعِ أو لَواعجِ الانسان..

فعلى قَدْرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ وتأتي على قَدْرِ الكرامِ المكارمُ

هذا الرّجلُ، المطران فرنسوا عيد، للجُلّى هو، ويَتّقدُ بازدحامِ الأحلامِ مُقتحما؛ فثمّةَ، في طبعِه وفعلِه، قَدْحُ شَرَرٍ يُلألئُ سُرُجًا أو يرمّدُ هشيما!
اليومَ، والجامعةُ، الّتي بَنى فيها وأَعلى، وتَحتفي بيوبيلِها الفضّيّ، وملءُ رِحابِها المُنداحةِ عَبَقٌ من عبقريّةِ يدَيه، تَفرحُ به وله (ومرّةً أخرى).. يَخرجُ بعصاه من أرضِ مصرَ إلى أرضِ ميعادِه: حاضرةِ الكثلكة. فسبحانَه الله يَرسمُ لنا الأقدارَ!
سيّدنا، مباركٌ هذا الدّورُ في رسالتِك: وكيلَ البطريركيّةِ المارونيّةِ لدى الكرسيّ الرسوليّ، ورئيسَ المعهدِ المارونيّ الحبريّ.
نصلّي لك.
صَلِّ لنا.
وإنّا بَعدُ نقول: حيث يكونُ الحارثُ الجيّدُ والحارسُ الأمينُ، يكونُ الثّمرُ الوفيرُ الخيّرُ الطيّب.
فإلى جَناك الجديد، يا سيّد.

في سيرة المطران أنطوان- حميد موراني

٢٤ كانون الثاني ١٩٣٠– ١٦ نيسان ٢٠١٢

ج.م.

• وُلد ابنُ المهيري بقضاءِ صافيتا السّوريّ، في قرية منياره العكّاريّة بشمالِ لبنان في ٢٤ ك٢ ١٩٣٠.

• درس حتّى السّرتيفيكا (١٩٤٣) في مدرسة حلبا الرسميّة، وحتّى البكالوريا- القسم الأوّل (١٩٤٩) في إكليركيّة غزير المارونيّة، والقسم الثّاني (١٩٥٠) في جامعة القدّيس يوسف.

• تخرّج عام ١٩٦٠ بإجازةٍ في اللاهوت من جامعة القدّيس يوسف، وبإجازةٍ في الفلسفة الفرنسيّة الحديثة من مدرسة الآداب الفرنسيّة؛ وكان التحق بجامعة البروبغندا في روما لدراسة اللاهوت والفلسفة السكولاستيكيّة من ١٩٥٣ إلى ١٩٥٦ ثمّ في ١٩٥٨، ولكنْ من دون البلوغ إلى النهايات السّعيدة لأسباب صحيّة.

• في ١١ حزيران ١٩٦٠، سيم كاهنًا على يد المطران أنطوان عبد، في كَرمسدّه قضاء زغرتا. لكنّه لم يُلحَق برعيّةٍ، بل أقام في دير الآباء اليسوعيّين في بيروت، يدرّس الفلسفة في كليّة اللاهوت حتّى ١٩٦٥.

• عام ١٩٦٦، أسّس مع مجموعة من الإكليروس والعلمانيّين الموارنة (شارل حلو، جوزف زعرور، عبد العزيز شهاب وجورج شدياق، والآباء سمير مظلوم ويوسف بشاره وبطرس الجميّل وبطرس حرفوش)حركة «كنيسةٌ من أجل عالمنا». وله عن سيرتها ومسيرتها من ١٩٦٦ إلى ١٩٨١ كتيّبٌ منشور.

• نال شهادة الدكتوراه من جامعة ريغسبورغ الباڤاريّة عام ١٩٧٣ عن أطروحته: «المنطق والحقيقة في ذاتها لدى بولزانو»، (بولزانو كاهن تشيكوسلوفاكيّ)، بإشراف البروفسور أولرخ هومس. ومرّةً أخرى كان اضطُرّ للعودة إلى لبنان عام ١٩٦٨ بعد سنةٍ أمضاها في بون لدراسة الألمانيّة والبحث عن موضوعٍ لأطروحته.

• إثر عودته من ألمانيا، عاد للتدريس في جامعة اليسوعيّين. ثمّ دُعي للتدريس في الجامعة اللبنانيّة، كليّة الآداب والعلوم الانسانيّة (الفرع الثاني- الفنار)، وأصبح بالتالي أستاذًا متفرّغًا حتّى بلوغه السنّ القانونيّة عام ١٩٩٤.

• يتقن من اللغات، فضلاً عن العربيّة التي فيها معظمُ تأليفه: الفرنسيّة والألمانيّة والإيطاليّة واللاتينيّة. ويلمّ باليونانيّة والإنكليزيّة.

• انتُخب أسقفًا على أبرشيّة دمشق المارونيّة (الجديدة) عام ١٩٨٩. وقد استطاع، إلى أن استقال عام ١٩٩٩ «من أجل التفرّغ للكتابة والتأليف» كما قال بحُسنِ تخلّص (وكانت أستقالةٌ أولى لدى انتخابه لم تُقبَل)، أن يجريَ إصلاحاتٍ كثيرةً في المطرانيّة والأبرشيّة: من شراءِ عقارٍ ملاصقٍ لمقرّه، وإنشاء نادٍ للشبيبة وبيتٍ للطلبة، وبناء كنيسةٍ في حيّ شعبيّ، وإطلاقِ مقرّ صيفيّ قرب مَشتى الحلو بقضاء صافيتا، إلى إقامة علاقاتٍ وديّة ومطارحاتٍ فكريّة مع نخبةٍ من المثقّفين السوريّين (ومنهم حافظ جمالي وأنطون مقدسي ونجاح العطّار).

• أُولى كتاباته كانت مقالاتٍ في مجلّة (Travaux et jours) التي أصدرتها الجامعة اليسوعيّة بالعربيّة والفرنسيّة عام ١٩٦١، ومحاضرةً شهيرةً في «الندوة اللبنانيّة» التي أدراها بنجاحٍ منقطعِ النظير ميشال أسمر، بعنوان: «إن لم يولد لبنانُ من فوق» في العام نفسه.

• مقالاتُه ناهزت المئةَ والستّين، جالت في اللاهوت والسياسة والاجتماع والثقافة والتربية.

• أبرز كتبه المنشورة: الوجدان التاريخيّ المارونيّ بين القديم والجديد- في هويّة لبنان التاريخيّة- الهويّة المارونيّة في مجاليَها اللبنانيّ والعربيّ- من الطائفيّة إلى كلّ لبنان- روحانيّة القدّيسين الموارنة.

• المطران موراني يجاهر بأنّه تلميذ الفلاسفة والمفكّرين الألمان، حتّى ليردّد مستوحيًا هيغل «من لا يعرف الألمانيّة لا يعرف الفلسفة الحديثة». ومشهورٌ عنه مواظبتُه على القراءة اليوميّة، ما أتاح له أن يَكنـز ويتجدّد، بل هو مشبعٌ بكلمة الله معجبٌ بمسيحه (طريق الإعجاب بالله)، فلا يني يستشهد بالكتاب المقدّس، وتحديدًا بالإنجيل شارحًا، مفسّرًا ومؤوّلاً..، مستعينًا دائمًا بما تمنطقَ به من خزينٍ فلسفيّ جدليّ وفيرٍ وصلب، يمدّه بالحجّة المنطقيّة ويتيح له أفق المقارنات واستخلاص العبر والأحكام.

• تأثّر، فضلاً عن القدّيس مارون والبطريرك الدويهيّ، بمن قرأ لهم من فلاسفة ومفكّرين، ولاسيّما الغربيّين منهم، وأخصُّهم الثّلاثةُ الّذين يتردّدُ ذكرُهم في مقالاته: هيغل وبرغسون وبول ريكور. ولقد امتدّ هذا التأثّر إلى تعبيره بالعربيّة سلبًا وإيجابًا، فإذا لغته على تكثيفٍ شديد، تبدأُ الجملُ بالاسم أو بأنّ التوكيديّة وتكاد تخلو من أدوات الرّبط التوضيحيّة، حتّى لتبدو على اضطرابٍ وغموضٍ أحيانًا.

• المطران موراني، رجلُ الفكر اللاهوتيّ والفلسفيّ، لم يضع ذهبًا على صدره، ولا حمل عصًا بيده، وعزفَ عن المآدبِ والمنابرِ والشّاشات، لكنّه لم يتردّد في رأيٍ وموقفٍ صريحًا جريئًا حتّى الصوتِ المدوّي، لأنّه كان يتألّم من اللاموقفِ ومن اللاقرار ويَنشد الإصلاحَ في كنيسته ووطنه في مسارٍ فلسفيٍّ على طريقِ الحقيقةِ والرّوح...

• في وداعه قال البطريرك الراعي (مَن قال فيه الموارني وفي الموارنة قبل أيّامٍ من رحيله: «هو في كلّ مكان وأمام كلّ حدث، والشعب يلحق به ويتكوكب حوله أينما وُجد، ما يعني «مورنة» الأرض باستمرار»،.. على أنّ أهمّ ما يُنتظر هو أن يخرج الموارنة من حدود لبنان التي لا تعني إلاّ الحدّ من توسيع نظرهم إلى أبعد مِمّا حولهم»).. قال الراعي: «هذا الكاهن والأسقف أحبّ الحقيقة ووضع فرحه فيها، وراح يغوص في مضامينها مع كبار رجال الفلسفة ولاسيّما الفيلسوف الألمانيّ هيغل الذي سار بالفلسفة حتّى مصدرها في الله، معتبرًا أنّ «الحقيقة في صيرورة التاريخ، هي الأقرب إلى سرّ التجسّد الإلهيّ، وبالتالي هي لقاء شخصيّ

مع الوجود». علّم المطران أنطون- حميد الفلسفة، وكان جوهر فلسفته الحقيقة ومعنى الوجود كحاجة إلى آخر لكي يكون، وكشف ارتباط الحقيقة بالوجود وارتباط الاثنين بالكلمة التي هي الله والتي تجسّدت في ملء الزمن. وراح في تعليمه وكتاباته المتنوّعة، من مقالات وكتب ومحاضرات، يفسّر بسهر وقلق معنى الوجود وأحداث التاريخ في ضوء أنوار الكلمة، فكان يردّد عبارة للفيلسوف هيغل: «إنّي أجعل من قراءة الصحيفة اليوميّة صلاتي الصباحيّة».

• وأخيرًا، هل مَن يجمع تراثَه جميعَه، ويدرسُه ويدرّسُه؟ هل مَن يَقتدي بسيرتِه الكهنوتيّةِ الديريّةِ الفاضلةِ ومسيرتِه العلميّةِ المنفتحةِ على الجِدّيّةِ والجِدّةِ في ما رَسمَ من إطارٍ فكريٍّ غاصَ دونَه إلى العمقِ حيثُ يُلتَمسُ وجهُ الله؟!

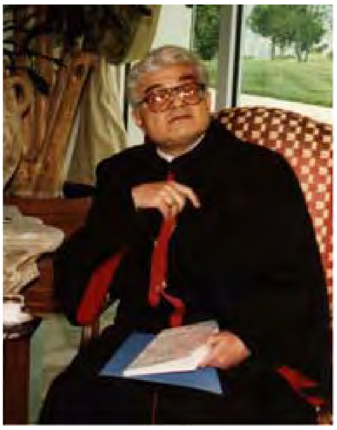

أمين معلوف مكللاًّ بحبره

وطموحُه أن يقوّضَ جدارَ البغضاء في المتوسّط

١٤ حزيران ٢٠١٢ هو اليوم الّذي تقلّد فيه أمين معلوف شعائرَ الأكاديميّة الفرنسيّة، بعد مرور سنة على انتخابه عن الكرسيّ الشّاغرة بوفاة كلود ليفي- ستراوس، وكانت له الكلمة الّتي مطلعُها عن العلاقات اللبنانيّة الفرنسيّة، ولا سيّما منها الثقافيّة، وتحديدًا حقبة فولناي ولامارتين وباريس.. وإرنست رينان خصوصًا:

Il y a vingt-cinq ans, je suis entré sous cette Coupole pour la première fois. Je venais de publier un roman, vous m'aviez décerné un prix et invité, comme d'autres lauréats, à la séance publique annuelle.

Elle était présidée par Claude Lévi-Strauss. En tant qu'étudiant en sociologie, à Beyrouth dans les années soixante, j'avais lu Du miel aux cendres, soigneusement annoté La Pensée sauvage, et participé à des débats autour de Race et Histoire. Votre confrère était pour moi, comme pour toute ma génération, un auteur emblématique ; et à l'entendre mentionner mon nom, puis le titre de mon roman, j'étais sur un nuage. Je n'attendais pas grand-chose de plus. Et certainement pas de me retrouver un jour au milieu de vous, pour prononcer son éloge, dans cette solennité, en faisant résonner mon accent.

Après les roulements de tambours, les roulements de langue! Cet accent, vous ne l'entendez pas souvent dans cette enceinte. Ou, pour être précis, vous ne l'entendez plus. Car, vous le savez, ce léger roulement qui, dans la France d'aujourd'hui, tend à disparaître a longtemps été la norme. N'est-ce pas ainsi que s'exprimaient La Bruyère, Racine et Richelieu, Louis XIII et Louis XIV, Mazarin bien sûr, et avant eux, avant l'Académie, Rabelais, Ronsard et Rutebeuf ? Ce roulement ne vous vient donc pas du Liban, il vous en revient. Mes ancêtres ne l'ont pas inventé, ils l'ont seulement conservé, pour l'avoir entendu de la bouche de vos ancêtres, et quelquefois aussi sur la langue de vos prédécesseurs. Qui furent nombreux à nous rendre visite – Volney, Lamartine ou Barrès ; nombreux à consacrer des livres à nos châtelaines, à nos belles étendues sous les cèdres. Permettez-moi de m'arrêter un instant sur l'un de ces Libanais de coeur : Ernest Renan. Renan qui écrivit sa Vie de Jésus au pied du mont Liban, en six semaines, d'une traite. Renan qui, dans une lettre, avait souhaité

qu'on l'enterrât là-bas, près de Byblos, dans le caveau où repose Henriette, sa soeur bien-aimée. Renan qui fut élu en 1878 au 29e fauteuil, fauteuil qui allait être, cent ans plus tard, celui de Lévi-Strauss.

Souvent l'on associe le rayonnement de la langue française à l'empire colonial. Pour le Liban, ce ne fut pas le cas. Si la France a bien été puissance mandataire au nom de la Société des Nations, ce ne fut qu'une brève parenthèse, de 1918 à 1943, tout juste vingt-cinq ans. Ce n'est pas beaucoup, dans une idylle plusieurs fois centenaire. L'histoire d'amour entre ma terre natale et ma terre adoptive ne doit pas grand-chose à la conquête militaire ni à la S.D.N. Elle doit beaucoup, en revanche, à la diplomatie habile de François 1er.

Ce fut lui qui obtint du sultan ottoman le droit de s'intéresser au destin des populations levantines. Afin de protéger les chrétiens d'Orient ? Telle était la version officielle. La vérité, c'est que le roi de France, en conflit avec les Habsbourg qui dominaient l'essentiel de l'Europe et encerclaient son royaume, cherchait à desserrer l'étau, coûte que coûte. Il s'était donc résolu à conclure une alliance avec le monarque ottoman, considéré pourtant comme l'ennemi traditionnel de la chrétienté. On parle souvent du siège de Vienne par Soliman le Magnifique en 1529. On ne dit pas toujours que François Ier l'avait incité à l'entreprendre, pour mettre en difficulté la maison d'Autriche.

وبعد التخصيص الواجب للحديث عن سلفه ليفي- ستراوس، انتهى معلوف إلى القول:

Quand on a le privilège d'être reçu au sein d'une famille comme la vôtre, on n'arrive pas les mains vides. Et si on est l'invité levantin que je suis, on arrive même les bras chargés. Par gratitude envers la France comme envers le Liban, j'apporterai avec moi tout ce que mes deux patries m'ont donné : mes origines, mes langues, mon accent, mes convictions, mes doutes, et plus que tout peut-être mes rêves d'harmonie, de progrès et de coexistence.

Ces rêves sont aujourd'hui malmenés. Un mur s'élève en Méditerranée entre les univers culturels dont je me réclame. Ce mur, je n'ai pas l'intention de l'enjamber pour passer d'une rive à l'autre. Ce mur de la détestation – entre Européens et Africains, entre Occident et Islam, entre Juifs et Arabes –, mon ambition est de le saper, et de contribuer à le démolir. Telle a toujours été ma raison de vivre, ma raison d'écrire, et je la poursuivrai au sein de votre Compagnie. Sous l'ombre protectrice de nos aînés. Sous le regard lucide de Lévi-Strauss.

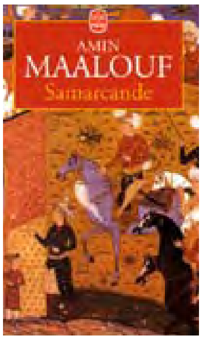

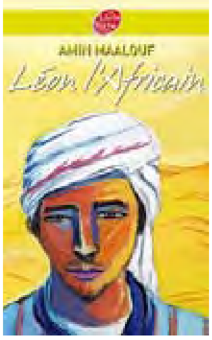

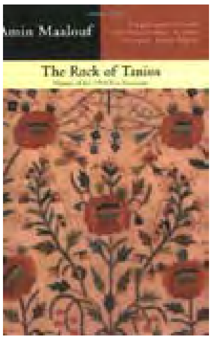

Pendant ce temps, le pape adressait au roi de France missive sur missive, l'exhortant à conduire une croisade contre les infidèles, et lui demandant des explications sur ces ambassades successives qu'il dépêchait à Constantinople. Et le roi catholique de répondre que s'il prenait langue avec la Sublime Porte, c'était uniquement parce qu'il avait à coeur le sort des chrétiens d'Orient. Et d'exhiber, à l'appui de ses dires, les « capitulations » signées par le sultan.

Bel alibi ! Mais c'est un peu grâce à cet alibi que nous sommes rassemblés aujourd'hui en ce lieu prestigieux. Par la vertu d'un traité ambigu est née une amitié durable. Elle a eu, au cours des siècles, des ramifications économiques, diplomatiques, administratives et militaires, mais elle a surtout été culturelle. Ce sont les écoles qui ont tissé les liens. Et c'est la langue qui les a maintenus depuis un demi-millénaire. Je ne ferai pas au grand roi l'affront de supposer que cet aspect des choses lui importait peu. Ai-je besoin de rappeler que ce fut le même François Ier qui établit, par l'ordonnance de Villers-Cotterêts, la primauté de la langue française dans son royaume, ouvrant ainsi la voie à la fondation, par le cardinal de Richelieu, de votre Compagnie ?

Notre histoire d'amour se poursuit donc depuis le seizième siècle… En vérité, ses origines remontent bien plus loin encore. Jacqueline de Romilly froncerait les sourcils si j'omettais de dire que les choses ont commencé avec la Grèce antique ; quand Zeus, déguisé en taureau, s'en fut enlever sur la côte phénicienne, quelque part entre Sidon et Tyr, la princesse Europe, qui allait donner son nom au continent où nous sommes. Le mythe dit aussi que le frère d'Europe, Cadmus, partit à sa recherche, apportant avec lui l'alphabet phénicien, qui devait engendrer l'alphabet grec, de même que les alphabets latin, cyrillique, arabe, hébreu, syriaque et tant d'autres.

Les mythes nous racontent ce dont l'Histoire ne se souvient plus. Celui de l'enlèvement d'Europe représente, à sa manière, une reconnaissance de dette – la dette culturelle de la Grèce antique envers l'antique Phénicie.

« Cadmus », dit le poète, « Cadmus, le civilisateur, avait semé les dents du dragon. Sur une terre écorchée et brûlée par le souffle du monstre, on attendait de voir pousser les hommes. » Le poète que je viens de citer n'est autre que Lévi-Strauss, dans Tristes tropiques.

سيمون بطيش*

أدب مارون عبّود لريادةٍ أين نحن منها اليوم؟

ما تهيّبتُ التحدُّث عن أيّ من أدبائنا اللبنانيّين، قدماء ومحدثين، إلاّ عن مارون عبّود، فهو وحده استثناء. فإذا كان أدبُ أقرانِه يؤتى من أبوابٍ ومنافذَ متعدّدةٍ شأن الفضاء المفتوح أمام كلّ طارق، فإنّ أدبه يُؤتى من بابٍ عريض واحد هو المجتمع القرويّ اللبنانيّ. الفضاءُ هنا، على لانهائيّته، له مدخلٌ وتاريخ وهويّة وتراثٌ وثقافة... الأرضُ تصبح موصولةً بالسّماء عبر مَمَرٍّ إلزاميّ لا مَحيدَ عنه هو الشخصيّة المجتمعيّة الفريدة للقرية اللبنانيّة. فأيّ هفوة أو زلّةٍ في مقاربة نتاج مارون عبّود إنّما تصيبُ بالتشوّهِ صورة إنساننا وأرضنا، وتسيءُ إلى صورة المجتمع التي منها الوطن. التهيّبُ إذًا واجبٌ لجلال الموضوع في بُعدَيه الأدبيّ والوطنيّ، ولجلال المناسبة ألا وهي الاحتفال بالذكرى الخمسين لرحيل «شيخ أدباء لبنان».

من المؤكّد أنّ هذه الخمسين شكّلت مسافة ضروريّة لابتعاد الصّورة عن الباصرة بعضَ الشيء، بما يسمح للباحث الموضوعيّ أن يستلّ الوقائع بحياديّة ويعلّقَ عليها بتجرّد. وممّا لا شكّ فيه أنّ هذه الخمسين وبضعة عقودٍ قبلها تمخّضت عن تحوّلاتٍ جذريّة في المجتمع الذي أحبّه مارون عبّود، ومنه أتى، وله كتبَ وأبدع، فنقلته- وهذا بدهيٌّ تمامًا- من ذيول الانحطاط إلى ذيوع التكنولوجيا والمعلوماتيّة والعولمة. وهذه النقلة العملاقة ممّا كان إلى ما هو كائن، مدعاةُ تفكُّرٍ وتبصُّرٍ لا يمكن رصدُ مَسارها دون المرور بأدب مارون عبّود، فنتاجُه القصصيّ الممهور بطابع القرية، المجبولُ بإنسانها وبارضها، سجلٌ حافلٌ بماضٍ يمتدُّ من زمن السلطنة العثمانيّة وبابها العالي، مرورًا بعهد الانتداب ومفوّضيه السّامين، وصولاً إلى مرحلة الاستقلال وأبطاله ومَنْ أعقبهم. وإن تبدُ لنا أقاصيصُه محمّلةً بعبَق الماضي ومشحونة ًبتقاليدِ الأيّام الخوالي، إلاّ أنّ كاتبها ما توخّى يومَها تدوينَ تاريخٍ وحفظَ وقائعَ وإنّما تحريك الفكر والوِجدان تحريكًا تغييريًّا وضخّ الدم الجديد في الشرايين التي تصلّبتْ بفِعل الجهل والإقطاع والعوَز والاستسلام للطغيان. وكان النقد سلاحَه الأعزّ إلى قلبه والسخرية مهمازه الأقرب إلى طبعه، وهو القائل «... لو ألّفتُ صلاةً ربّانيّة فقد لا تخلو من النقد»[1] هذا واقع حاله مع الصّلاة، فكيف إذا كان الفكر منصبًّا على شؤون مجتمع تستشري فيه آفاتٌ وعِللٌ من كلّ لون؟!

ومن عواملِ تحريكِ الفكر والوِجدان بغرَض انتشالِ المجتمع الزراعيِّ التقليديّ من مستنقع التقليد الآسِن اعتمادُ مارون عبّود على النقد الذي يبالغ في تصوير المشكلة وعلى تضخيمها وتظهير عيوبها وافتضاح عوراتِها ونقائصِها حتّى يرعويَ عنها مَنْ في نفسِه ميلٌ إليها أو جنوح. وهذا الأسلوب ناجعٌ لاسيّما في توجّهه إلى أيّ جماعةٍ تَدين الفضيحة، وتنأى بنفسها عن كلّ سلوك يخرج على المألوف ويناقضُ المعمولَ به والمتواضَعَ عليه. فإلى أيّ مدىً لا يزالُ عمومُ مجتمعنا اللبنانيّ الرّاهن يتأثّر بالنّقد ويخشى الفضيحة ويتوخّى السّيرَ في ظلّ القيم الأخلاقيّة؟ وإلى أيّ حدٍّ نجح أدب مارون عبّود في تحرير إنسانِنا من القيود التي تحدُّ من طاقاته الإبداعيّة، وفي إخراجه من جمود المحافظة والاتباعيّة؟

* الأستاذ سيمون بطيش يتولّى تنسيق دروس اللغة العربيّة وآدابها في ثانويّة الأخطل الصّغير الرسميّة للبنين (ثانويّة الجديدة سابقًا) وفي مدرسة الحكمة- الأشرفيّة وفي مدرسة سيّدة جبل الكرمل للراهبات الكرمليّات- الفنار (في مرحلة التعليم الأساسيّ). له عدد من المؤلّفات: «الرحيل المارد»- في الشعر الحديث. «نداءات»- في الرواية «الفكاهة والسخرية في أدب مارون عبّود»- في النقد الأدبيّ

(١) على الطّائر- ص ٩.

ووضعًا للأمور في نصابها ودفعًا لأيّ تأويلٍ قد يحرف المعاني عن المقاصد أسارعُ إلى القول إنّ غرض هذه المقالة ليس البكاءَ على أطلالِ القرية اللبنانيّة التي أصابَها ما أصابها من تطوّر إيجابيّ أو سلبيّ في البشَر كما في الحجَر، وليس ممارسةَ جَلد الذَات في التندّم والتحسّر على ما ولّى من هناءاتٍ نستذكرها من خلال حكايات العجائز والمُسنّين، وليس الاستسلامَ للحنين إلى عهود البراءة الفطريّة الرومنسيّة. لا شكّ في أنّ مارون عبّود توخّى من قلمِه أن يقلبَ، عن طريق الأدب الإصلاحيّ الهادف، صفحاتِ التخلّف، وأن يستنهضَ الهممَ لبناء إنسانٍ جديد في مجتمعٍ جديد، فنادى ودعا وعلّمَ وانتقدَ وثارَ وكتبَ ونشر. وما أرمي إليه في هذه السطور هو تسليط الضوء على أبرز الإشكاليّات التي دعا لها مارون عبّود أو طالبَ بالتخلّص منها والتي ما يزالُ كثيرُها -للأسف- حتّى اللحظةِ الراهنةِ رفيقنا في يوميّاتنا «السياسيّة» وجزءًا من حياتنا وعقليّتنا، فكأنّ تحبيرَ الصّفحات في هذا الصّدد ذهبَ أدراجَ الرياح ولم يفعلْ فِعلَه. وهنا تجبهُنا سلسلة تساؤلاتٍ تتعلّق بجدليّة الأدب والحياة، فإلى أيّ مدىً تكون الكلمة فاعلة ًوذاتَ طاقةٍ تغييريّة تحديثيّة أو انقلابيّة أو تطويريّة في بيئةٍ ما؟ وهل نجحَ مارون عبّود مثلاً في قلبِ طاولةِ التخلّف على المتخلّفين والسُّذَج، وهل قاربت كتاباتُه الإصلاحيّةُ المتتابعة أغراضَها المنشودةَ والمرتجاة أم ظلّتْ حراثةً في الماءِ ونفخًا في الهواء؟! وهل من غضاضةٍ أو ملامةٍ تقعُ عليه إن لم يُفلحْ قلمُه في تحرير كلّ مَنْ يخوضُ السياسة في بلادنا من قريب أو بعيد، من عاهاتٍ وعيوب وتشوّهات تقليديّة ضاربةٍ في التعفّن، ونحن شعبٌ نتغنّى- بلا انقطاع- أنّنا أهلُ حضارةٍ وحداثة وتقدّم؟ هل تقع تبعةُ الثبات على الرجعيّة الفكريّة على الشعب أم على «القيّمين على شؤونه وشجونه»، ولِمَ تذهبُ نضالاتُ الأدباء والمتنوّرين أحيانًا هَباءً منثورًا؟ وهل من أملٍ في أن تعيَ الأجيالُ اللاحقة فحوى تلك الدّعوات التغييريّة فتستدركَ ما فاتها- ولو متأخّرةً- فتَنبت براعمُ التقدُّم في غير أوانِها، وتكون المعجزة؟!

لو قُدّر لمارون عبّود أن يُبعثَ حيّا وأن يقرأَ في مجتمعنا اللبنانيّ المعاصر مفاعيلَ ما أنفق العُمرَ من أجلِ بثّه وترويجه وتخميره زادًا للأجيال الآتية، لصعقَه رسوخُ بعضِ المفاهيم والممارسات والسلوكيّات في أعماق السّواد الأعظم من شعبنا. قائمة الثوابت الرواسخ التي لم يُجدِ معها أدبٌ ولا تعليمٌ، لا إجمالٌ ولا تفصيلٌ، لا نقدٌ ولا سخرٌ، طويلةٌ أكتفي منها ببعض العيّنات والنماذج مستلّةً من «مُناخنا الاجتماعي- السياسيّ» على سبيل المثال لا الحصر، وفيها تصحُّ صرختُه الجارحة المدوّية التي أطلقها ذات يوم «الجلود مُتمسّحة وهيهات أن تغرز الإبرُ فيها فلا بدّ من مسلاّت»[٢]. لو أنّ مارون عبّود يتفقّدُ المجتمعَ الذي كرّسَ لتقدُّمه ولمنزلته الثقافيّة وقتَه وجهدَه وعصارةَ فكره، ويرى ما به من فسادٍ وإفساد، لكانَ يُولّي هاربًا خجلاً ساترًا وجهَه بيديه إخفاءً لإحباطِه وخيبته. وإنّي لأتصوّرُهُ كائلاً لنفسه سيلاً من الانتقادات المقذعة تكفيرًا عن فشلِ ذريعٍ في حملِ مجتمعِه على سلوكِ الصراط المستقيم في السياسة والاجتماع والاقتصاد والتديُّن...

ولعلّ خيرَ ما يقوّي هذه الفرضيّةَ ما نشهدُه ونعانيه يوميّا على أرض الواقع من استفحالِ لموروثاتِ العهد العثمانيّ في السياسة والإدارة والاجتماع، حتّى إنّ كثيرًا من سهام مارون عبّود يَحسَبُها القارئ أُطلِقتْ أمسِ، أو كأنّ مفاسدَ هذا الزمن الرّاهن لا يَحْسُنُ وصفُها وتناولها بأفضلَ ممّا أورده مارون عبّود في زمانه، وهذه سلسلةٌ من المقتطفات تدور على السياسة وأهلها استقيتُها من عددٍ من مؤلّفاته، تحسبُها قيلت من فترة قريبة جدّا، وربّما ملّتَ سماعَها أوِ التكلّمَ عليها بلسانِك:

«في كلّ يوم نسمع نشيش مقلى الوزارة فلا تسخن الكراسي حتّى يحلم بها آخرون ويحاولوا أن يزحزحوا الجالسين عنها، سواء أحسنوا أو أساؤوا، فكأنّما الوزارة في لبنان أشبه بلعبة (وَسّعْ وَسّعْ)»[٣] العنصر الطارئُ الغريب المستهجَن في هذا الكلام المكرور هو اسمُ اللّعبة، فلدى أبنائنا اليومَ من الألعاب الإلكترونيّة آلافٌ يَكثرُ فيها التدافعُ والتطاحنُ والعُنفُ على أشكاله. ما عدا ذلك يُعَدُّ حديثَ السّاعة، كلّ ساعة (ومن حواضر البيت).

(٢) حبر على ورق- ص ٩.
(٣) من الجِراب- ص ١٦٤.

وممّا يلوّثُ العملَ السّياسيّ إلى يومِنا، تلك العقليّةُ المتخلّفة ُالتي لم يستطع مارون عبّود، بالرّغم ممّا قاسى في معالجتها من عناءٍ. وهذه عيّنةٌ من المحسوبيّات والاستزلام النّاتج منها تُغني عن التفصيل «وإنْ وفّقَ الله وصرتَ وزير... فهناك العلا والعزّ... تزوّد أنصارك ببطاقات التوصية إلى كلّ مكان، أمّا الذين لا تثق بهم فلهم البكاء وصريف الأسنان تُرقّي مَن تشاء وتحمي مَنْ تشاء»(٤). ويضيف في تقريع المستغلّ علّه يعتبرُ ويَعي ما به من حقارة، ثم علّه ينتفض «وإذا شئتَ أن تركبَ فما عليك إلاّ أن تزور أقرب قرية في مقاطعتك فتركب حميرًا بلا براذع»(٥). وسيلتقي مارون عبّود إنْ هو قام بزيارته التفقّديّة (الافتراضيّة)، نسبة ًلا بأسَ فيها- للأسف- من الذين لمّا ينتفضوا على وضاعتِهم في عيون مُستغلّيهم .

وإذ تقرأ ما كتبه مارون عبّود في منتصف القرن الماضي عن كيفيّة تقاسُم الميزانيّة، تكاد تظنُّ أنّك تستعيدُ ما علقَ بذهنك من سطورٍ ممجوجة رمقتَها بنظرة خاطفة منذ أسبوع على أبعد تقدير «...أمّا الميزانيّة فحبلٌ يُمسكُ به النّوّاب بطرفَيْه، وكلّ فريق يشدُّ صوب صدره. والنّائب البطل، من أيّ جهة كان- وكلّ الجبهات في هذا سواء- هو من يغنم الحصّة الكبيرة ويرضي بها من انتخبوه»(٦). أمّا عن تزايُد أرقامها وعن تذمّر النّاس من حرمانهم الإفادةَ من هذا التضخّم، فالشكوى كانت ولمّا تزلْ هي هي «أمّا الميزانيّة هذه الأيّام فكالعجين المخمّر يطفُّ على حفافي العجين فتزداد ملايين بعد ملايين، والمعاشات والدّرجات تقفز قفزَ القبابيط في اليوم القائظ»(٧)

وفي شأن الفساد الإداريّ المُستشري في الدولة حدّثْ ولا حرَج، فما انتقدَه مارون عبّود وعرّاه وافتضحَه وأمعنَ في تقبيحِه واللفتِ إليه ووضعِ الأصابع العشر عليه فما يزالُ يتربّعُ على قُمّته (بضمّ القاف) بعينٍ بلقاءَ، لا يخجلُ ولا يستحيي ولا يجدُ انتحاريًا يقفُ في وجهه حتّى الرمَق الأخير. ولا شكّ في أنّك لن تفاجأ بما سينعَتُ به مارون عبّود أولئك المُرتشين والمختلسين لأنّك قلتَ وتقولُ في سِرّك وفي العلن كلامًا أقسى بحقّهم أحيانًا، وهم في أيّ حالٍ لا يأبهون ما داموا لا يُعاقَبون «...إنّ آفة الدّولة هذا الدّودُ العلق، فالبراغيثُ

(٤) حبر على ورق- ص ٧٠.
(٥) المصدر نفسه- ص ٧٠.
(٦) من الجراب- ص ١٢٤.
(٧) حبر على ورق- ص ٣٩. ١٦٤.

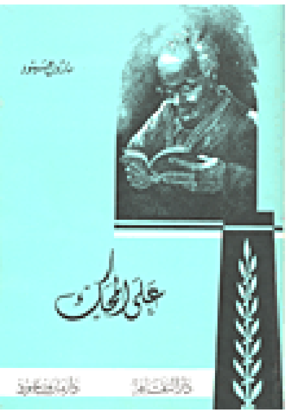

تتخبأ في الأردان وتمتصّ، أمّا هؤلاءِ فوِقاحٌ يَكرَعون على عينِي وعينك يا تاجر»(٨)

ودعوة مارون عبّود إلى محاسبةِ ثعالبِ الإدارة المتخَمين بخيراتها هي نفسُها على كلّ شفةٍ ولسان، ولا فائدةَ ترجى من نقدٍ أو من تصويرٍ كاريكاتوريّ، فأديبُنا سألَ قبلنا مَن يَعنيهم الأمر «أن ينظروا إلى عصافير التّيْن، وأن يسألوا كيف جاءت أمسِ عِجافًا خِفافًا... وصارت سِمانًا ثِقالاً»(٩)

وهذه المكنسة ُالتي طالَ انتظارُها، والتي كان مارون عبّود أوّلَ مَن رفعَها شعارًا إلى رئيس الحكومة سامي الصّلح لم تبصرْها الأجيالُ الشّابّة بعد، ولا هي وجدت طريقَها إلى حياتنا المعاصرة. وفي هذا المجال يقول مارون عبّود «فليكنْ شعارُنا بعد اليوم المكنسة... أتضيع النّظافة والبلد طيّبٌ وهواؤه نقيّ؟! لا تسمحْ يا بيك أن تكون وزارتك كغيرها، مراسيمَ تظهير لا مراسيمَ تطهير»(١٠). هذه الدعوة ما تزال حيّةً بل مدويّة، فهل مَنْ يَسمعُ؟

ولعلّ أبشعَ نماذجِ الفوضى والتخلّف وانعدام العدالة وانحلال الدّولة قولُ الكاتب «فما وُضِعت يدٌ على قِذرٍ حتّى انبرى المُكيّسون والمُليّفون والمُعطّرون فأخرجوه نظيفًا شريفًا»(١١). صحيح أنّ الصورة قاتمة بفِعل التعميم والمبالغة، لكنّ فيها إلى يومِنا مقدارًا من الصدقيّة تتداولُه الألسنُ في الخفاء حينًا وتجهرُ به أحيانًا.

وشكا مارون عبّود ومعاصروه من إهمال الدولة القُرى ومن عنايتِها بالمدُن على حساب الأرياف، وهذه الشكوى باتت تُعرَفُ في حاضرنا بانعدام الإنماء المتوازن. لقد تغيّرَ الغِلاف لكنّ المضمون واحدٌ، هكذا كانت دولتنا، وهْي على عتقِها وقِدَمِها باقية. هكذا تكون العراقة والأصالة والفولكلور: ثباتًا

(٨) من الجراب- ص ١١٥.
(٩) أحاديث القرية- ص ٨٧.
(١٠) من الجراب- ص ٧٨.
(١١) حبر على ورق- ص ٨٩.

على الرجعيّة واستمساكًا بمفاعيلها! يقول مارون عبّود في هذا الخصوص «الضّيعة من لبنانَ عند الجابي وليست منه ساعة اقتسام الميزانيّة»(١٢). ويضيف ساخرًا «هي حبيبة قلب النّائب حتّى مساء يوم الاقتراع، ويغيب عنها وجهه الكريم ووجه سماسرته مع غياب شمس ذلك النهار»(١٣). وحول الاهتمام بالمدُن وتناسي التنمية الريفيّة يأتي بتشبيهٍ طريف ما تزالُ مدّة صلاحيّتِه ساريةَ المفعول «...فكأنّ الدّولة بائع خضرة يوجّه سحّارته بالجيّد من المحصول»(١٤).

وإذا انتقلنا في نموذجَيْن خاطفين إلى ميدانِ الحياة الاجتماعيّة ألفَيْنا مارون عبّود يستشرفُ الغدَ- حاضرًا بفكره الثاقب، فهو يخشى «أن يخلوَ البيت من السكّان، فبعد تحرير المرأة سوف تأتي حريّة الأطفال متى بلغوا الفِطام»(١٥).

أتُراه كان يسمعُ في أعمقِ أعماقِه شكاوى الجيل الجديد من هيمنة الراشدين البالغين المحافظين أم شكاوى الأهلين من تفلّت الأبناءِ والبنات من وصايتهم ضاربين عُرْضَ الحائط كلّ الثوابت التربويّة التقليديّة، أم إنّه كان حريصًا، وقبل أيّ اعتبار آخرَ، على أن لا يفرغَ البيت من روح العائلة ودفئها؟!

وفي مجال التعليم يقول «أمّا العاصمة فلا تسَلْ عن معاهدها. فقد أصبحت أكثرها كلّيّات ولم يعدْ أصحابها يرضى باسم مدرسة»(١٦). أتراه كان يحدس بما نشهده اليومَ من طفرة عشوائيّة في الجامعات تغزو البلاد بِطولها وعرْضها ويختلطُ فيها الحابل بالنابل، فلا يُعرَفُ غثّها من سمينها. في هاتيْن العيّنتيْن أصابَ مارون عبّود التشخيصَ كعادته، لكنّ المجتمعَ لم يأبَهْ لخشيته ولحذره، وتجاوزَهما إلى المحظور غيرَ ملتفتٍ إلى ضرورة التبصُّر في العواقبِ المترتّبة عليه.

لا شكّ في أنّ الجانب «السّياسيّ» من حياتنا اللبنانيّة- وهنا أعتذرُ إلى السّياسة بما هي نشاط إنسانيّ سامٍ في أهدافه ووسائله يرمي إلى تنظيم حياة المجتمع وإسعاد الكائن البشريّ- بقيَ بالممارسة عصيًّا على الإصلاح في الغالب الأعمّ من الأحوال. وإنْ كان لنا أن نستخلصَ من هذه الدوّامة المستدامة بعضَ دلالاتٍ فإنّما أبرزُها صَمُّ الآذانِ دون ما نادى به مارون عبّود- وهو أبرزُ دُعاةِ التطوير الإيجابيّ في عصره- من مواكبة الزمن والانسلاخِ بالثقافة عن كهوف التقوقع، وما كان أكثرَها في عصر الانحطاط! ذلك كان تغليبَ نهجِ المصلحة الخاصّة على ما سواه من مقوّمات الدّولة، وما زلنا إلى هذه السّاعةِ نتغرغرُ بشعار بناءِ الدولة والمواطن دون أن نتزحزحَ قيْدَ أنملةٍ عن حقوقِ طوائفَ ومناطقَ وعشائرَ. العِلّةُ إذًا متأصّلةٌ في وَعْينا بل وفي لاوعْينا، وليس مارون عبّود إلاّ مغامرًا حاولَ بناءَ أساسٍ جديد لغدٍ جديد، لكنّه عاد من رحلة الكفاح والسعي والانتظار خاليَ الوفاض، في حنجرته صدى صوتِه وفي جَعبتِه الفراغ. أفلحَ في مكان آخر، في ثنْيه الناسَ عنِ السذاجة في ممارسة بعض طقوس دينيّة تختلطُ فيها براءة الإيمان بسُخف المعتقدات. أفلحَ في جعل الاحتكامِ إلى العقل والمنطق والكتاب مستنَدًا تنهضُ عليه حياة اللبنانيّين في هذا الزّمن- وهذا ليس بالنجاحِ اليسير قياسًا إلى ما كان-، لكنّ الثقافة التي أشاعَها بقيت كَليلةً عنِ اختراق أسوار (السياسة) في بلد تتحكّمُ به اعتباراتٌ من كلّ لون، أقلُّ ما يقال فيها إنّها أقوى من الكلمة أي من العقل.

مارون عبّود لم يُخفقْ في تسديد السهم إلى الهدف، نحنُ فشلنا في تلقّفِ الرسالة وفي ترجمة مضامينِها أفعالاً تليق بنا. نحنُ نقرُّ في سرّنا أنّ الرجُلَ كانَ محقًّا في ما سعى إلى اجتثاثِه من جذوره العفنة ونجاهرُ بأنّ لا تحديثَ يُذكرُ طرأ على مفاهيمنا الوطنيّة البالية، ولكنْ نادرًا ما نعترفُ أنّنا مقصّرون ومتقاعسون ومذنبون لأننا قرأنا وسكتنا، عرفْنا وغضضْنا الطّرْف، بُلّغنا وما استجبْنا. مارون عبّود قال كلمته على مدى عقود، بعضُها أزهرَ وأثمرَ وأينعَ وصارَ على المائدة قوتًا يوميًا، وبعضُها الآخر أينعَ وسقطَ على الأرض واهترأ ولم يتطوّعْ أحدٌ لتذوّقه قبل أن تجفّ حلاوته.

مارون عبّود، يا أديبَنا الكبير، أيّها المعلّمُ: حسْبُكَ أنّك ناديتَ بما كنت به مقتنِعًا وملتزمًا، شأنَ الكبار في هذا العالم ممّنْ يقولون ويفعلون. فإذا خذلكَ المتخاذِلون فإنّما أنفسَهم يخذلون.

(١٢) أحاديث القرية- ص ١٧٣.
(١٣) جدد وقدماء- ص ٨.
(١٤) حبر على ورق —ص٧٣
(١٥) على الطّائر- ص ٢٤.
(١٦) حبر على ورق- ص ٢٨.

د. إيليّا نخّول

مارون عبّود الأديبُ المصلح

تأثّر مارون عبّود بأجواء القرية اللبنانيّة، وملأ عينيه من جمالاتها، وقلبَه من مشاهدها الخلاّبة وحكاياتها ومشاكلها، واتّخذ من أحاديثها وحياة سكّانها الريفيّين زادًا لمستقبله الأدبيّ؛ فهو أديب القرية اللبنانيّة بامتياز.

ولكنّه أيضًا الأديب المصلح على المستويين الدينيّ والاجتماعيّ. وله في هذين المضمارين جولاتٌ وصولات.

ثورته على التعصّب الدينيّ والطائفيّة

يثور مارون عبّود بشدّة على الآخذين بالطائفيّة والتعصّب الدينيّ، داعيًا الجميع إلى التسامح، ونبذهما وإلغائهما من نفوس اللبنانيّين والشرقيّين، والتفافهم حول وطنهم، وعبادتهم للإله الواحد الأحد. وكلٌّ منهم حسب طائفته وطريقته الخاصّة في العبادة، بحريّة تامّة، وبدون أيّ تعسّف أو تضييق من أحدهم على الآخر... فلبنان مكوّن من طوائف عديدة، متحابّة ومتعاونة، ومساهمة جميعها في بنائه، ولها الحقّ أن تعيش بسلام وحريّة وكرامة، بدون نزاع أو خلافات مع أحد... وإنّ داء الشرق الذي لا دواء له، هو التعصّب الدينيّ، أو المذهبيّ، الذي يتمسّك به كلّ من يريد تحقيق غاياته الخاصّة، ومنفعته الذاتيّة. فيدعو الكاتب الناس، مسلمين ومسيحيّين، أن يتخلّوا عن التديّن الأعمى وعلى كافّة الأصعدة.

لذلك، نجد موضوع الطائفيّة استحوذ على معظم مقالاته وكتاباته، بأسلوب ساخر وثائر، ورافض للواقع المؤلم، داعيًا الناس إلى الوعي، والوحدة، والتجرّد والتآخي... فجميع الناس هم أبناء الله الواحد، وإخوة في الانسانيّة، وهذا ما تعلّمه المسيحيّة، وتأخذ به، وهو من قيمها السامية، فيقول: «لا يرجونّ أحدٌ الخير من الطائفيّة، لأنّها ليست سوى سلّمٍ لبعض المتسلّطين، ليركبوا على ظهور الناس، ويتحكّموا بهم».[١]

وإنّه إثباتًا لموقفه هذا، قام بمحاولةٍ تفرّد بها، رائدًا، في فصل الدين عن الدنيا، وتثقيف عقليّات القوم وتنويرهم، رغم المشقّات والصعوبات الجمّة، فسمّى ابنه الثالث «محمّد» تيمّنًا بالنبيّ العربيّ الكريم، الذي احتكره المسلمون، فبات مدعاة للتعصّب، كما يقول الكاتب، كما احتكر المسيحيّون الموارنة اسم «مارون»، وبالغوا في التعصّب لاسمه، ما يدلّ على ذهنيّات متحجّرة، عندهم، وعند كثيرين أمثالهم. وأراد في عمله هذا، أن يكون قدوةً ومثالاً حيًّا للآخرين، علّهم يحذون حذوه، مسلمين ومسيحيّين، وبخاصّة المتزمّتين منهم، وقد ردّ على سؤال: «سمّيت ابني «محمّد»، نكاية بالطائفيّين، لأبرهن لهم أنّ المسلم والمسيحيّ، يجب أن يعيشا تحت سقف واحد وكالأبناء. فأنا مارون، وابني محمّد. وكم تمنيّت أن يغار منّي رجل ثانٍ، فيزوّج ابنته المسيحيّة مثلاً، من رجل مسلم، أو بالعكس، لتزول الطائفيّة البغيضة نهائيًا من القلوب».[٢]

وهكذا نجد مارون عبّود يثور وينتقد كلّ من يتاجر بالدين والطائفيّة، مسلمًا كان أو مسيحيًا، في سبيل مصلحته الخاصّة ومنافعه الذاتيّة... طالبًا من الشرقيّين واللبنانيّين أن يصلحوا ما أفسدته السياسة، والتديّن الأعمى، على الأصعدة كافّة، ليعيشوا معًا بمودّة وسلام وراحة بال!

(١) عبّود مارون: أشباح ورموز، ص ٥٩٠.

(٢) عبّود مارون: مارون عبّود والصحافة، ص ٢٧٢.

نقمته على الإقطاع الدينيّ والمدنيّ

يتوخّى مارون عبّود الحقيقة ويريد إظهارها جليّة واضحة كعين الشمس، من دون مجاملة أحد، ويسأل: متى نقول الحقيقة في كلامنا، وأدبنا شعرًا ونثرًا؟ ولماذا لا نصف كلّ شخص على ما هو عليه من صفات ومزايا، أو من أخطاء ونقائص؟ ولماذا لا نعامل الناس سواسيةً في المديح والثناء والتقريظ؟ ولماذا لا نعبّر عن آرائنا وأفكارنا ومقدّراتنا في كافّة المجالات والمواضيع؟... من هنا نجده يثور على تصرّفات الذين لا يزالون يدغدغون عواطف رجال الدين والإكليروس، ويمدحونهم غالب الأحيان بمدح الثناء والتقريظ الذي لا يستحقّونه وهم غير أهل له؟! فيقول: «وإن كان الزائر مطرانًا، فالأمر هيّن، يقال له مثلاً: «مبارك الآتي باسم الربّ»... وإذا سيم شابّ كاهنًا، فلا بدّ أن يُهنّأ، وأن يقال له: «إنّ الروح القدس حلّ عليه، ولو كان لصّا، مثل مار شَينا... وبالاختصار يسلّمونه مفاتيح السماء ويستريحون».[٣]

وفي نقده لقصيدة قالها الشاعر بشاره الخوري، يمدح فيها البطرك أنطون عريضه، إذ شبّهه بالمسيح، يقول عبّود: «كم الفرق بعيد بين حياة الاثنين وواقعهما؟! فذاك عاش فقيرًا، ودخل أورشليم يوم عيد الشعانين راكبًا على جحش، بينما هذا الأخير يعيش بالترف والبذخ والغنى كسواه من رجال الدين، ويستقلّ سيّارة، محاطًا بالحرس وأصحاب المراتب العالية، والسلطة والمجد».

فيشير بكلامه هذا إلى تعاضد السلطتين الروحيّة والزمنيّة اللتين لا تُقهران، ولا يقوى عليهما أحد، وتستبدّان بالشعب الكادح الفقير، وتأكلان خيراته، وهو خاضع لهما، منصاع لأوامرهما وتسلّطهما عليه، لا يثور، ولا ينتفض. ثمّ يضيف الكاتب فيقول: «كان الأمير بشير وأولاده مستولين على مقدّرات الشعب اللبنانيّ، يتصرّفون في الجبل تصرّف المالك في عقاره، ورجال الدين يرفعون أيديهم مباركين الآتي باسم الربّ، لأنّ شعارهم: «لا سلطة إلاّ من الله»، ويا ويل الشعب متى اتّفقت السلطتان المدنيّة والدينيّة، فلا ترى في تلك الساعة أثرًا للكفاءات».[٤]

فيعتبر الكاتب أنّ السلطة الروحيّة تساير السلطة السياسيّة، وتستعمل الناس مطايا الدين، بينما الدين هو مطيّة السياسة، فكيف بهؤلاء المساكين أن يتحمّلوا الاثنين معًا؟!

ثمّ ينتقل لينتقد حكّام فلسطين الصهاينة، الذي صلبوا المسيح بالأمس، في الأرض التي أحبّها، وقال أجمل القول فيها، وأمضى حياته على شواطئ بحيراتها، وسهولها، وهضابها، سائلاً إيّاه: ألا تشفق يا سيّد عليها، وترثي لحالها؟ إنّهم مستعمرون وظالمون، فمتى تحرّر أرضك منهم، ومن ظلاماتهم وتعدّياتهم، ليسود السلام والعدل بين البشر كافّة. فاليهود صلبوك قديمًا، وإنّهم يصلبون ويضطهدون اليوم تابعيك، ولا مَنْ يسأل أو يحتجّ!...

المخزون الدينيّ والإصلاح

يستخدم مارون عبّود مخزونه الدينيّ في سبيل فكره، وأدبه، وورشة إصلاحه الدينيّ والاجتماعيّ، الذي طالما حلم به، وتاق إلى تحقيقه في مجتمعه اللبنانيّ، الذي هو بحاجة إلى تطوير مستمرّ في جميع الميادين، وعلى كافّة المستويات. وثورته هذه تلازمه في مسيرة كتاباته منذ البداية، وحتّى نهاية عمره، حين لم يعد يقوى على حمل القلم للكتابة والتحبير...

وإنّنا نجده غالب الأحيان، يصبّ جام غضبه، مصوّبًا سهامه بصورة خاصّة على بعض كبار الموظّفين الذين يصبحون أميّين، كما يقول، وإنْ هم مثقّفون، لأنّهم لا يعودون يقرأون، ويغطّون في نوم عميق، سكارى من رائحة بخور التعظيم والتبجيل والمديح. ويستشهد على وضعهم هذا ببعض أخبار العهد القديم، داعمًا موقفه تجاههم بقوله: «إنّهم في غمرة الوظيفة، وحولهم حملة المباخر والفراشي، إنّهم في سبات أعمق من سبات أبينا آدم حين أجرى له الله في مستشفى عدن عمليّة سحب الضلع... أرأيت أنّ الله كان أوّل المبنّجين؟!».[٥]

(٣) عبّود مارون: على المحك، ص ٥٧.
(٤) عبّود مارون: قبل انفجار البركان، ص ٤١٨- ٤١٩.
(٥) عبّود مارون: قبل انفجار البركان، ص ٣٦٧.

ثمّ يدعو الكاتب الموظّفين عمومًا، والمسؤولين خصوصًا، أن يتمتّعوا بالأخلاق الحميدة، والصفات الانسانيّة، لنخلق مجتمعًا متطوّرًا، حضاريًا، وإنسانيًا فاضلاً، فيقول: «حقًّا إنّ الفقير خاصّة، لا رأسَ مال له إلاّ أخلاقه، فالرجل الفاضل، كما قال ابن سيراخ في سفر الأمثال، يتاجر بماله ومال غيره».[٦]

وفي مكان آخر، ينتقد بعض حكّام لبنان ومسؤوليه، الذين ينفقون مال الدولة من دون أن يأخذوا بعين الاعتبار إمكانيّة الخزينة والفرد اللبنانيّ في تحمّل تبعات ذلك. وإنّه كذلك، لم يوفّر المجلس النيابيّ من نقده، لأنّه مصدر التشريع في البلاد، والقرار في يده لإدارة دفّة الحكم، فيقول: «إنّنا قوم آفتنا التعميم. فإذا أساء إلينا رجل من قرية، سبَبْنا القرية كلّها، وقلنا: ضيعة ما فيها آدمي... أيجوز مثل هذا الكلام، وهل يمكن تبنّيه؟!» ويضيف: «تُرى، أكلُّ هذا المجلس هو كما قال النبيّ داود عن نفسه: بالآثام حُبل بي، وبالخطايا ولدتني أمّي! أليس فيه رجال ذوو كفاءات وجدارة؟ فلماذا نصوّب على الجميع مدافعنا الرشّاشة؟!».[٧]

ولكنّ الكاتب لا يُجمل في مسيرته الأخلاقيّة جميع الناس والمسؤولين في المجتمع، بل فئة خاصّة تسير باعوجاج، وبخلاف المنطق والاستقامة والحقّ. فهو عادل في كلامه، وصادق في رأيه، وعلى صواب إجمالاً، لأنّ البشر يختلفون في تربيتهم، ومسلكهم، وعقليّاتهم، وأخلاقهم، وإنّ كلّ أحد مسؤول عن عمله خيرًا كان أم شرًّا!...

وكما رأينا في مجرى كلامه وانتقاده وورشته الإصلاحيّة، فأنّه لم يوفّر بعض رجال الدين والإكليروس، بغضّ الطرف عن أخطاء العامّة والمسؤولين المدنيّين في الدولة والمجتمع، الذين يتحكّمون بالضعفاء والمساكين المعوزين الذين لا سند لهم ولا معين، مهدّدًا إيّاهم بالويل والثبور، ومستشهدًا بكلام النبيّ أشعيا لملوك بني إسرائيل وأحبارهم إذ يقول لهم: «ويلٌ للّذين يشترعون شرائع الظلم، والذين يكتبون كتابة الجَور ليحرّفوا حكم المساكين، ويسلبوا حقّ بائسي شعبي، لتكون الأرامل مغنمًا لهم، وينهبوا اليتامى»...[٨]

ويتوجّه الكاتب بسؤال إلى المسيح الذي جاء كارزًا ومبشّرًا بملكوت الروح: أين هي الأشياء التي بشّر وكرز بها بين الناس؟ منتقدًا في الوقت نفسه البهرجات الدنيويّة في ذكرى ميلاد السيّد، وصنع الموائد، وتبادل الهدايا بين الأثرياء، في حين يتضوّر الفقراء جوعًا، وينامون ليلة العيد باكين محزونين، لأنّه ليس بإمكانهم تقديم هديّة أو لعبة، ولو صغيرة، لطفل يطلبها ويحلم بها، ويبكي للحصول عليها!...

كما وأنّه يثور ويهاجم الذين يتقاتلون ويقتتلون، كأنّهم وحوش ضارية، بدون أن يحفظوا حقوق الانسان في العيش الكريم والحياة الآمنة. ويتذمّر كذلك من واقع الانسان الذي أصبح أحيانًا دون مستوى الحيوان، الذي يعيش جماعات جماعات في أجماته، متعاونًا ومتآخيًا ومسالمًا مع بني جنسه، وذلك في سبيل استمراره، وبقائه، وحياته، بعكس الانسان الذي لم يطبّق هذا المبدأ على حياته، بل أراد أن يعيش على هواه، فيقول:

«إنّ الوحوش تعيش في أجماتِها
عُصُبًا، ويُقتلُ بيننا الانسانُ
فمتى نرى يا ربُ إنسانيّةً
لا يَهزأَنّ بشَرعها الحيوانُ؟»[٩]

فهذه الثورة الإصلاحيّة التي يرفع لواءها مارون عبّود، ليست هي على القادة العميان المتعصّبين للدين وللطائفة فقط، بل إنّها على كلّ فرد منّا، كي نعود إلى الوحدة الوطنيّة، والتفاهم، والتعاون المخلص، ولنتجنّب الذين يبذرون الشقاق والخلاف بين الملل والأحزاب والطوائف، الأمر الذي يقوّض دعائم الوطن، ويهدم المجتمع البشريّ، ويسيء إلى الحياة الانسانيّة الكريمة، فيسود الجهل والتعصّب، ويستلم زمام الأمور المغفّلون والمتزمّتون الضالّون...

وبكلمة،

إنّ مارون عبّود الذي ترعرع ونشأ في بيئة مسيحيّة ريفيّة محافظة، ودرس في عدّة مدارس إكليريكيّة، وتربّى على يدي جدّه الخوري يوحنّا عبّود، ظلّت صورة الكاهن المعلّم تلازمه طوال حياته.

لذلك، نجده في البداية معجبًا ومادحًا الإكليروس ورجال الدين المسيحيّ، مظهرًا فضلهم في إنشاء المدارس والأديار، ونشر العلم والحضارة، وأنّهم دعاة إصلاح، وقد دفعوا الكثير من راحتهم وحياتهم واستقرارهم، عبر العصور، مقاومين الظلم والاضطهاد وأعاصير الضلال التي

(٦) عبّود مارون: سبل ومناهج، ص ١٨٢.

(٧) عبّود مارون: من الجراب، ص ٥٢- ٥٣.

(٨) عبّود مارون: أحاديث القرية، ص ٤٥.

(٩) عبّود مارون: زوابع، ص ٣٤.

تهبّ عليهم من كلّ صوب وناح، داعين الناس إلى الحريّة والحياة الكريمة، ومتمسّكين بتعاليم السيّد المسيح وإرشادات وعقيدة الكنيسة المقدّسة، زاهدين بملذّات الدنيا وبهارجها...

وكان الكاتب يكنّ احترامًا ومودّة صادقة لبعض هؤلاء، ومنهم البطريرك الياس الحويّك، والبطريرك أنطون عريضة، وقد عرفهما معرفة جليّة، وأحبهما حبّا جمّا. وإنّه عندما توفّي الحويّك حزن عليه حزنًا كبيرًا، ورثاه، معتبرًا موته خسارة لا تعوّض للطوائف كلّها، وللوطن، كونُه كان مميّزًا بتقواه وحكمته، وفضائله الانسانيّة والوطنيّة، فيقول فيه:

«ففي الكنيسة كان البطريركُ تقىً
وفي النوادي حكيمٌ يُفحِمُ الفُهُمَا
ما كان يَبغي سوى توحيـــــدِ أمّتِه
كذا الرعاةُ، وإلاّ فالرعاةُ لِمَا؟»[١٠]

كما وأنّه يشيد بفضائل المطران يوسف اسطفان، الذي كان الأمير بشير يلاحقه ليقتصّ منه، إمّا قتلاً، أو نفيًا إلى خارج البلاد، لأنّه كان يقف بوجه سياسته المتعسّفة، ويدعو الناس لمقاومته، والعصيان عليه، مهما غلت التضحيات.

كذلك كان الكاتب يمتدح الخوري يوسف الحدّاد، الذي يتميّز بالعلم والفضيلة والأخلاق المسيحيّة والبرّ، وهو مثال أعلى للكاهن، تلميذ المسيح ورسوله على الأرض، كما يصفه مارون عبّود، الذي له بدوره الفضلُ الكبير في الدفاع عن أصالة الكنيسة المارونيّة الشرقيّة، التي كانت تعاني الصراع مع التغريب واللّيتنة...

ولكنْ ما يلفت النظر، أنّ الكاتب في مرحلة لاحقة من حياته الأدبيّة والفكريّة، تبدّل موقفه من بعض الإكليروس ورجال الدين، واتّهمهم بالتسلّط والتحكّم بالناس، وبأنّهم يعيشون في الأديار متنعّمين، يأكلون الأطعمة الشهيّة، ويشربون الخمور المعتّقة، بينما الشعب يتضوّر جوعًا على أبواب أديرتهم وكنائسهم وأحيائهم، من دون أن يمدّوا له يد العون أو المساعدة، بالإضافة إلى تعاونهم مع السلطة المدنيّة ورجال السياسة والدولة في البلاد، ليستأثروا بالسلطة الدينيّة على الناس... ويصفهم وصفًا جارحًا، ناعتًا إيّاهم بأبشع النعوت وأقبحها، فيقول:

«فكم تحت الأطالسِ من أَفاعٍ
وكم تحت الطيالسِ من قرودِ
لقد مات الأُلى لثمـــوا أكفّــًا
وقالوا كلّ أفعالِ السجــــــودِ
وقام اليوم أحرارٌ كرامٌ
يَرونَ المجد في كبحِ الكنودِ
وفرّقنا الشقاقُ بكلّ وادٍ
وكبّلنا التعصّبُ بالحديــدِ»[١١]

ولكن، إزاء هذا التبدّل في موقفه من رجال الدين المسيحيّ، نتساءل، إن كان اعتناقه الماسونيّة، قبيل السنة ١٩٢٨م. وهو في عاليه، والتي تنادي بالإخاء والعدالة والمساواة وحريّة الدين والمعتقد، سببًا في ذلك؟! فقام يتّهمهم ويصبّ جام غضبه عليهم؟! أم إنّ هناك أسبابًا أخرى خافية وغير معروفة؟!

ولكن الذي يستدعي النظر أنّ الكاتب لم ينتقد أو يعترض مرّة على نصّ دينيّ، أو مبدأ لاهوتيّ أو عقديّ، يتعلّق بالعقيدة المسيحيّة وبجوهر الدين المسيحيّ، بل إنّ اعتراضه وانتقاده كان لممارسات بعض رجال الدين والإكليروس التي لا يرضى عنها المنطق ولا الذوق السليم، والتي تخرج أحيانًا، برأيه، عن تعاليم المسيح، الذي يقول عنهم في إنجيله المقدّس: «ومن ثمارهم تعرفونهم. هل يُجنى من الشوك عنب؟ أو من العلّيق تين؟».[١٢]

في النتيجة، مارون عبّود أديب وناقد ومصلح اجتماعيّ، صريح وجريء، وليس هو لاهوتيًا أو باحثًا دينيًا يتحرّى عن سرّ الخلق والكون، بقدر ما يريد إصلاح أخطاء الناس العديدة، بطريقة ساخرة، وأحيانًا مضحكة، ليبقى أثر كلامه في مسامع الناس، ويعمل فعله في نفوسهم وعقولهم.

إنّه إنسان مؤمن بربّه، يناجيه أحيانًا كأنّه صديق له حميم، بثقة وإيمان ومحبّة... وهو منفتح على الأديان كافّة، بعيد عن الطائفيّة، ومحارب لها، يعيش في بيئة شرقيّة عربيّة وإسلاميّة، ويدعو أن يكون الدين عاملاً يجمع ويوحّد بين الناس، لا يفرّقهم. ولقد وصف العلمنة علاجًا للتعصّب وللطائفيّة السائدة في شرقنا، ووطننا لبنان، والمتصارعة والمتناحرة على كلّ صعيد للحصول على المكاسب والمراكز المرموقة في الدولة، وهو يرفض هذا الواقع وينتقده بل يحاربه بشدّة...

مارون عبّود أديب، يبقى في كلّ حال رمزًا وركنًا متينًا في النهضة الحديثة والمعاصرة! فهل حقّق أحلامه وهدفه من ورشته الإصلاحيّة، وثورته العارمة على الجهل والتسلّط والضلال والطائفيّة والتعصّب الدينيّ المقيت؟

فلعلّنا نحصل على جواب، وبالإيجاب!

(١٠) عبّود مارون: زوابع، ص ٢٦٩.
(١١) عبّود مارون: زوابع، ص ٩٩.
(١٢) إنجيل متّى ٧: ١٦.

د. منيف موسى

بين مارون عبّود وبيني

بين مارون عبود وبيني رفاقة عمر أدبيّ، على الرّغم من مساحة العمر الزمنيّ. فهو شيخنا في العمر والأدب، وأستاذنا في التربية والتعليم والكتابة. وأنا- عفوًا من كلمة أنا- أكاد أكون إلى ذلك الزّمن الذي أُعيد ذكرياته بعُمر أحد أولاده أو حفدائه. ولكنّني- وبكلّ تواضع- دخلتُ عالم الأدب والكتابة والمطالعة الجادّة الهادفة باكرًا ومبكرًا. ومن الأدباء والشعراء والكُتّاب الذين قرأتُهم بشغف وتعلّقت بهم مارون عبود، نيّح الله نفسَه وطيّب ثراه ورطّبه.

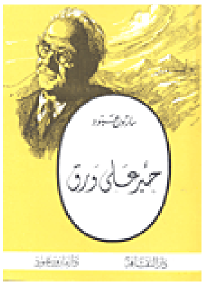
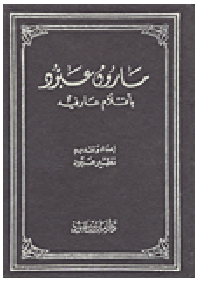

قرأتُه في بعض كُتُبه أمثال: «وجوه وحكايات» و«أقزام جبابرة» و«أحاديث القرية» و«من الجراب» و«حبر على ورق» و«مجدّدون ومجترّون» و«جُدد وقدماء» وغيرها. وكان ذلك زمان دراستي في المرحلة المتوسّطة، وأنا لم أتجاوز السادسة عشرة. ثمّ قرأتُ كتابه «الرؤوس» وأنا في السّنة الأولى من مرحلة التعليم الثانويّ.

في أثناء مرحلة التعليم المتوسّط في «صيدا»، صادقتُ الشّاعر العراقيّ أحمد الصّافي النجفيّ الذي التقيتُه مصادفة في «قلعة صيدا البحريّة». وكنتُ أقصده ظهرَ كلّ يوم تقريبًا، حيث كان يُمضي معظم أيّامه في تلك القلعة، حين إقامته في مدينتنا الجنوبيّة.

آنذاك كنت شغوفًا بشِعْر سعيد عقل ويوسف غصوب والياس أبو شبكة وعمر أبو ريشة ونزار قبّاني وغيرهم. وقد انتقد مارون عبّود هؤلاء الشّعراء ومنهم «النجفيّ» الذي كنت أتحدّث معه في شؤون الشّعر والأدب والنقد. وقد قال لي ذات ظهيرة «يا بُنيّ لقد أدركتكَ حِرفةُ الأدب وأنتَ بعدُ حَدَث».

كان «النجفيّ» يضيق ذرعًا بالنقد والنقّاد والشّعراء البُرجعاجيّين من أمثال سعيد عقل الذي قال عنه: «إنّه شاعر الغموض، وشاعر الصالونات والمجتمع المخمليّ والشّعْر الكريستالي». وإنّ «مارون عبّود ناقد عنجهيّ وسخريته غير محبّبة وقلمه لاذع ومبضعه حادّ، لا يعجبه العجب».

حَبَبْتُ الثلاثة: مارون عبّود وأحمد الصّافي النجفيّ وسعيد عقل. والثلاثة في خصام أدبيّ. فحاولتُ أن تطغى محبّتي على خصامهم. وحاولتُ التوفيق بينهم أدبيًا عند مجالستي «النجفيّ» ولم أكن قد التقيتُ مارون عبّود وسعيد عقل.

أخذت عن مارون عبّود بعض أصول علم النّقد وفنّه، وأصول الدراسة الأدبيّة. وفي السّنة الأُولى من مرحلة التعليم الثانويّ، وفي أثناء دراستنا الأدب العربيّ، كنتُ أجادل أستاذي في الأدب آنذاك،الأستاذ إدوار أمين البستانيّ، الذي زاملته فيما بعدُ في التدريس الجامعيّ، وكان حين النقاش والجدل في صفّ الأدب والبيان يناديني بلقب «مارون عبّود الصفّ». فتلاقيت وشيخنا باللّقب، ثمّ في الدراسة الأدبيّة والنّقد. وهذا اللّقب زادني إصرارًا على طَلَب العِلْم والتّقدّم فيه. وإنْ كنتُ قد وطّدْتُ النّفس للتّخصّص في طبّ العين وجراحتها..، إلاّ أنّ رياح الحياة أخذتني إلى كليّة الآداب فتخصّصتُ في الآداب والنّقد المقارن.

وظللتُ أقرأ مارون عبّود وأتتبّع مؤلّفاته. وحصل أنّ أحد أنسبائي قد زامل مارون عبّود في التعليم في مدرسة «الجامعة الوطنيّة في عاليه» أواخرَ النّصف الأوّل من القرن العشرين، وقد حدّثني طويلاً عنه في خُلْقه وسلوكه ومجالسه وحياته وأحاديثه وتتبّعه الحركة الأدبيّة، ولاسيّما عندما كان يستمع إلى «إذاعة الشرق الأدنى» من أجل نقد برامجها بناءً لطلب القيّمين عليها، وكان نتيجة تلك الأيّام كتابه «على الطائر»، فتعرّفت إلى مارون عبّود أكثر عبر عارفيه كما عبر كُتُبه.

أيّامَ دراستي المتوسّطة والثانويّة راسلتُ غير أديب وشاعر من كبار أدبائنا وشعرائنا أمثال: ميخائيل نعيمه ويوسف غصوب وأمين نخله والياس ربابي وخليل رامز سركيس ومارون عبّود. وجميع مَنْ راسلتهم ردّوا على رسائلي إلاّ مارون بك. وقد عزوتُ الأمر إلى احتمالات ثلاثة: الأوّل، ربّما لم تصل الرّسالة إليه؛ والثاني، ربّما عنجهيّةً منه؛ والثالث، ربّما يكون استخفافًا بمرسلها. وفي مطلق الأحوال لم «يُؤخذ على خاطري» ولم أغضب، ولم أندم، بقيتُ على تواصلي معه أدبيًا ولا أزال...

ثمّ كان أن قرأتُه شاعرًا. وأوّل تماسّ معه كان عبر قصيدته/ النّشيد: «نشيد الطلاّب» وهو من الأناشيد التربويّة التي علّمَناها «الأخوان فليفل» ضابطا موسيقى قوى الأمن الداخليّ سابقًا، في مادّة الموسيقى، يوم كنتُ طالبًا في دار المعلّمين والمعلّمات.

وتترى الأيّام، وأقع على ديوان مارون عبّود وقصيدته الطويلة في النبيّ العربيّ. فأقرأ ديوانه «زوابع»، وأضع قصيدته «النبيّ محمّد» في عداد المطوّلات اللبنانيّة بين العامين ١٩٠٠ - ١٩٥٠، وهي من باب المعلّقات تجوّزًا. وجديرة بالدّرس والشّرح والتحليل والنّقد. وهذا الديوان على ما فيه من شِعْر وشاعريّة وممّا ليس فيه، صورة مارون عبّود الشّاعر والنّاظم. وهو وإن كان راضيًا عنه أوْ لا، فإنّه قد نشرَهُ في حياته، وكان يدري ما في هذا الديوان. فقال في مقدّمته التي عنوانها «كلمة...» مخاطبًا القارئَ أو النّاقد أو... «هذا هو مارون عبّود الشّاعر، أمّا مارون عبّود النّاثِر فهو رجل غير هذا... فكن متأكّدًا أنّ مارون الناقد لن يرحم مارون الشاعر. فوَالله، وبالله، وتالله، لأُؤدّبَنَه أدبًا صارمًا...» وكأنّ مارون أدرك ما سيقوله النقّاد في شعره مثلما قالوا في نقده: «إنّه متسرّع، ذو أحكام انطباعيّة قاسية»، فشاء نقد نفسه قبل غيره، وفي اعتباره «مَنْ نَقَدَ النّاس نخلوه» متّخذًا من قول السيّد المسيح قوله: «فإنّه بالكَيْل الذي به تكيلون يُكال لكم وتُزادون» [مرقس ٤: ٢٤] مُسوّغًا رأيه ونيّته في نقد شِعْره.

ومارون بك عبّود خرّيج «مدرسة تحت السنديانة» -أَنعِمْ بها وأكرِمْ- فإنّها كانت تضاهي الجامعات... وخرّيج مدرسة «الحكمة» في بيروت صانها الله وعمرّها. وهو مثلي- وقد تخرّجْتُ بأربع شهادات جامعيّة عليا- لم يرتدِ ثوب التخرّج ولم يعتمر قبّعته ذات «الشّرّابة» وأنا كذلك- وهو إذ يُحدّثُ عن معلّمه في «مدرسة تحت السنديانة» يقول: «أمّا «شرّابة» طربوشه (أي معلّمه) فحريريّة زرقاء... ولعلّ شرّابة قبّعة الجامعيّين اليوم مأخوذة من هاتيك الشّرّابة... ولا فرق بينهما؛ إلاّ أنّ شرّابة هؤلاء من قدّام وشرّابة جامعة تحت السنديانة من خلف». وهو «تَطَرْبش» زمنًا وهَنِئَ «بالشّرّابة» كالجامعيّين.

ومع كرهه الألقاب كان يطرب للفظة «البك» تُقال له- كما حدّثني نسيبي... مثلما كان يكره الألقاب والدرجات الجامعيّة.

هذا الأديب الناقد الموسوعيّ، صاحبَ نكتة وفكاهة وسخرية وخفّة روح كان، وذا قلم لبنانيّ عريق صليب. جبليّ هو وابن الأرض.

وإن كان ابن بيت إكليريكيّ كهنوتيّ مارونيّ، وكان يُعَدّ ليكون وريث جدّه في «الخورنة»، إلاّ أنّه أبى ذلك. فكان علمانيًا يمقت التعصّب الدينيّ، ومثلَه كنتُ، ولا أزال- مُذْ كنتُ في الصّفّ الثاني المتوسّط، قوميًا عربيًا علمانيًا، وقد سمّى أحد أولاده «محمّدًا» فكان يُنادى بـ«أبي محمّد».

نازع مارون الحكم المستبدّ والإقطاع والاستعمار والاحتلال، ونادى بالحرّيّة والعدل والمساواة. فكان وطنيًا لبنانيًا وعربيًا صريحًا وجريئًا. فإلى جانب ثورته الأدبيّة كان ثائرًا سياسيًا واجتماعيًا. وقد طالب بحقوق المرأة وتحرّرها.

وإلى نزعته العربيّة حياةً ومسلكًا وأدبًا، كان لبنانيًا متجذّرًا في أرض وطنه. وأدبه مستلّ من جسد لبنان وروحه وثقافته وحضارته وتاريخه وأمجاده. وعلى الرّغم من تقدّمه في السنّ ظلّ في روح شابّة وثّابة. وبكلّ ميزاته ومميّزاته الفكريّة والأدبيّة والشّعريّة والتربويّة والانسانيّة يقف اليوم أمامنا في خمسينيّة غيابه، فنراه الأب والمعلّم والأستاذ والأديب الكبير الذي أسّس في لغة العرب وآدابها مدرسة لبنانيّة عربيّة ذات شخصيّة فريدة. وقد تتلمذ عليه نفر غفير من الطلاّب والأدباء والشعراء والنقّاد. وهو الأمين على تراث لبنان وثقافته وأدبه وعلى ما أنتجته الضّادّ من ذخائر وفرائد. كما كان منفتحًا ثقافيًا وحضاريًا.

وعلى أهميّة ما تركه من تراث ومؤلّفات ثرّة في حياتنا الثقافيّة والحضاريّة، فإنّني أسجّل له مأثرة حميدة غالية وهي دفاعه عن أدب لبنان، ولاسيّما عن جبران وميّ زيادة. فقد قال عن جبران: «إنّ جبران وسام رفيع، لا كالأوسمة، علّقه الدّهر أبو العجائب على صدر لبنان، وصدر البرفير والأرجوان». وقال في ميّ زيادة: «... إذا كان الحُطيئة عَبْدَ الشِعْر، فميّ أَمَةُ النّثر... وميّ الكاتبة خير أنثى عرفها الشّرق العربيّ».

والمنيف «مارون عبّود صفِّه» في مرحلة التعليم الثانويّ الذي مَنّى النّفْسَ بلقاء مارون عبّود سنديانة «عين كفاع» وجرس كنيستها، منذ أربع وخمسين سنة، ولم يتسنّ له ذلك، لا يزال عازمًا- مدّ الله بعمره- على زيارة ضريح «المارون» وضيعته ودارته، برفقة صديقه الأستاذ الأديب جورج مغامس- إنْ شاء الله- لعلّ في الزّيارة معراجًا آخرَ إلى دنيا مارون عبّود دكتور «جامعة تحت السّنديانة».

الميّة وميّة (صيدا- لبنان)

مارون عبّود

١٨٨٦/٢/٩ – ١٩٦٢/٦/٣

جورج مغامس

«لا تَعجبْ إذا ما قلتُ لك إنَّ بيني وبين البقرِ قرابةً... وحكايةُ هذه القرابةِ البقريّةِ عريقةٌ في القِدَم، يبتدي تاريخُها بعد ميلادي السّعيد بثلاثة أيّام. انقطع رزقي من يومَ وُلدتُ، فالمرحومةُ والدتي كانت غيرَ حلوب، ولو لم أكنْ طويلَ العمر لرحتُ ضحيّةَ عنادِ والدي.

لم يكنْ في الضّيعة كلِّها غيرُ مرضعٍ واحدة، والوالدُ لا يُرضِعُني حليبَها لأسبابٍ، مات ولم يصرِّحْ بها... وبعد ائتمارِ يومين، فَضّتِ المشكلَ بقرتُنا «عبيدة»، فكانت مرضعي للهّ دَرُّها.. وهكذا صرتُ وابنُها الأزهر رضيعَي لِبان..

وتوثّقت عرى القَرابةِ بيني وبين البقر، ولكنَّ مصيبةً جديدة مدّت أذنيها في صبيحة حياتي، فبَعُدَتِ الشِّقّةُ بيني وبين المثلّث الرّحمات جدّيِ الخوري. كان يَتلّني صغيرًا، ولمّا كبرتُ ووعيت، صرتُ أركبُ رأسي ولا أبالي به، فيحمي عليّ ويَقعد، يؤصِّلني ويفصِّلني قائلاً: راضعُ حليبِ البقر كيف يكون! مُخّ فَجّ، رأسٌ يابس لا يتكسّر بالقَدّوم، متى عَرّر رُحْ من الدّرب. ثمّ لا يَسكتُ حتّى يُفرِغَ ما في جرابه..»

.. هذاك الذي بينه وبين البقر قرابةٌ، على قوله هو، كان مولدُه في التّاسع من شباط عامَ ١٨٨٦. ومن المناسبة، عيدِ القدّيس مارون، كان اسمُه. يقول: «كان على والدي أن يخلِف، وعلى جدّيِ أن يسمّي.فكان كلّما رُزق والدي مولودًا، هرعَ جدّي إلى السّنكسار ليرى القدّيس الذي تعيِّدُ له الكنيسةُ في ذلك اليوم ليطلقَ اسمَه على المولود الجديد».

المولودُ ذاك هو الشّهيرُ مارون عبّود! إنّه رأى النّور في عين كفاع، هذه التّي «تنتهي فيها حدودُ الزّمن، ومقاييسُ النّاس، وعُرفُ البشرِ وتقاليدُهم»، والتّي هي، في نظره، نبعُ وحي كبير، وكلُّ شيءٍ كتبَه في جوّها. «فأنا، يقول، لا أستطيع أنْ أكتبَ قصّةً إلاَّ مستوحاةً من جوِّ لبنان، لبنانَ العتيق «جبل لبنان». فإنّي ابنُ القريةِ اللبنانيّة، أستطيعُ أن أصوِّر حياتَها ونفسيّاتِ أشخاصِها».

* * *

تربّى مارون عبّود على يد والدٍ، «له أداتان يَسبكُني بواسطتهما في قالَبِ النّاس: قضيبٌ، ولسانٌ أَمَرُّ من القضيب.. فنشأتُ نشأةً زِمّيتة». ..وعلى يدِ جدٍّ خوري لم يرضَ أن يراه ذَنَبَ الصّفّ، فشرع يعلِّمُه، على المصطبة، الألفَ باء عربيّةً وسريانيّة..

وعلى يد أمٍّ من القانتات تحبُّ الصلاةَ كثيرًا، عيناها: واحدةٌ على رَجُلِها، والثّانيةُ على أولادها ولهم!

الجدُّ الخوري كان أثرُه كبيرًا في حياة مارون عبّود. يقول: «كان الخوري يوحنّا عبّود جدّي ومعلّمي، وهو أوّلُ شخصٍ لَزمته في فجر الحياة». «ولمّا رأى فيّ قبسًا من ذكاء، توهّم أنّه سيصيرُ نارًا آكلة، فجعل وَكده فيّ، بعد خيبته في بنيه. وأخذ يناقشُني في أمورٍ فوق عقلي، فكنتُ أجاريه في شوطه، فيتفاءلُ ويتشاءمُ مع رياحِ الأجوبةِ والأسئلةِ التّي تهبُّ عليه من ناحيتي. فالكلامُ بيننا أخذٌ وردّ؛ وكيف يكون الحوارُ بين رجلٍ خَنَقَ التّسعين وابنِ أربعةَ عشَر!».

ومن جدِّه، أفاد مارون عبّود الواقعيّة: الواقعيّةَ في الحياة، والواقعيّةَ في الأسلوب. ولعلّ أُولى معاركِه الأدبيّة، كانت معه، في رثاء أمّ أنطون. يومَها، سمعَ منه هذا التّوجيه: «ما كفاك أنّك قتلتَها بالسّجع حتّى تُهلِكَنا بهذه الألفاظِ الوحشيّة؟» وأضاف: «قمْ عنّي يا ولد. أنتَ بابا حتّى تثبّتَ قدّيسين؟!.. هذا رثاء؟ هذا طق حنك، سَجْعٌ ومَزْع، كلامٌ فارغ مثلُ رأس الّذين علّموك..» «ومن هاتيك السّاعة، يقول مارون، طلّقتُ الغريبَ والسّجع، وهجرتُ الغلوّ، واعتصمتُ بالواقع».

ويروي مارونُنا أَنّ جدّه هو الّذي قال لوالده في إحدى ليالي الصّيف: «رح دبّر مدرسةً للصّبيّ. إفتكرْ بمدرسة كبيرة. هذه المديرسات صارت صغيرةً على الصّبيّ. وربّما طلعَ منه شيء. من يَعلم!».

والواقع أَنّ مدرسةَ مارون الأولى كانت «مديرسةً ضاهت الجامعات بمن خرّجت. ولم يَقل بمن أَخرجتْ «لأَنها قائمةٌ في العراء، ولا بابَ لها فيُخرَجُ منه. فهي حدّ الهيكل، في ظلّ سنديانة». إليها أُرسل ابنَ خمسِ سنوات، وقعدَ فيها يتعلّم من ١٨٩١ إلى ١٨٩٦.

ومن مدرسة تحت السّنديانة، في عين كفاع، نُقل إلى مدرسة مار يوسف بجّه، التي تُعَدُّ الكبيرةَ بين مدارسِ المنطقة، إذ خرّجت نحوًا من ٧٣ كاهنًا. وفيها بقي سنةً واحدة (١٨٩٧- ١٨٩٨).

ومن بجّه، نُقل إلى مدرسة مار ساسين، في مزرعةٍ تابعةٍ لقرية فْغال. وكانت أوّلَ مدرسةٍ داخليّة تَعلّمَ فيها سنةً كاملة.

بعدها، أُدخل مدرسةَ النّصر الداخليّة، في قرية كفيفان، سنةً أخرى.

ومنها، أُرسل إلى مدرسة مار يوحنّا مارون الإكليريكيّة في قرية كفرحي، حيث تلقّى العلوم من ١٩٠١ إلى ١٩٠٤. يقول: «ها نحن في مدرسة مار يوحنّا مارون، المدرسةِ المُعَدّةِ لتهيِّئَ للقطيع رعاةً، وقد كنتُ أنا من المرشّحين لتلك المهمّة، ولكنّي كسرتُ العصا قبل أن أَهشّ بها على الغنم».

لماذا؟

لقد صَدَقَ الّذين قالوا: أدركته حِرفةُ الأدب. فهي محنةٌ ليس مثلَها محنة.

في مرحلة مدرسة مار يوحنّا مارون، يروي الخوري يوسف سليم إدّه، تزعّم مارون عبّود حركة تمرّدٍ ضدّ الإخوةِ المريميّين الفرنسيّين الّذين تسلّموا المدرسة. وقاد حملةً ضدّ الرّهبان أَسفرت عن حجزهم في المراحيض. وبدأ بنشر الشّعر، ومنه قصيدة «قتيل الغرام»، في جريدة «الرّوضة».

وبرزت عنده نزعةُ السّخرية؛ ومنها إصدارُه مجلّةً انتقاديّةً أسماها «الصّاعقة»، حملت رئيسَ المدرسة على استدعائه وإبلاغه: ضِبّ لسانك أو ضِبّ فرشتك. صواعق ما بدنا في المدرسة... أو هذه الطُّرفةُ يَرويها: «كنّا تلاميذَ في قاعة، وإذا بجحشٍ يطلُّ علينا من الباب، فهرجَ التلاميذُ ومرَجوا، وقاموا إليه فتعنفصَ وراح. فقلتُ الآيةَ الإنجيليّة: جاء إلى خاصّته، وخاصّتُه لم تَقبله».

وقبيل انتقالِه إلى مدرسة الحكمة في بيروت، نشبت بينه وبين ذويه معركةُ شدِّ حبال؛ فكان يقول بهوس: تلميذ مدرسة الدّبس غير تلميذ مار يوحنّا مارون، وتلميذ بيروت غير تلميذ كفرحي. وقد دامت المعركةُ نحوًا من أسبوع، صار له بعدَه ما أراد. وأصبح في مدرسة الحكمة بين تلاميذَ من كلّ البلاد.

أمضى في حكمة «الدّبس» من ١٩٠٤ إلى ١٩٠٦. وفيها خطّ منعطفًا جديدًا في حياته، فالتقى تلامذةً من كلِّ الملل، صادقَ الكثيرين منهم،.. وأرخى العنانَ لقريحته ولسخريته، فعبقتا بروح المدنيّة والصفاء.. فصار «جبلاً لا يهزُّه ريح بعدما كان أخفّ من الرّيشة.. وأمسى يمرُّ بالغرائب مرّ النّسور في الجوّ، لا يسألُ عن شيء لأنّه عرفَ كلّ شيء».

وبالاختصار، يقول، «لم يحتضرِ العامُ الدّراسيّ حتّى صارت الدّجاجةُ الغريبةُ ديكًا ينقرُ ويناقر، ويَهجو وتُهجى ذقنُه السّوداءُ الكثّةُ الكالحة.. كنت أهجو بلا رحمةٍ ولا شفقة الخوارنةَ والعوامّ، والتلاميذَ والأساتذة. أكتبُ هنا وهناك، في الرّوضة والنّصير والمنار والمشرق، ولم أَعفُ المقتطفَ من هجوم.

الخلاصة: كنتُ معملَ نثرٍ وشعر».

وفي الحكمة، تضلّع مارون عبّود باللغة العربيّة على يد أساتذةٍ بارعين كسعيد الشّرتوني، وأفاد كثيرًا بالفرنسيّة على يد الميرِ يوسف شهاب.. وتعرّف بشبلي الملاّط وبشاره الخوري (الأخطل الصغير) والشّيخ ابراهيم المنذر.. وكم كانت تقومُ من مساجلاتٍ عُكاظيّةٍ في حرم تلك الحكمة!

وترك مارون عبّود حكمةَ الدّبس، وآخرَ خيطٍ مع فكرةِ الكهنوت،.. وانطلق إلى التّعليم والتّحرير في جريدة الرّوضة.

***

دخلَ مارون عبّود معتركَ الحياةِ من باب الرّوضة لصاحبها خليل طنّوس باخوس، وظلّ فيها سنةً وثلاثةَ شهور، افتتحها بـ«وقفة على ميناء بيروت»، واختتمها بـ«تشهد الأقلام».

وفي التّعليم، بدأ في مدرسة الفرير- بيروت، ثمّ في كليّة القدّيس يوسف.

وكان عملُه في جريدة النّصير سببًا لفصله من الكليّة والمدرسة. فقد كانت النّصير تطالب بتأليف مجلس مليّ لأبرشيّة بيروت المارونيّة.

يقول: «لم يكن في لبنان إلاّ أربعُ صحف: الرّوضة والنّصير والصّفا ولبنان.. ويومَ كان المراقبُ حاكمًا بأمره. ومع ذلك كنتُ ألغمُ المقالَ الافتتاحيّ فيُمَرُّ به على المراقب ولا يَحسّ، ثمّ لا ينفجرُ اللّغمُ إلاّ بعد أيّامٍ من صدوره، وهذا ما حصل في النّصير أكثرَ من مرّة. فنحتجّ بموافقةِ المراقب ونَخلصُ بريشتنا.

أجل. كنتُ صحافيًا ثائرًا يومَ كان الصّحافيّ منتوفًا يَعُدُّ نهارَه سعيدًا إذا دُعي إلى غداء أو عشاء، وكانت العصيُّ والخناجرُ مرفوعةً ومسلولةً فوق رأسه وصدره. ومع ذلك عملتُ ما عليّ ولم أبالِ، لا أَرحَمُ ولا أُرحَمُ.. وهكذا دواليك».

.. وقبيلَ نهاية عام ١٩٠٨، غادر بيروت إلى جبيل ليؤسِّسَ جريدةَ الحكمة. «وهناك- كما يقول- لم يَسلم من غارةٍ مسلّحةٍ بسبب مقال».

وفي تلك المدينةِ شرعَ يعمل، بعيدًا من ضغوط السّياسة والأزلام، مهتمًا بالتّعليم في مدرسة الإخوة المريميّين، الّذي اعتبره أعظمَ رسالةٍ يقومُ بها إنسان، إلى أن توقّفتِ الدّروسُ فيها إبّانَ الحربِ العالميّة الأولى.

وفي مدرسة الفرير لم يقتصرْ عملُه على التّدريس، بل أنشأَ للطلاّبِ جريدةً أسبوعيّة ومنتدًى شعريًا وفرقةً مسرحيّة.

وممّا يُشارُ إليه أيضًا أنّ مارون عبّود شغل في ٣٠ نيسان ١٩١٣ وظيفةً حكوميّة، إذ أُوكلَ إليه توزيعُ تذاكرِ النّفوس على أهالي مديريّتَي جبيل السّفلى وجبيل العليا.. وظلّ في هذه الوظيفة حتّى ٢٠ آب من السّنة نفسها.

***

الحربُ العالميّةُ الأولى أوجبت على مارون عبّود الإنكفاءَ إلى بلدته عين كفاع. وكان لوقعِ تلك الحرب وطأةٌ أليمةٌ عليه.. وفي كتاباته الشّاهدُ الأكيد!

في عين كفاع، انصرف أديبُنا إلى الزّراعة، واهتمّ بتطويرها، وما اكتفى.. فتاجرَ ببعضِ الموادّ الغذائيّةِ وبالخمور،.. واضطُرّ إلى بيعِ مكتبته الغنيّة،.. ودأبَ على إصلاحِ ذاتِ البَين بين المتخاصمين...

وما كاد فجرُ العام ١٩١٩ يتنفّس، حتّى تنفّسَ الصّعداءَ مع سائر اللبنانيّين.. وأخذَ يفكّرُ بحياته الخاصّة، فتزوّج عام ١٩٢١ من إحدى قريباته، وكان في الخامسة والثّلاثين من عمره.

وهو يقولُ عن المرأة في حديثٍ إلى الدكتور جميل جبر: «يظنّ القارئ، لأوّل وهلة، أنّ المرأةَ لم يكن لها أيُّ تأثيرٍ في حياتي، لأنّها لا أثرَ لها في كتبي. والواقعُ أنّي نظمتُ من وحيِ حوّاءَ شعرًا غزليًا وافرًا. لكنّي لم أنشرْه. على كلٍّ، أنا حريصٌ على هذه القصائد». وقد أوصى ابنَه نظير بالحرص عليها.

ومن شَجاعاتِ مارون أنّه سمّى أحدَ أبنائه محمّدًا. وفي ذلك يقول: «سمّيتُ ابني محمّدًا نكايةً بالطّائفيّين، لأبرهنَ لهم أنّ المسلمَ والمسيحيّ يجب أن يعيشا تحت سقفٍ واحد، وكالأبناء. فأنا الوالدُ مارون وابني محمّد، وكم تمنيّتُ أن يغارَ منّي الكثيرون، فتزولَ الطّائفيّةُ نهائيًا من القلوب».

يومَها كتبَ إليه أمين الرّيحاني مهنّئًا وقائلاً: حبّذا في المسلمين، وفي الدروز، وفي اليهود، مَن يقتدون بك، فيسمّوا أبناءَهم بأسماءِ أبنائنا القدّيسين، ونسمّي أبناءَنا بأسماءِ أبنائهم الأولياء، فينشأُ في هذه البلاد جيلٌ جديدٌ من الإخوان الحقيقيّين الذين لا يُعرفون من أسمائهم أنّهم لأحمدَ أو لموسى أو للمسيح، بل يُعرفون خارج معابدهم أنّهم مسيحيّون أو مسلمون أو موسويّون.

***

مارون عبّود، دارت حياتُه سَحابةَ ما يقاربُ الأربعين عامًا حول قطبَي عمل، هما التّدريسُ والتّأليف.

ففي التّدريس قضى ثمانيًا وثلاثين سنة، منها خمسٌ وثلاثون في الجامعة الوطنيّة- عاليه، وسنتان وبعضُ السّنة في كليّةِ عاليه الجديدة،.. خرّج في خلالها تلامذةً من مختلِف الأقطارِ العربيّة، لو كان لديه مالٌ بعددهم، كما كان يقول، لكان اقتنى الخيولَ كهنري فرعون، وساحَ في أوروبا كحبيب أبو شهلا.

فقد قصد عاليه في مطلع العام الدّراسيّ ١٩٢٢- ١٩٢٣، بعد اتّفاقٍ مع رئيس الجامعة الوطنيّة الياس شبل الخوري.. فكان مربّيَ الأجيال.

أحدُ تلامذته هاني باز يقول: «كان يسكنُ في غرفةٍ في بنايةٍ قربَ المدرسة.. كان يعملُ دائمًا ويقرأُ كثيرًا. لم أره مرّةً واحدة جالسًا بل عملٌ أو تفكير.. وكان يعتبرُ أنّ من حقّ الأدب عليه أن يعمل... لقد علّمَنا بأسلوبه، بطريقةٍ حديثة، بتدريسِه في الصفّ والباحة وفي كلّ مكان كيف ننتقدُ، وكيف نترفّعُ في انتقادنا. لقد علّمنا كيف يجبُ أن نعيش، وشقّ لنا الطريقَ المعبّدَ بالأحزانِ والأشواك. لقد هذّبَ نفوسَنا، وحَدّ من جموح أجسادنا... كان يجمعُ لنا نصائحَه ليقذفَها بنا في الوقت الذي يراه مناسبًا؛ وكان سرُّ عظمته حكمةٌ تكمنُ في اختيار الوقت المناسب..».

ويتحدّث الدكتور أسعد سكاف عن شخصيّة مارون عبّود، فيقول: «وما العملُ والصّبرُ والاعتمادُ على الذّات سوى أقانيمَ ثلاثةٍ متّحدةٍ في جوهرٍ واحد، هو العصاميّةُ التي ميّزت شخصيّة مارون عبّود».

ويضيف ابنُه نظير: «لم يكن في عمره الذي عاشه ما نسمّيه فراغًا.. ولم يرَ في حياته شيئًا نسمّيه ترفيهًا. تسليتُه الوحيدة كانت القراءَة والكتابة.. كان الكتابُ رفيقَه الدّائم، لا يتخلّى عنه إلاّ ليحملَ بضعَ أوراقٍ يكتبُ عليها».

وهو، منذ دخوله المدرسةَ الوطنيّة، عمدَ إلى إحياءِ جمعيّةِ الثّمرة، التي كانت تؤازره في تحضير النّدوات الأدبيّة كالمحاضرات والأمسيات الشّعريّة والاحتفالات الموسميّة. وقد كان له في كلّ مناسبة كلمةٌ يقولها، يعرفُ كيف يتعدّى، فيها، السّببَ العارض، إلى نظراتٍ أسمى في الحياة والإنسان- كما يقول الدكتور جميل جبر.

واعترافًا بفضله، أقامت الجامعة الوطنيّة عام ١٩٤٨ حفلةَ تكريم له، وقلّده رئيسُها مداليّةً ذهبيّة، وأهداه دائرةَ معارف.

وفي احتفالات اليوبيل الفضّيّ هذا منحته الدّولةُ اللبنانيّة وسامَ المعارف، واعتبره مجلسُ بلديّةِ عاليه مواطنَ شرف. وهو أوّلُ من حاز جائزةَ رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة.

ومن أعمال النحّات بيار كرم، رُفع له نصبٌ في ساحة مدينة جبيل عام ٢٠٠٢، وآخرُ في باحة جامعة سيّدة اللويزة عام ٢٠٠٩.

أمّا وفاتُه فكانت قبيل الثّامنة من مساء الأحد الموافق فيه ٣ حزيران ١٩٦٢، فتوقّفتِ الإذاعةُ اللبنانيّة عن بثِّ برامجها لتنعيَه إلى اللبنانيّين وسائرِ النّاطقين بالضّاد بهذه الكلمة: «هوى من سماءِ لبنانَ كوكبٌ طالما أشرقَ في دنيا الأدبِ وعالمِ الفكر، فهدى وأمتع وزاد في بناء الرّسالة اللبنانيّة فأعلى... وغدًا عندما يسجّلُ التّاريخ لأدباء لبنان، سيكون مارون عبّود في الطّليعةِ وبين بناةِ الفكر الخالدين».

كُتبُ مارون عبّود المطبوعةُ هي في نحوِ السّتّين؛ لكأنّه أنتجَ، بعد بلوغه الثامنةَ عشْرةَ، كتابًا، كلّ عام.

وبين آثاره رسائلُ منه وإليه، وقصاصاتٌ ورؤوسُ أقلامٍ بأعدادٍ وفيرة.

وكتبَ في ما يَزيدُ على العشرين جريدةً ومجلّة.

وكان له أحاديثُ إذاعيّة..

وهو يبقى الحديثَ، في كلِّ قديم وحديث.

إنّه مارون عبّود هذا الحجرُ من مقلاعِ «الرّاعي» الجبّار، حجرٌ ضخمٌ (موشومٌ بفتنةِ القريةِ اللبنانيّةِ وفطنةِ أبنائها) من حجارِ الزّاويةِ في البناء الأدبيّ اللبنانيّ والعربيّ!

الأب فرنسوا عقل
مدير فرع الشوّف
جامعة سيّدة اللويزة

بين الزّعامة والتّخلّف

تمهيد

ربّما استوقفت ظاهرةُ الزّعامة في مجتمعنا اللبنانيّ المركّب بعضَ الباحثين في الشّؤون الاجتماعيّة أكثر من غيرهم، وهي مازالت تحتاج- في اعتقادنا- إلى المزيد من الدّراسة والتّنقيب والتّحليل، كونها نادرة الوجود في المجتمعات الحديثة. فحسبك بادئ ذي بدء الاستنجاد بالمنجد اللغويّ لتستنتج أنّ الفعل الثّلاثيّ اللازم «زَعَمَ» يعني تأمّر، «وتأمّر عليه»، يعني تسلّط عليه، وإن رمت التّبحّر أكثر في عالم المعاني لانهمرت عليك المزيدات الغزيرة- والعرب يعشقون المزيدات- من «أزعم على القوم» إلى «تزعّم القوم»...[١]، حتّى تجد أنّ الزّعامة هي الشّرف والرّئاسة وأفضل المال والسّلاح والدّرع وغيرها من العبارات التي تدفعك إلى الابتسامة مذ أن تقع عيناك عليها، إذ تخال نفسك في متحف للمفردات العتيقة التي ما زالت تحلو لمجتمعنا المتناقض مع نفسه، والمتأرجح أبدًا ما بين التّخلّف والحداثة.

وها المنجد عينه يعرض لنا من حيث لايدري، الوجه الآخر، والمعنى الأقرب إلى واقعيّة ممارسة «الزّعامة» في مجتمعنا من خلال بعض مشتقّات الفعل الوارد أعلاه، فتجد أنّ «زاعمه» يعني «زاحمه»، وهذا ما نشكو منه في أيّامنا هذه، و«تزعّم» يعني «أتى بالأكاذيب»[٢] نظير بعض من يتّزعمون اليوم مجتمعنا المدنيّ الذي يحلم بالتّقدّم والتّطوّر وهو ما انفكّ يرقد على سرير بعض التّقاليد المتخلّفة التي ترجعه إلى غياهب العصور الغابرة.

١. الزّعيم في المعنى اللبنانيّ

إنّه رئيس سياسيّ بل طائفيّ في أكثر الأحيان، ينعم بمناصرة جماعة محلّيّة معيّنة، يحاول أن يرعاها ويحميها وقد يدّعي ذلك مرارًا ولا يفعل، وهو ينتمي عادة إلى عائلة معروفة لها تاريخها الأرستقراطيّ وتأثيرها الاجتماعيّ بسبب ثرائها وموقعها وماضيها وربّما كثرة عدد أفرادها. بيد ثمّة بعض من شقّ طريق «الزّعامة» منفردًا، مغرّدًا خارج سرب العائلة أو العشيرة أو الإطار التّقليديّ، ممتطيًا جواد الظّروف والأحداث... وقد يفخر الأرستقراطيّ على حدّ قول الفيلسوف الألمانيّ نيتشه(Nietzsche) بأنّه الرّجل القدير، المالك هواه، القادر على الكلام والصّمت، الرّاغب في تحمّل الصّرامة والقسوة، والنّاظر بإجلال إلى كلّ ما هو صارم وقاس.[٣]

يستحضر بعض الباحثين في علم الاجتماع اللبنانيّ وفي علم الإنسان عمومًا، ثلاث مقاربات تاريخيّة لفكرة الزّعيم: فالصّورة القبليّة القديمة الأولى للزّعيم هي ما نطلق عليه اليوم في اللهجة العاميّة لقب «قبضاي» ما يذكّرنا بمنطق القوّة البدنيّة والعضلات المفتولة، حيث الأقوى هو «الزّعيم» والبطل، والحقّ هو القوّة؛ والمقاربة الثّانية هي فكرة الرّجل الثّائر المشاكس الذي يستبيح كلّ شيء، وهو شرّير مراوغ وفاقد الضّمير، الذي يتزعّم على عشيرته عبر سبل الرّياء والفساد والهيمنة والقتل والتّنكيل وزرع الرّهبة والخوف في نفوس الآخرين؛ أمّا الثّالثة، فهي صورة ذلك الفارس الكريم الشّجاع الذي يحمي أنصاره وهم يدفعون له ثمن تلك الحماية مادّيًا ومعنويًا.[٤]

أمّا اليوم في لبنان، فلا يختلف الأمر كثيرًا عن تلك النّماذج، ففكرة الزّعيم لا تزال قائمة كما في العصور الخوالي: الزّيّ تمايز قليلاً، لكنّ المنطق هو عينه؛ والذّهنيّة البرجوازيّة تبدّلت بعض الشّيء، إلاّ أنّها عندنا مستمرّة وإنْ سقطت في مسقط رأسها الغربيّ.

(١) راجع، المنجد في اللغة والإعلام، الطّبعة الرّابعة والثّلاثون، منشورات دار المشرق، بيروت، ١٩٩٤.

(٢) راجع، المنجد في اللغة والأدب والعلوم، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، ١٩٢٧.

(٣) راجع، يوحنّا قمير، نيتشه نبيّ متفوّق، منشورات دار المشرق، بيروت — لبنان، ١٩٨٦.

(٤) Cf, J. Mouwanes, Les éléments structuraux de la personnalité libanaise, essai anthropologique, Inst. Of scientific studies, Sin El-Fil - Liban, 1973, pp. 136-139.

كما يلعب الدِّين دورًا عميقًا في إعداد أنماطنا الثّقافيّة (Patterns cultures)، لأنّ مفهوم الهويّة الذّاتيّة مثقل بالمضمون العاطفيّ والدّينيّ.(٥)

فكيف إذًا، لو تفرّعت من الأديان مذاهب، ومن هذه الأخيرة طوائف، ثمّ تداخلت تلك الطّوائف في النّظام السّياسيّ وتسلطّت عليه، وتمكّنت منه وقسّمته! إنّ هذا الواقع هو نتاج تاريخ الاحتلال العثمانيّ الطّويل والاستعمار السّلطانيّ الرّجعيّ والمتزمّت الذي يعود إليه «خسوف العقل» في رصيد ثقافتنا(٦) ؛ لأنّ احتلال الفكر أخطر على القوم من احتلال الأرض، وتشويه التّاريخ أسوأ من تغيير الجغرافيا.

وعليه، فقد غدا النّظام الطّائفيّ في لبنان، ممرًّا قسريًّا للحصول على وظيفة أو حتّى خدمة كبيرةً كانت أم صغيرة، ونمطًا طبيعيًّا يجعل المواطن اللبنانيّ محكومًا باتّباع زعامة طائفيّة معيّنة تجعله مرتهنًا وتابعًا لهذا الزّعيم أو ذاك، في سياق ذهنيّة تبعيّة يمتطي بعض الوصوليّين جوادها غير آبهين إلاّ بمصالحهم الشّخصيّة وطرقهم الملتوية.

إنّ التّحوّل الذي حدث في المجتمع اللبنانيّ منذ ما بعد النّزاع الثّلاثينيّ الأعوام الذي دمّر الوطن الصّغير، لا يعتبر تقدّمًا ولا تطوّرًا، بل هو مجرّد محاولة قمع للحسّ الطّبقيّ البرجوازيّ- إن صحّ التّعبير- لصالح تقوية الحسّ الطّائفيّ بل التّدينيّ الظّاهريّ، وجعل الركون إلى مرجعيّة أو زعامة الطّائفة بديلاً من الانتساب للنّقابة والانضمام إلى مسيرة النّضال الوطنيّ المطلبيّ والعامّ، والانتماء الفعليّ الصّادق للوطن النّهائيّ الواحد.

إنّها الذّهنيّة غير العقلانيّة المشحونة أحيانًا بالعاطفة الدّينيّة المهووسة، والمستندة إلى النّفعيّة الخالصة (Utilitarisme) المتأرجحة بين تضخيم الارتجال والأبّهة.(٧)

والآفة الاجتماعيّة والوطنيّة الكبرى لدينا، هي تلك الممارسة المستمرّة والملحّة للطبقة السّياسيّة الحاكمة، في استعمال النّظام الطّائفيّ الكسيح، كأداة لتجديد ذاتها واسترجاع قواها والدّفاع عن مصالحها، وبخاصّة مع وصول نجوم الفتن الأهليّة والطّائفيّة إلى إدارة هذا النّظام والاستئثار بزمام الحكم فيه. قد يساهم هذا الأمر رويدًا رويدًا في تدمير هيكليّة ما تبقّى من نظام ديمقراطيّ، و«لبننته»، وهو ما انفكّ يفتقر إلى أدنى معايير المحاسبة السياسيّة والإداريّة والوظيفيّة والقضائيّة... إنّ هذا الواقع المرير يمنح «الزّعماء» حصانة طائفيّة، فتغدو تصرّفاتهم بمنأى عن أي رقابة فعليّة، بل يتعزّز نفوذهم بقدر اقتطاع السّلطة من الدّولة، ولو على حساب مصلحة الوطن العليا. وكأنّي بهؤلاء الزّعماء كلّما نمت أخطاؤهم في تجاوز القانون ازدادت شعبيّتهم السّياسيّة وازدهرت.

فلنستذكرنّ المواسم الإنتخابيّة على سبيل المثال لا الحصر، حيث يكفي أن يقوم كلّ «زعيم سياسيّ» طائفيّ بمجموعة تحالفات مع رجال المال والأعمال في منطقته، حتّى يستملك تمثيلهم السّياسيّ ويحتكره ويحدّد بواسطته لون العصبيّة الطّائفيّة(٨)، فتندمج الطّائفيّة في الإدارة وتختلط الدّيانة بالسّياسة، ويتفتّت الوطن.

وما أدراك ما هو فساد الإدارة! إنّه ناجم قبل كلّ شيء، عن روح القبليّة السّياسيّة، والتّداخلات المذهبيّة، حيث يستقوي الموظّف بالزّعيم السّياسيّ أو الرّوحيّ، ويحار بأيّهما يستظلّ، وقد يستظلّ بهما معًا، ويدافعان عنه، أو يحميانه، ولو مرتكبًا... ويكثر المرتكبون... وتفسد الإدارة.(٩)

(٥) راجع، روبيل قنبر، شخصيّة اللبناني في خصائصها وشمولها، مقاربة إجرائيّة على ضوء القياس النّفسي، مكتبة جامعة الرّوح القدس، الكسليك- لبنان، ١٩٩١، ص. ٢٩٧.

(٦) راجع، يوحنّا سليم سعادة، فلسفة حوض البحر المتوسّط والالتزام اللبنانيّ في مؤلّفات الدّكتور رينيه حبشي، جامعة الرّوح القدس الكسليك- لبنان، ١٩٩٣، ص. ٨٨.

(٧) المرجع نفسه، ص. ١٠٠.

(٨) راجع، سليمان تقيّ الدّين، المسألة الطّائفيّة في لبنان: الجذور والتّطوّر التّاريخيّ، دار ابن خلدون، بيروت- لبنان، ص. ٢٩.

(٩) راجع، محمّد علي موسى، ومن نكد الدّنيا، دار السّلام، [د.م. [٢٠٠٧، ص. ٣٥-٣٨.

٢. الشّعب والزّعيم

ما انفكّ صدى كلمات الماهتما غاندي (Ghandi) يدوّي في أروقة مجالس الدّول المتحضّرة ودوائرها أن «ليست الدّيمقراطيّة دولة ناسها كالغنم». وما برح قول «الزّعيم العربيّ» جمال عبد النّاصر، يتردّد في أذهان بعض من واكبوا تلك المرحلة أو اطّلعوا على وقائعها، وهو أنّ «القيادات الشّعبيّة يجب ألاّ تنعزل بأيّ حال من الأحوال عن قواعدها، عليها أن تتذكّر دائمًا سرّ قوتها، ولسوف يبقى الشّعب دائمًا سرّ القوّة الخالدة».

أمّا عندنا، ومنذ ردح من الزّمن، فقد حمل المفكّر اللبنانيّ الاستقلاليّ ميشال شيحا على منطق الزّعامة المتخلّفة مستذكرًا لبنان القديم الذي كانت تسود فيه صيغٌ أكلَ الدّهرُ عليها وشربَ، تجعل النّاسَ أرقّاء في كلّ شيء للعائلة و«العشيرة»، إذ يربطون أنفسهم بسيّد من السّادة كما في القرون الوسطى، ما دفعه إلى القول يوم ذاك، وتحديدًا عام ١٩٤٨: «إن لم يتحرّر اللبنانيّون من هذه الوصايات الشّائنة، فإنّهم مضيّعون ثلاثةَ أرباع حيويّتهم وقوّتهم. لأنّ القادة على ما يبدو باتوا لا يحبّون إلاّ القامات المنبطحة والظّهور المنحنية»؛ وقد كانت الحال على هذا المنوال بحسب شيحا قبل نحو أربعين سنة، حين لم يكن يُشاهَد في السّرايات إلاّ المتزلّفون والوشاة والنّفعيون. «فكيف يقبل المرء على نفسه أن يقال عنه: هذا رجل فلان أو رجل علاّن؟ «أيّها العبيد- يتابع شيحا بعنف- «وأبناء العبيد! قولوا إنّكم رجال مبدأ، أو فكرة، أو تقليد، أو مثل أعلى، أو رجال أنفسكم؛ ولا تقولوا إنّكم مربوطون كما الكلب بزمامه إلى مصير فلان من النّاس أيّا يكن»[١٠]. ثمّ يضيف شيحا في السّياق عينه: «أنظروا إلى الشّعب كم هو متأخّر. أنظروا إليه كيف لا يزال في قبضة الإقطاعيّين. أنظروا إليه كيف يستكين لكلّ ما يحصل. يكفي أن يتبنّى زعيم منطقة من المناطق أو زعماؤها أوّل قادم حتّى يستحيل هذا القادم إلى نائب».[١١]

لكَم يهوى هؤلاء الزّعماء المدائح والتّقاريظ. أمّا شعبنا، فقد اعتاد كيل المدائح لهم عن قناعة أو بدونها. إنّه عصر الكلمات الكاذبة والمراوغة. ولعلّ خير تعبير ورد عن هذا الواقع المقنّع، ما خطّته يراعة الشّاعر الكبير نزار قبّاني:

«هذا عصر الزّنى بالكلمات. والحاكم العربيّ لا يريد الكلمة رفيقة، أو شريكة... وإنّما يريدها خادمة تغسل له أصابع قدميه بماء الورد، والزّعفران... إنّ شهريار ليس خرافة، ولا وجهًا فولكلوريًا من قصصنا الشّعبيّة. إنّه موجود في خبزنا اليوميّ.. وطعامنا.. وشرابنا.. وجرائدنا.. وفي خزائننا... إنّ شهريار هذا، هو وراء كلّ مصائب العالم العربيّ. فهو يريد أن يصادر كلّ الزّوجات من أزواجهنّ... ويريد أن يصادر كلّ الأصوات من حناجر العصافير... وكلّ الكلمات من دفاتر الشّعراء.... وشهريار بطبيعة تركيبه، ضدّ كلّ الألوان، والأصوات، والرّوائح».[١٢]

هناك في الواقع «شهرياريّة» جديدة تقتحم مجتمعنا وترهب أفكارنا وتستعبد حرّياتنا وتستملك آراءنا وتسيطر على أدمغتنا، فنركض وراءها بتخلّفيّة عمياء، وتبعيّة صمّاء، ورجعيّة بكماء. وهنا المصيبة أعظم، حيث يصبح الزّعيم في عقيدتنا نصف إله، معصومًا عن الخطأ، لا يشوبه عيب في السّياسة، نحرق الأوقات في التّفتيش عمّا يشرح أقواله ونهدر طاقاتنا الفكريّة لتبرير مواقفه، وكأنّي ببعضهم يهدونه أفئدتهم مصبوغة بألوان السّياسات التّحزّبيّة، ويهبونه أدمغتهم مدموغة بأفكاره وتوجّهاته، وهذا ما دعاه المفكّرون بالاستلاب والإرتهان الذّاتيّ (l'alliénation)، وهو الأكثر خطورة على المرء من السّيف المهنّد، بل هو تشويه للذّات وسحق للكيان الفكريّ الشّخصيّ.[١٣]

إنّ التّصرّف بموجب منطق الزّعامة في اقتسام الشّأن العامّ والسّلطة وإدارة البلاد، قد يؤدّي من ناحية أخرى، إلى صيغة حكم شبه فيدراليّة. وغالبًا ما يُنعت نظام الحكم في لبنان بأنّه نظامُ فيدراليّةِ الطّوائف بقيادة زعمائها، إذ أصبح الوضع مشوّها جدّا.

«مسكين هو الشّعب» على حدّ قول الكاتب الكبير ميخائيل نعيمة، إنّه «ذلك المجموع المبهم الحائر، الصّابر، المتألّم المؤمّل، المترقّب أبدًا طلائع الفرج ومواكب السّعادة تسوقها إليه زهرة اختارها- أو توهّم أنّه اختارها- لتدبير شؤونه»[١٤]. فالعقول اللبنانيّة إن ظلّت على ما هي عليه اليوم، فهي في طريقها إلى

(١٠) راجع، ميشال شيحا، في السّياسة الدّاخليّة، ترجمة أحمد بيضون، دار النّهار للنّشر، بيروت ٢٠٠٤، ص. ١٣٠-١٣١.

(١١) المرجع السّابق، ص. ١٧٤.

(١٢) راجع، نزار قبّاني، العصافير لا تطلب تأشيرة دخول، بيروت-لبنان، ١٩٨١، ص. ٩٠-٩٢.

(١٣) راجع، يوحنّا سليم سعادة، فلسفة حوض البحر المتوسّط...، ص. ٨١-٨٢.

(١٤) راجع، ميخائيل نعيمه، الأوثان، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦، ص. ٢٨.

الزّوال لأنّها لا تهتزّ، ولا تتحرّك ولا تثور، وهي ليست بحرّة وسيّدة ومستقلّة.

خلاصة

لم تكن رغبتنا في هذا البحث المقتضب طرح مسألة «الزّعامة» من النّاحية السّلبيّة فقط، بل شئنا التّأكيد أنّ الزّعامة الحقيقيّة هي خدمة الخير العامّ ضمن مؤسّسات الدّولة باسم الشّعب ومن أجله، ما يقتضي بناء دولة عصريّة ذات ثقافة مدنيّة حديثة منفتحة، كما جرى في تجربة الدّول المتطوّرة، تمكنّها من مواكبة العصر وتطوّره العلميّ والتّكنولوجيّ، وتأمين الاستقرار في المجتمع المدنيّ؛ ما يتنافى مع وجود سلطة طائفيّة تقوم على أفهومة «الزّعيم»، والنّظام الرّجعيّ الكيديّ، والذّهنيّة العشيريّة الثّأريّة، والعنصريّة المتخلّفة المتقوقعة، إذ تغدو مسرحًا للتّجاذبات الإلغائيّة الخانقة والمواقف السّياسيّة غير النّاضجة بين أهل الحكم أنفسهم، وتكبّد الوطن خسائر اقتصاديّة واجتماعيّة فادحة. لذا يجب تعزيز ثقافة رجال دولة المؤسّسات، من رؤساء ونوّاب ووزراء وسياسيّين ودبلوماسيّين وناشطين في الشّان العامّ.

آن الأوان- في اعتقادنا- كي نتخطّى ما أسماه الفيلسوف الألمانيّ «كانط» (Kant) بالجبن الفكريّ الذي يخشى الإباحة برأيه الحرّ بصدق وشجاعة، خوفًا من الانتقاد أو الاضطهاد أو فقدان الحماية والعناية، بل أتت السّاعة كي ننتهج سبل الدّيمقراطيّة الفكريّة أوّلاً، لأنّنا نعيش في الواقع ما نقتنع به في الفكر؛ وقد حان الوقت لنصبح شعبًا ناضجًا واعيًا يقول كلمته من دون خشية، وينزل المتكبّرين عن عروشهم، ويطيح بأنصاف آلهة السّياسة، ويأتي بالحكماء الشّرفاء، أولئك الذين يؤمنون بأنّ السّلطة خدمة... أولئك الذين يعتقدون بأنّهم أتوا ليَخدُموا لا ليُخْدَموا.

المراجع

• تقيّ الدّين، سليمان: المسألة الطّائفيّة في لبنان: الجذور والتّطوّر التّاريخيّ، دار ابن خلدون، بيروت- لبنان.

• سعادة، يوحنّا سليم: فلسفة حوض البحر المتوسّط والالتزام اللبنانيّ في مؤلّفات الدّكتور رينيه حبشي، جامعة الرّوح القدس الكسليك- لبنان، ١٩٩٣.

• شيحا، ميشال: في السّياسة الدّاخليّة، ترجمة أحمد بيضون، دار النّهار للنّشر، بيروت، ٢٠٠٤.

• قبّاني، نزار: العصافير لا تطلب تأشيرة دخول، بيروت - لبنان، ١٩٨١.

• قمير، يوحنّا: نيتشه نبيّ متفوّق، منشورات دار المشرق، بيروت — لبنان، ١٩٨٦.

• قنبر، روبيل: شخصيّة اللبنانيّ في خصائصها وشمولها، مقاربة إجرائيّة على ضوء القياس النّفسيّ، مكتبة جامعة الرّوح القدس، الكسليك — لبنان، ١٩٩١.

• موسى، محمّد علي: ومن نكد الدّنيا، دار السّلام، [د.م.]، ٢٠٠٧.

• نعيمه، ميخائيل: الأوثان، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦.

• المنجد في اللغة والإعلام، الطّبعة الرّابعة والثّلاثون، منشورات دار المشرق، بيروت، ١٩٩٤.

• المنجد في اللغة والأدب والعلوم، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، ١٩٢٧.

• Mouwanes, Joseph: Les éléments structuraux de la personnalité libanaise, essai anthropologique, Inst. Of scientific studies, Sin El-Fil - Liban, 1973.

الأب بيار نجم

أنا الكاهن، وتحدّيات العصر

تأمّل في الهويّة الكهنوتيّة على ضوء لوقا ١٠، ١-٥

لا يمكننا التكلّم على هوّية الكاهن ودوره في عالم اليوم من دون العودة إلى نصّ إرسال التلاميذ، يحملون إلى العالم إرادة المسيح بأن يَخلُصَ كلُّ إنسان.

«وبَعدَ ذلكَ، أَقامَ الرَّبُّ (اثنَينِ و) سبعينَ تِلميذًا آخَرين، وأَرسَلَهُمُ اثنَينِ اثنَينِ يتَقَدَّمونَه إِلى كُلِّ مَدينَةٍ أَو مَكانٍ أَوشَكَ هو أَن يَذهَبَ إِلَيه. وقالَ لَهم: «الحَصادُ كثيرٌ ولكِنَّ العَمَلَةَ قَليلون، فاسأَلوا رَبَّ الحَصَادِ أَن يُرسِلَ عَمَلَةً إلى حَصادِه. إِذهَبوا! فهاءنَذا أُرسِلُكم كَالحُملانِ بَينَ الذِّئاب. لا تَحمِلوا كِيسَ دَراهِم ولا مِزوَدًا ولا حِذاءً ولا تُسَلِّموا في الطَّريقِ على أَحد. وأَيَّ بَيتٍ دَخَلتُم، فقولوا أَوَّلاً: السَّلامُ على هذا البَيت.»»

أريد أن نتأمّل معًا في بعض النواحي العمليّة لهذا النصّ، من حيث التفكير معًا في المشاكل التي تعترضنا في حياتنا نحو الكهنوت والقيم التي علينا أن نسعى للمحافظة عليها لخدمة الإنجيل.

الكاهن هو معلن للخلاص الشامل وخادم له:

هناك تباين في المخطوطات اليونانيّة حول قراءة عدد التلاميذ المرسلين: بعض المخطوطات تعطي الرقم «سبعين»، بينما تورد أخرى الرقم «اثنين وسبعين». اختيار هذا العدد من المرسلين هو اختيارٌ هادفٌ، يريد إيصال رسالة خلاصيّة. فلطالما ربط التقليد اليهوديّ القديم بين الرقم سبعين (أو اثنين وسبعين) وبين مفهوم الخلاص المسيحانيّ الشامل، الّذي يتخطّى حدود أمّة أو شعب أو انتماء عرقيّ وإثنيّ. ففي العهد القديم، في الفصل العاشر من سفر التكوين، نجد لائحة أبناء نوح، الّذي صار والد البشريّة الجديدة بعد الطوفان، تضّم سبعين اسمًا. هؤلاء الأسماء هم مصادر شعوب الأرض بأسرها. وهكذا صار هذا الرقم رمزًا لشعوب الأرض كلّها، وليس فقط لشعب الله المختار في العهد القديم. ولكنّ الترجمة اليونانيّة للعهد القديم، أو ما تُدعى الترجمة السبعينيّة، قد أضافت اسمين على اللائحة هذه، فصاروا اثنين وسبعين بدل السبعين. والمهمّ في الأمر هو الرّمزيّة: سبعين أو اثنين وسبعين، كلاهما يرمزان إلى الخلاص الّذي سوف يطال جميع شعوب الأرض التي تمثّلها لائحة أسماء أبناء نوح وسلالتهم.

وهذه الرّمزية نعود لنجدها في مكان محوريّ من تاريخ شعب الله مع إلهه صاحب العهد:

فقال الرّبّ لموسى: «إجمع لي سبعين رجلاً من شيوخ إسرائيل الذين تعلم أنّهم شيوخ الشعب وزعماؤهم، وخذهم إلى خيمة الاجتماع فيقفوا هناك معك. فأنزل أنا وأتكلّم معك هناك، وآخذ من الروح الذي عليك وأحلّه عليهم، فيحملون معك أثقال الشعب ولا تحملها أنت وحدك». (عدد ١١، ١٦- ١٧). وفي سفر الخروج (خر ٢٤) يشدّد الكاتب أيضًا على حضور الشيوخ السبعين إلى جانب موسى على الجبل، حين صعد هو للقاء الرّبّ ونال الوصايا.

واختيار الرّبّ يسوع لهذا العدد تحديدًا في العهد الجديد هو اختيار يحمل رمزيّة لاهوتيّة: المسيح يأتي كموسى الجديد، يعطي الوصيّة الجديدة، وصيّة المحبّة. وجود السبعين (أو الإثنين والسبعين) إلى جانبه، يشير إلى ضرورة مشاركتنا الكهنوتيّة في الشهادة لهذه الوصيّة وإعلانها.

والرمزيّة الأخرى هي أنّ الخلاص الّذي يتمّمه المسيح في حياتنا اليوم هو خلاص شامل، يطال الأمم كلّها، المرموز إليها بالرقم سبعين. فتصبح هويّة الكاهن اليوم تجسيدًا لرغبة المسيح المرسِل بإتمام الخلاص الشامل.

وأَرسَلَهُمُ يتَقَدَّمونَه إِلى كُلِّ مَدينَةٍ أَو مَكانٍ أَوشَكَ هو أَن يَذهَبَ إِلَيه:

«أرسلهم حيث كان مزمعًا أن يذهب»؛ من ناحية اللّغة، قد نفسّرها بطريقتين، بحسب المنظار اللاهوتيّ:

بحسب القراءة التاريخيّة، أي كحدث تمّ ما قبل موت المسيح وقيامته، يعني هذا الإرسال أنّ المسيح يرسل الرسل أمامه إلى المدن التي سوف يتبعهم إليها في رسالته على الأرض. بهذا المعنى يضحي الرسول سابقًا، يسير أمام الربّ ليعدّ طريقه. وبهذا المعنى تصبح حياة الكاهن ذات بعد نبويّ: أن يعلن اقتراب مجيء المسيح والتحضير له.

ولكنّ البعد الثاني لهذه القراءة يتخطّى البعد التاريخيّ المرتبط بوجود المسيح بالجسد على الأرض، ليأخذ بعدًا لاهوتيًا: المسيح يرسل السبعين إلى حيث لم يصل هو بالجسد والتاريخ، ولكنّه يرغب في الوصول عبر من هم رسله في زماننا الحاضر. وهكذا يأخذ هذا النصّ بعدًا يرتبط بالمسيح القائم من الأموات، هو الّذي يجعل من الرسل استمراريّة لحضوره في هذا العالم. بهذا المعنى لا يعود التلاميذ- الكهنة مجرّد أشخاص يسبقون المسيح ليعدّوا طريقه، وأنبياء يعلنون مجيئه القريب، إنّما يتحوّل وجودهم إلى استمراريّة لحضور شخص المسيح في المجتمع. وهكذا يكتسب التلميذ، إلى جانب صفة النبوءة، هويّة الكاهن، أي أن يصبح مسيحًا آخر (Alter Christus)، أو المسيح نفسه (Ipse Christus)، واستمراريّة لحضوره في المجتمع البشريّ.

بناء على هذه الهويّة التي يصوّرها المسيح نفسه في كيان الكاهن، يضحي هذا الأخير مدعوًّا إلى إعطاء وجوده بعدًا نبويًا: كنبيّ، يعلن إرادة الربّ ويدعو إلى تهيئة القلب. كنبيّ، يحضّر الشعب لملاقاة الربّ، ويدعوه إلى التوبة الدائمة وتجديد عهده مع السيّد. هذا البعد النبويّ ليس صفة حصريّة لمن يحمل كهنوت الخدمة، إي الكهنوت الّذي يحصل عليه المدعوّ بوضع اليد وبسرّ السيامة، بل هو دعوة كلّ من دخل في علاقة مع المسيح من خلال سرّ المعموديّة، وهو ما ندعوه بالكهنوت العامّ:

بمعموديّتنا نتحوّل إلى مرسلين أمام السيّد، نعدّ له الطريق. يجعل الرّبّ من وجود كلّ واحد منّا صوتًا نبويًا في العالم، لكيما من خلال طريقة عيشنا، ندعو شعب الله للتوبة، ونعلن عبر شهادة الحياة أنّنا كمعمّدين نحمل مسؤوليّة نبويّة في إعلان قيم المسيح في العالم الذي أُرسلنا إليه؛ فدعوتنا كمسيحيّين هي ليست الهرب من العالم، بل تقديس العالم ورفعه إلى المسيح. ابتعادنا عن العالم ليس سببه الخوف أو النظرة السلبيّة، وإلاّ لأصبحت دعوتنا دعوةً مَرَضِيّة، ولكان تكرّسنا هروبًا وضعفَ شخصيّة، يمنعنا من التحاور مع المجتمع. تكرّسنا النبويّ عبر المعموديّة هو تكرّس أشخاص يحيون في هذا العالم ويسبقون المسيح إلى المدن المزمع أن يذهب هو إليها.

والكاهن، بمعموديّته وبسرّ الدرجة الّذي ناله، مدعوّ إلى الدخول في سرّ المسيح واكتساب هويّته: المسيح النبيّ بامتياز، أي المعلن إرادة الله في المجتمع، والمولّج إيصال كلمة الله إلى الشعب كلمةَ خلاص وحياة.

ولكي يحيا الكاهن هذه الدعوة بأمانة، لا بدّ أن يحياها حسب مفهوم التجسّد: فالخلاص الّذي يحمله الكاهن هو شخص لا عقيدة، هو حضور متجسّد ملموس لا تيّار نظريّ. إنّ الخلاص الّذي لا بدّ للكاهن من إعلانه هو خلاص دخل في علاقة مع عالمنا، وَلَجَ تاريخنا. والمسيح الذّي دخل عالمنا صار في الوقت عينه النبيّ المعلن الخلاص، وكان هو الخلاص عينه. والكاهن، المسيح الآخر، مدعوّ إلى عيش هذا الأمر نفسه، إعلان الكلمة والخلاص، ليس كمفهوم مجرّد أو كعقيدة أو نظريّة، وإنّما كشخص أزليّ دخل في التاريخ، كشخص حاضر. دعوة الكاهن هي إعلان ما يملك، وما يحيا، وما يختبر، وليس ما سمعه وما تعلّمه في الكتب. دعوته هي أن يحيا ما يُعلِن.

بهذا المعنى نفهم «وأَرسَلَهُمْ يتَقَدّمونَه إلى كُلِّ مَدينَةٍ أَو مَكانٍ أَوشَكَ هو أَن يَذهَبَ إلَيه»، فالكاهن مدعوّ أيضًا إلى هذا الإعلان النبويّ، إنّما دعوته تتخطّى واقع الذهاب أمام المسيح إلى المدن. هو لا يذهب كسابق فقط، بل يذهب باسم المسيح إلى «المدن» التي لم تختبر حضور المسيح فيها بعد. لهذا دُعي الكاهن أو الأسقف في سفر الرؤيا (رؤ ٢-٣) Angelos أي ملاك، مُرسل. الملاك في معناه الأصليّ هو الشخص المُرسَل يحمل رسالة من ملكه إلى ملك آخر أو إلى جماعة معيّنة. وهذا «الملاك» كان يمثّل الملك شخصيًا، لا يُنظر إليه من ناحية شخصه الطبيعيّ، إنّما من خلال الشخص الذي يُمثّل. كلّ رفضٍ للرسالة التي يحملها الملاك هي رفض لإرادة الملك شخصيًا، وقتل المُرسَل هو قتل لإرادة الملك في المجتمع. وهكذا يصبح إرسال المسيح للاثنين والسبعين مكانه إلى المدن التي لم يستطع هو الذهاب إليها دعوةً كهنوتيّة للحلول مكان المعلّم نفسه. وبالتالي، فالتلميذ لا يذهب كسابق فقط، بل كممثّل شخصيّ للمسيح وكنائب عنه في العالم.

دعوة الكاهن وعالم اليوم

يمكننا أن نفهم دعوة الكاهن عبر صفات خدمته الكهنوتيّة، وبعضها هي: التقديس والتحويل والتعليم والخدمة.

التقديس:

التقديس هو الفصل بين ما هو إلهيّ وما هو أرضيّ، وهو فصل الذات والجماعة عمّا هو خارج نطاق المقدّس، والانطلاق به لجعله خاصّة الله. والكاهن مدعوّ لإعطاء الحياة الإلهيّة للبشر،

وفي هذا تكمن مهمّته التقديسيّة. يدعوه القدّيس بولس «وكيل أسرار الله» هو العامل في كرم المسيح (راجع ١ قور ٤، ١) . وكلمة وكيل التي يستعملها (oikonomos) تعني حرفيًّا «قانون البيت»، وتشير إلى وظيفة الكاهن كمؤتمن على بيت الله من خلال ممارسته للأسرار، من أجل إكمال عمل المسيح في تقديس شعب الله: من خلال المعموديّة يفصل الكاهن الإنسان الّذي يعمّده إلى خدمة الله، وفي الإفخارستّيا يعطيه زاد الحياة، وفي سرّ التوبة يعيده إلى العلاقة بالله الذي فُصل من أجله.

التحويل:

من ميزات عمل الكاهن التحويل. بالعمل الأسراريّ يلتزم الكاهن بعمليّة تحويل من حقيقة المادّة المغلقة على ذاتها إلى إدخال البعد الإلهيّ في حقيقة المادّة. عبر التحويل الأسراريّ يعلن الكاهن قدرة الله على إعطاء حقيقتنا الماديّة بعدًا خلاصيًّا، ويصبح لوجودنا الإنسانيّ بعد إفخارستيّ يرفعنا إلى ما هو أبعد من المادّة. التحويل الجوهريّ هو محور وصميم هذه الحقيقة، وهو عمل لا ينغلق على ذاته، بل يطال معنى وجودنا الإنسانيّ بأسره، وبالتّالي فإنّ دور الكاهن التحويليّ لا ينحصر بالقدّاس، بل هو مدعوّ لإعلان حضور الله في الكون بطريقة روحيّة وبواسطة النعمة، كما هو حاضر جوهريًا وبشكل حقيقيّ في الإفخارستيا. هنا تضحي دعوة الكاهن، كما دعوة المعمّدين، تحويلَ الكون كلّه، وتحريرَه من أسر الماديّة القاتلة، ليكتشف جمال الله الموضوع فيه والقادر على تحريره.

الخدمة:

لا يمكن للكهنوت أن ينفصل عن الخدمة. أيّة خدمة هي؟ الخطر يكمن في سقوطها في واحد من نقيضين: الخدمة المروحنة النظريّة من ناحية، أو الخدمة الماديّة البحتة التي تهمّش البعد الماورائيّ والروحيّ.

إنّ الخدمة المروحنة البحتة تلغي البعد التجسّديّ، تفصل الوظيفة الكهنوتيّة عن إطارها الحيوّي المحيط وتجعل الكاهن كائنًا غريبًا عن مشاكل مجتمعه واحتياجاته. فالكاهن مدعوّ لمقاسمة البشر آلامهم وأتعابهم، أحزانهم وأفراحهم، على الصعيد الفرديّ وعلى الصعيد الجَماعيّ. لا معنى لكهنوتنا إن كنّا لا نفضّل الفقراء، ولا معنى لفقرنا إن كان في سبيل جمع الأموال في صناديقنا. إذا ألغينا خدمة الفقراء من حياتنا، فقدنا البعد التجسّديّ. والفقراء ليسوا فقط من هم بحاجة إلى المال، فالفقر قد يكون روحيًا أو ثقافيًا، أو اجتماعيًا، أو دينيًا حتّى. قد يكون الفقر الّذي نتكلّم عليه فقرًا في القيم، وفي المبادئ، فقرًا في العاطفة وفي الحياة الاجتماعيّة. دعوتنا الكهنوتيّة هي أن نكون في خدمة بناء الإنسان كاملاً متكاملاً، وبالتّالي في خدمة الإنسان بكلّ أبعاده من دون تهميش أيّة ناحية من نواحيه.

والنقيض الآخر هو السقوط في فخّ الخدمة الماديّة البحتة، وهو منطق يلغي البعد الإسخاتولوجيّ النهيويّ ويحصر منطقنا المسيحيّ ضمن حدود هذا العالم مهمّشًا الحقيقة الماورائيّة. هو منطق غالبًا ما نجده في التيّارات الفكريّة واللاهوتيّة الخارجة من العالم الثالث ومن المجتمعات الفقيرة؛ ولاهوتُ التحرير خير ممثّل عنها. خطأها ليس في نيّتها الحسنة وفي رغبتها الإنقاذيّة، فقناعتها هي في العودةِ إلى حياة الكنيسة الأولى، في المشاركة في الخيرات وإعطاء المحتاج حاجاتِه الجسديّة قبل إيصال الكلمة إليه. ولكنّ الحاجات الهائلة للمجتمعات الفقيرة جعلت هذه التيّارات تنحرف عن مسارها القويم، وتنغلق على البعد الماديّ البحت مهمّشةً البعد الإسكاتولوجيّ. إنّ هكذا منطقًا يقدّم لنا كاهنًا عاملاً، مدمنًا على العمل الاجتماعيّ، مهمّشًا العمق الرّوحيّ. يدعو إلى خلاص اجتماعيّ وتحرير من أغلال الفقر والجوع الجسديّ، ويهمّش حاجة الإنسان الأعمق إلى الخلاص الروحيّ. إنّ دعوة الكاهن الأساس هي أن يقدّم التوازن في خدمته، فيقف قرب المحتاج في حاجاته من دون أن ينسى حقيقة أنّ الخلاص التامّ والشامل للكائن البشريّ لا بدّ من أن يقترن بالخلاص النهائيّ الإسكاتولوجيّ.

إعلان الخلاص:

لا يمكن لوظيفة الإعلان الكهنوتيّة أن تنحصر بإعلان الإنجيل ليتورجيًا في قدّاس الأحد، بل هي حالة لا بدّ أن تكون دائمة ومستمرّة، لأنّ دعوة الكاهن هي الإعلان الدائم للإنجيل في مجتمعه. عبر إرساله التلاميذ (الإثنين و) السبعين، يعلن المسيح هذه الحقيقة، وبها تتجلّى الدعوة الشاملة للانطلاق.

والكاهن، كمسيح آخر، مدعوّ إلى إن يعلن خلاصًا تمّ عبر موت المسيح وقيامته، لا كحدث تمّ في الماضي وانتهى، بل كخلاص يستمرّ ويطال إنسان اليوم عبر الخدمة الكهنوتيّة. وهكذا يتحوّل الكاهن، كمسيح آخر بجوهره وبالسمة الأسراريّة التي نالها بوضع اليد، إلى مَؤَوِّن لعمل الخلاص، ويضحي ضمانةً لاستمراريّته عبر التاريخ.

في مفهومنا المعاصر نفهم الفداء كعمل خلاص أتمّه المسيح على الصليب. ولكن المعنى اللّغويّ الأصليّ لكلمة «فداء» تعني «دفع فدية العبد». إنّ الإعلان الكهنوتيّ يعني خاصّة العمل على إعلان حقيقة تحرّر الإنسان من جميع القيود التي تعيقه عن بلوغ عمق نضجه الإنسانيّ، وتكبّله إلى الواقع الماديّ لوجوده البشريّ البحت.

لقد أورد العهد الجديد عناصر عدّة تستعبد الكائن البشريّ: الخطيئة (روم ٧: ١٤)، الشريعة (غلا ٣: ١٣)، الموت (روم ٨، ٢١)، الآلهة المزيّفة (غلا ٤: ٨- ٩) ومُلك الشيطان (قول ١: ١٣). والعبوديّة الكبرى هي في أنّ الإنسان كان يظنّ نفسه حرّا من كلّ أنواع العبوديّة هذه (١بط ١: ١٨).

واليوم، كما في الأمس، عناصر الاستعباد لم تتغيّر:

عبوديّة الخطيئة لا تزال هي هي، والفرق فقط في التسمية. لم تعد تُسمّي عبوديّة الخطيئة بل اتّخذت لها أسماء أخرى: الإدمان على اللذّة، الغرق في الماديّة، ثقافة الشهوة والجنس. لقد تحوّلت عبوديّة الخطيئة إلى حضارة، والعالم مستعبَدٌ لها لدرجة لا يمكن لأحد أن يعلن أنّ العالم هو رهينة لهذه الخطيئة (أي الانفصال عن الله، تهميشه إلى خارج حدود الحياة الشخصيّة) من دون أن يُنعت بالتطرّف والرجعيّة والأصوليّة ومناهضة التقدّم والحداثة.

عبوديّة الشريعة لا تزال حاضرة. مشكلة اليوم هي في النقيضين: تأليه الشريعة ورفضها.

تأليه الشريعة على الصعيد العامّ: نسعى إلى النظام العالميّ العامّ والترويج له، والعمل على تحطيم النظام المقابل، من دون الأخذ بعين الاعتبار حاجات من هم الأكثر فقرًا. وفي داخل كلّ نظام يسعى الحكّام إلى تحقيق النظام على حساب قمع حريّات وسنّ قوانين تخالف حقوق الإنسان، كما هو الحال في العديد من الأنظمة الشيوعيّة والشموليّة، وصولاً إلى القمع والسجن والحدّ من حريّة التعبير والمعتقد في أنظمة التوتاليتاريّة وحكم الحزب الواحد، وتقييد الحرّيات الدينيّة ومنعها، إن من ناحية العلمانيّة الملحدة التي تلامس حدّ التمييز العقائديّ والاضطهاد الدينيّ السلبيّ، كما في العديد من البلدان الأوروبيّة المتقدّمة، أو من ناحية المجتمعات الدينيّة التي ترفض بنظامها التعايش مع دين آخر، وتحرم عنه حقّ الوجود تحت طائلة العقوبة.

وعلى الصعيد الخاصّ، نجد أنّ تأليه الشريعة قد استُبدل اليوم بتأليه نظام أو حزب أو عقيدة سياسيّة، وتحويلها إلى واقع محوريّ وأساسيّ في حياة المسيحيّ، على حساب أولويّة المسيح وتحقيق ملكوته.

أمّا النقيض الآخر الّذي يشكّل تحدّيًا معاصرًا لكاهن يريد أن يحيا هوّيته الكهنوتيّة بملئها، فهي رفض الشريعة والتمرّد على كلّ شكل من أشكال النظام والتقاليد، والسعي إلى عيش حريّة مشوّهة:

-على النطاق الكنسيّ، بتنا نجد منطقًا رافضًا لأيّ شكل من العقائديّة والتعليم.

- على النطاق السياسيّ: رفض فكرة الشريعة الطبيعيّة التي هي أساس التشريع، واعتماد القانون الوضعيّ للتشريع. هو منطق المساواة على حساب الحقيقة. لا وجود لشريعة طبيعيّة موضوعيّة لا يمكن تغييرها، وكلّ شريعة يمكن تحويرها لما يوافق رغبات ابن العصر.

- على النطاق الاجتماعيّ: رفض فكرة القيم وسلّم الأخلاق، واعتبار أنّ الشريعة الاجتماعيّة هي منطق رجعيّ.

- على النطاق اللاهوتيّ والكنسيّ: نحن أبناء المجتمع ونحمل أيضًا منطق تفكيره، والمجتمع المعاصر لا يقبل فكرة الحقيقة المطلقة ويعتبرها جهلاً وغطرسة، لا يقبل بفكرة المسيح كحقيقة مطلقة والثالوث كإله أوحد. نشاهد بروز ديانة جديدة مشتركة، ديانة تسعى لدمج كلّ الحقائق معًا لئلاّ تجرح أحدًا: هي ديانة «كلّنا على حقّ»، إذ لا وجود لحقيقة واحدة مطلقة. لم يعد من الجائز التكلّم عن «جائز وغير جائز»، أو عن «صحّ وخطأ»، فالخطأ صار يُطلق عليه اسم «المنطق المختلف»، والخطأ اسم «الرأي المغاير»، ولا يحقّ لنّا انتقاده وإلاّ خالفنا منطق التعدّديّة وحريّة التعبير.

ونتيجةً منطقيّةً لكلّ هذا، تغيّر اسم عبوديّة الموت أيضًا، إذ لبست قناعًا جذّابًا، قناع الحريّة الفرديّة. لقد جعلت المجتمعات المعاصرة نفسها في حالة عبوديّة نتيجة لفكر الماديّة ومنطق النسبيّة. فتقديس الحريّة الفرديّة ، من دون الأخذ بعين الاعتبار حدود هذه الحريّة، قذفت بالإنسان مباشرة نحو حضارة الموت.

فحريّة المرأة المطلقة في التصرّف بجسدها قد نتج عنه حُكمًا حريّتها في تقرير مصير جنينها. وبالتّالي، باسم الحريّة ينتفي حقّ الجنين في الحياة.

حريّة الإنسان في التصرّف بشكل مطلق في جسده، قاد إلى حتميّة أن تكون هذه الحرّيّة مطلقة، حتّى في اختيار الموت الشخصيّ، أو حقّ المجتمع في قتل المريض، أو مساعدته على الموت.

حريّة الإنسان في الحفاظ على حياته وأمنه ومجتمعه قد كرّست حضارة الموت، فانتقلنا من علاقة الإنسان بالإنسان كعلاقة مسالمة أو تسعى للسلام، إلى علاقة مستوحاة من شريعة الغاب: بقائي على قيد الحياة يقتضي تدميري للآخر، وهو ما نراه في ما يُدعى الحرب الإستباقيّة أو منطق الإرهاب المبنيّ على عقيدة دينيّة.

الأصنام المعاصرة:

إنّ الفرق بين عالم اليوم وزمن جماعة المسيحيّين الأوّل هو أنّنا اليوم ورثة عصر الأنوار، والإنسان لم يعد يؤمن إلاّ بما يقدر أن يُثبت حقيقته على ضوء العقل. من هذا المنطلق لا يمكننا أن نتكلّم عن عبادة الأصنام والآلهة المزيّفة، بل أضحى من الصعب التكلّم حتّى عن الإيمان بالله. رغم هذا نجد أنّ الإنسان قد انحرف عن مسار منطق عصر الأنوار، فصار يؤمن بآلهة كثيرة مزيّفة، ميزتها الوحيدة هي خضوعها لإمكانيّة الاختبار الحسّيّ: عقليّة الاستهلاك، عقليّة المادّة، عقليّة السلطة وصراع البقاء، عقليّة اللذّة...

في مواجهة كلّ هذا يسمع الكاهن كلمات المسيح «لا تُسَلِّموا في الطّريقِ على أَحد» (لو ١٠، ٤)، ويبرز الكاهن في بعديه النبويّ والأسراريّ ليعلن إرادة الله ويحوّل المجتمع على صورة هذه الإرادة. وبالتّالي، لا مجال للنسبيّة في رسالة الكاهن ولا مكان للحوار مع المفاهيم المزيّفة.

«لا تسلّموا على أحد في الطريق» يقول السيّد، والسلام في معناه البيبليّ يتخطّى بكثير مجرّد إلقاء التحيّة. السلام هو الدخول في حالة مسالمة وإلغاء للعداوة وللحرب. أي مسالمة الآخر وقبول منطقه والسماح بتحقيق مشاريعه. وفي هذا الإطار لا يحقّ للكاهن

أن يدخل في حالة توافق مع من هم خارج إطار فكر المسيح. يجب أن نميّز بين محبّة الآخر، غير القابلة للنقاش بالنسبة لمنطق المسيح، والقبول بمبادئ الآخر النسبيّة لكلّ شخص. فمن سمات دعوتنا العمل على تبشير مبادئ الآخر المغلوطة وتحويلها إلى منطق المسيح.

«لا تسلّموا في الطريق»، لأنّ الطريق برمزيّته الكتابيّة هو الدرب إلى الآب، وهو وسيلة التعرّف على السيّد، كما في رواية تلميذَي عمّاوس (لو ٢٤، ١٣- ٣٥)، ولذلك فهو مكان الانتقال من جهل الله إلى البدء في التعرّف عليه. ولكن من هذا أيضًا خطر الابتعاد عن الله بسبب الالتقاء «بإله» آخر. هو ملتقى التعاليم المختلفة، ولذلك، فلا سلام على الدرب، لا معاهدة وفاق بين حقيقة المسيح التي نحملها وحقائق العالم وآلهته وفلسفاته وتيّاراته.

السلام ليس في الطريق، بل «في كلّ بيت دخلتموه فقولوا السلام لهذا البيت» (لو ١٠، ٥). فالبيت هو رمزيًا مكان لقاء الجماعة، هي الكنيسة المجتمعة حول كلمة الله والإفخارستيّا. كلامنا ودعوتنا مصدرهما الكنيسة وغايتهما الكنيسة. وعقيدتنا لا تنفصل عن تعليم الكنيسة، وإلاّ نصبح من حاملي عقائد الشارع، عقائد الدروب المتبدّلة بتبدّل عقيدة من نلتقيه.

أن أكون كاهنًا اليوم، يعني هذا كلّه: يعني أن يكون الله هو إلهي الأوحد، وأن أعي دعوتي الكيانيّة والوجوديّة في أن أكون مسيحًا آخر: أن يكون حضوري في مجتمع اليوم هو حضور المسيح عينه (Ipse Christus)، في سبيل خدمة الإنسان وخلاصه، وفي سبيل اكتماله الإنسانيّ المتكامل.

دعوتي الكهنوتيّة في مجتمع اليوم لا بدّ أن تكون صرخة نبويّة ضدّ منطق العالم السائد: ضدّ الماديّة وروح الاستهلاك، ضدّ التسلّط

وتهميش الفقير، ضدّ منطق السعي إلى اللّذة العابرة التي لا تعطي سعادة القلب الحقّة ولا تعطي للوجود معنى ولا تؤدّي إلاّ إلى مزيد من الغرق في ضياع المعنى وفي فراغ العدميّة ولذّة اللحظة العابرة.

لذلك تأتي وصيّة المسيح في إطار إرسال (الإثنين و) السبعين، «لا تَحمِلوا كِيسَ دَراهِم ولا مِزوَدًا ولا حِذاءً». هي دعوة إلى مقاومة التجارب الثلاث التي رفضها المسيح في نصّ التجارب. فكيس الدراهم هو رمزٌ لتجربة السعي إلى الخلاص عبر المادّة، وهو ما رفضه منطق المسيح حين قال لا لدعوة الشرّير له: «أسجد لي فأعطيك هذه الممالك كلّها» (لو ٤، ٧)، وهي تجربة العالم اليوم الّذي يرى في المال والمادّية خلاصًا له.

والمزود هي تجربة اللّذة، أي إشباع رغبة البطن، تجربة تحويل الحجر إلى خبز (لو ٤، ٣). رفضها المسيح، لأنّ الخلاص لا يأتي من حجر، أي مادّة ميتة، بل من كلمة الله الحيّة والمحيية (لو ٤، ٤). وهي التجربة عينها تستمرّ اليوم في مجتمعنا. هي تجربة الخلاص عبر اللّذّة، والسعي إلى إيجاد سعادة القلب عبر حجارة المادّة الميتة، وعبر مزاود هذا العالم التي لا يمكن أن تسدّ رمق الإنسان إلى سعادة حقّة ولا أن تشبع توقه للأبديّة. هي تجربة يواجهها شبابنا كلّ يوم، بدعوة العالم لهم لإشباع جوع قلبهم إلى السعادة عبر التفتيش عنها في ماديّة الحياة، ولذّة الجنس، ونشوة المخدّرات، ومنفذ السُكر وحَرق حياتهم باللّذّة، ليعودوا فيجدوا في قلبهم الفراغ.

والحذاء هو رمز للوسائل الإنسانيّة، من علوم وتقدّم وقدرات. هي رمز لقدرة الإنسان على السير بمفرده. هي تجربة تقرير المصير بمعزل عن الله الخالق وإرادته في حياتنا. هي تجربة الشيطان للمسيح: «إرمِ بنفسك فيرسلَ ملائكتَه يحملونك» (لو ٤، ١٠). وهي تجربة إنسان اليوم سكرَ في علمه وانتشى بتقدّمه، فنصّب ذاته إلهًا على ذاته وعلى الكون بأسره. ظنّ أنّ الوسائل تعطيه الخلاص، وأنّ التقدّم يجعل منه إلهًا.

هنا دعوة الكاهن، وهنا تحدّيات العصر:

دعوة الكاهن هي أن يكون قادرًا على إعلان أنّ الخلاص ليس في المادّة، وأنّ غنى هذا العالم لن يقدر على إعطاء وجودنا الإنسانيّ معناه الأعمق، وأن نعمة التقدّم لا يمكنها أن تحلّ مكان الإله، وأن عقل الإنسان بتقدّمه مدعوّ إلى إعلان مجد الخالق لا إلى استبداله بالحاد موضوعيّ أو لا أدريّ.

دعوة الكاهن هي أن يبقى صرخة رجاء في مجتمع تخنقه الماديّة ويرزح تحت ثقل الاستهلاك، ليعلن أنّ خلف حدود المادّة هناك حقيقة غير مرئيّة ولكنّها عاملة في تاريخنا، وتدفع بنا إلى الأمام، إلى أعلى، تدعونا لأن نرفع أعيننا إلى ما يسمو على المادّة.

دعوة الكاهن هي أن يكون فاديًا آخر، أي أن يدفع رهن العبيد ويفكّ أسرهم، كما فعل معنا المسيح. فيضحي وجود الكاهن تأوينًا لخلاص المسيح المخلّص الأوحد والكاهن الأعظم، واستمراريّةً لفدائه في عالم اليوم، فيتحرّر أسرى العبوديّة المعاصرة على أشكالهم، ويفتحوا عيونهم إلى واقع جديد، واقع أن لا بدّ من استثمار بُعدهم الرّوحيّ، وهو في غالب الأحيان بعد يبقى غيرَ مستكشف لديهم؛ وهناك يجدون ما يشفي عطشهم إلى السعادة.

«إنّه زمن رائع لنكون فيه كهنة» قال يوحنّا بولس الثاني الطوباويّ، (عظة في قدّاس طلاّب الإكليريكيّة الرّومانيّة في ١٣ تشرين ١٩٧٩). نعم إنّه زمن رائع لأنّه زمن يتطلّب فيه الكهنوت تضحيةً أكبر وشغفًا أكبر بالرّبّ يسوع الداعي إلى الكهنوت. إنّه زمن رائع «لأنّ الرّبّ يتكلّم إلى كهنته، ومخطّطاته الخلاصيّة تتعلّق، بنوعٍ ما، بتجاوب الكاهن وببذل حياته، وبالكرم الذّي يبديه في اتّباع إلهام الرّوح القدس في عمق قلبه» (راجع خطاب يوحنّا بولس الثاني أمام الإكليريكيّين في ماينووث، إيرلندا، ١ تشرين الأوّل ١٩٧٩).

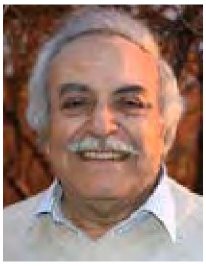

د. سامي مكارم
أستاذ الإسلاميّات والتصوّف
الجامعة الأميركيّة في بيروت

مسلك التوحيد (الدُرزيّة)

أُعلِنَت دعوة التوحيد (الدُرزيّة) في الأوّل من شهر محرّم من العام ٤٠٨ للهجرة/ ٣٠ أيّار، ١٠١٧ للميلاد. وقد ظهرت من الشيعة الإسماعيليّة في القاهرة برعايةٍ من الخليفة الفاطميّ السادس الحاكم بأمر الله.

واتخذ دعاة التوحيد من دور العلم في القاهرة، كالأزهر ودار الحكمة ومسجد ريدان، مراكز لدعوتهم تلك يفصلون منها إلى مختلف الأقطار، فوصلت دعوتهم إلى مختلف المناطق الإسلاميّة كالحجاز واليمن والأحساء والعراق وبلاد الشام وبلاد فارس والرّي وخراسان والهند. أمّا في بلاد الشام فترسّخت في القسم الجنوبيّ الغربيّ جَبَلِه وساحلِه وفي دمشق وحولها وفي حلب وجوارها وفي الجليل وسفوح جبل الكرمل وفي الجولان ووادي التيم من لبنان الشرقيّ وفي منطقة جبل لبنان حتّى بلغت فيما بعد منطقة جبل حوران. وممن اشتُهر في بثّ الدعوة في بلاد الشام أمراء من بني تنّوخ وطيّ وتميم وكلب.

وقد أُطلق على هذه الفرقة خطأً اسم الدرزيّة وعُرف أتباعها بالدروز نسبة إلى أحد المتنفّذين في الدولة الفاطميّة آن ذاك وهو أنوشتكين الدّرزيّ الذي طُرد من الفرقة أوائل عهدها بعد خلاف بينه وبين الخليفة الحاكم بأمر الله وإمام الدعوة حمزة بن عليّ. أمّا الاسم الذي يطلقه أتباع هذه الفرقة على أنفسهم فهو «الموحِّدون» أي الذين يتّبعون «مسلك التوحيد». وقد جاءت هذه التسمية من الحديث النبويّ الذي يصنّف الإسلام من حيث هو دين إلى ثلاثة مسالك يؤدّي الأوّل منها إلى الثاني، والثاني إلى الثالث. فلا يُوصَل إلى المسلك الثاني إلاّ بتمام الأوّل، ولا يوصل إلى المسلك الثالث إلاّ بتمام الثاني. أمّا هذه المسالك الثلاثة فهي أوّلاً: مسلك الإسلام الظاهر، وهو الإقرار بدعائم الإسلام من شهادة بأن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّدًا رسول الله وصلاةٍ وزكاةٍ وصومٍ وحجٍّ لمن استطاع إلى ذلك سبيلا، ومن اتّباعٍ للشريعة. ثانيًا: مسلك الايمان، أي تأويل المعنى الظاهر للتنزيل واتّباع الطريقة التي أدّاها الأيمةُ المخوّلون هذا التأويل بغيةَ إطّلاع المؤمنين على المعنى الباطن للإسلام. ثالثًا: مسلك الإحسان أو التوحيد، أي الأخذ بما يدلّ عليه التأويل من الحقيقة بغية الوصول إلى العرفان. وهكذا ينظر الموحّدون إلى أنّ طريق التوحيد تتألّف من مسالك ثلاثة هي الشريعة والطريقة والحقيقة أو الإسلام والايمان والإحسان، أو الظاهر والباطن وباطن الباطن، أو الإقرار والمعرفة والعرفان. وهكذا يكون من شأن هذا المسلك الثالث أن ينبّه السالك إلى حقيقته الأزليّة حيث لا نسبيّ ينفصل عن المطلق، ولا جزئيّ يستقلّ عن الواحد الأحد. وبذلك يسير المؤمن على مسلك العرفان الحقّ فيحقّق ذاته في الواحد الأحد حيث تلتهِم المؤمنَ صمديّةُ الأحَدِ فيفنى النسبيّ في المطلق فناءً عرفانيًا لا جسمانيًا ولا يبقى إلاّ الحضور الأحديّ.

ما إن تمّ الفتح الإسلاميّ لبلاد الشام وبلاد ما بين النهرين وبلاد فارس وقسمٍ من الهند كبير ومصر وشمال أفريقيا والأندلس حتّى أخذ المسلمون يحتكّون بأهل تلك البلدان الأصليّين من سريان وفرس وهنود وروم ومصريّين وغيرهم. وقام هؤلاء العرب بفتح عقولهم لمختلف الحضارات والأفكار، فاطّلعوا على المنطق والفلسفة الإغريقيّة والفكر الفارسيّ والتصوّف الهنديّ واللاهوت اليهوديّ والمسيحيّ. وتأثّر المسلمون بهذه الحضارات، وكان لهذا أثر بارز في تأويلهم القرآن والحديث، وفي فهمهم للعلوم الإسلاميّة من فقه وعلم وكلام وفلسفة وتصوّف.

كن من نتيجة التلاقي الفكريّ بين العقلانيّة الإغريقيّة والروحانيّة الشرقيّة أن أثّر في بلورة العقيدة التوحيديّة (الدرزيّة) التي تميّزت بالعقل والقلب معًا، وبالمنطق والروحانيّة، وبالفلسفة والتصوّف، وبالإسلام التأويليّ الباطنيّ والتراث الدينيّ الساميّ، ما أدّى بأن تقوم هذه الفرقة التوحيديّة على حقيقة أنّ الله هو الواحدُ لا من عددٍ ولا غيريّةَ له ولا حدّ، وبالتالي أنّ هذا الوجودَ هو انعكاسُه وتعبيره.

دور الحاكم بأمر الله في عقيدة التوحيد

تقول عقيدة التوحيد بأنّ مسلك الإسلام أو الظاهر قام برسالته في أداء دوره كما قام مسلك الايمان أو الباطن برسالته. وبعد أربعِ مئةِ سنة من مسلكَي الظاهر والباطن، أي في عهد الإمام الحاكم بأمر الله حان الوقت لظهور المسلك الثالث، وهو مسلك الإحسان أو التوحيد.

وهكذا كان، ففي الأوّل من محرّم من العام ٤٠٨ للهجرة/ ٣٠ أيّار، ١٠٧ م، يقول الموحّدون إنّ الحاكم بدأ دعوة التوحيد بتعيين حمزة بن عليّ إمامًا لهذا المسلك الثالث، كما عيّنَ عبد الرحيم بن الياس

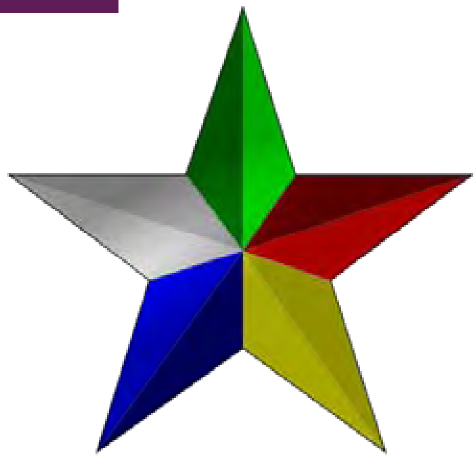

وليًّا لعهد المسلمين (أتباع المسلك الأوّل، أي الظاهر) وأبا هشام عبّاس بن شعيب وليًّا لعهد المؤمنين (أتباع المسلك الثاني، مسلك الباطن).

الله في مسلك التوحيد

الله في عقيدة التوحيد هو الواحد الأحد لا ذاتيّة له ولا حدّ، هو الواحد لا من عدد وغاية الغايات ومعنى المعاني الذي لا يخرج عن وحدته الأحديّة غيرٌ، محيطٌ بكلّ شيء دون أن تحدّه صفة، أوجَدَ الوجودَ إيجادًا حتميًّا، إبداعًا منه وإظهارًا، فكان إبداعُه هذا شأنَه المحتوم وأمرَهُ الضروريّ نظامًا كونيًّا عقلَ به الوجودَ تأييدًا منه له. مَثَلُ تأييدِهِ من هذا الوجود مَثَلُ نقطة المركز من الدائرة. دائرةُ الوجود كلُّها فيها، والدائرةُ إسقاطُها. الدائرةُ تجلّي صاحب النقطة المركزيّة. والنقطةُ المركزيّة تأييدُه. أمّا نقطة البيكار التي تبدأ بها الدائرة وتنتهي بها فأمرُه، وأمرُه «تَمظهر» الذي يعقل دائرة الوجود (إنّما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون) (القرآن (٣٦): ٨٢). مَثَلُ الله مِن أمره كمَثَلِ المعنى من كلمته. الوجودُ كلُّه في الله إذًا، وهو بالله ولله ومن الله. إنّه بُدُوُّ الله، والله وجهُه. هذا الوجود إنّما هو إبداع الله الواحد الأحد الذي لا غيريّة له، ولا خارج ولا داخل يحدّانه. فالله إذًا في إبداعه يضمّ الوجود ويحويه في ملكوت وحدانيّته. فلو كان الله خارج الوجود لكان محدودًا به ينتهي حيث يبدأ هذا الوجود وينحصر خارج حيّزه، وكان الله بإزاء هذا الكون، ولتكوّنت ثنائيّة من الله الصانع ومن الكون المصنوع، ولكانت هذه الثنائيّة تناقض حقيقة أنّ الله واحد أحد. فالكون تجلّي الله وعبارته. من هنا كان الله الداخل في كلّ شيء الخارج من كلّ شيء، لا ينفصل عن الكون الذي هو تجلّيه ولا يتّصل به. علاقة الانسان به إذًا علاقةُ أنسٍ لا علاقة مسافة. جَلّ أن يكون خاضعًا لبُعدي الزمان والمكان. صورتُه التي تتجلّى للانسان هي صورةُ أنسٍ. فهو تعالى منزّه عن الكون في سرّ لاهوته، متأنّسٌ للانسان في سرّ ناسوته.

أمرُ الله الذي ذكرته الآيةُ أعلاه هو إذًا الذي يعقل الكون ويحويه. إنّه النظام الكونيّ العاقلُ لهذا الوجود الضابطُ له. إنّه إذًا «تمظهُرُ» الواحد الأحد، إنّه المبدَعُ المحدود من المبدِع الأحد. فإذا كان المبدِعُ الأحد لا ذاتيّةَ له ولا عَين فالمبدَعُ ذو ذاتيّة وعين، وبالتالي فهو محدود يقبل الأضداد. فإذا كان هو النظام الكونيّ فضدّه هو الفوضى. وكما أنّ الكلمة- على سبيل المثال- هي في معيّة معناها، كذلك أمرُ الله أو العاقلُ الكلّيُّ هو بطبيعته في معيّة الله، يعيه الله ويحويه ويحيط به.

غير أنّ هذا العقل الكلّيّ، أي النظام الكلّيّ، بما أنّه ذو ذاتيّة، فقد قاده حدّه هذا بطبيعة الحال إلى شعوره بذاتيّته تلك، فتولّد من شعوره هذا غيبةٌ جزئيّةٌ عن شعوره الكلّيّ بالواحد الأحد. أي تولّد لديه شعورٌ بثنائيّةٍ فصلته جزئيًّا عن شعوره بهذا النور الواحد الأحد وتولّدت من هذا الانفصال الجزئيّ عن النور المحض بطبيعة الحال ظلمةٌ محض.

غير أنّ العقل الكلّيّ بطبيعة نوره الأصل ما لبث أن أقرّ محدوديّته، فتحرّك بحركة الشوق والعجز إلى الواحد الأحد يُعينه على هذه الفوضى الضديّة، فيتولّد من حركة الشوق والتضرّع هذه النفسُ. والنفسُ هي حركةُ سعيٍ إلى العودة إلى الله الواحد الأحد. هي مشيئة العقل. والجدير بالذكر أنّ من معاني النفس الهمّة، كما تذكر المعاجم العربيّة. أمّا المشيئة فهي المصدر الميميّ من فعل شاء الذي مصدره العاديّ هو الشيء. هذا الشيء هو حدّ الوجود الثاني. أمّا حدّ الوجود الثالث، حسب الآية القرآنيّة المذكورة أعلاه، فهو القول الذي يترجَم بالأمر الكلّيّ وهو حدّ الوجود الرابع التي يُترجم بالاستجابة للأمر وهي حدّ الوجود الخامس. وبذلك تتمّ الآية القرآنيّة (إنّما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون).

الكون

وهكذا فإنّ الكون أبدعه الله من نور الحدّ الخامس، الذي أُبدع بدوره من نور الحدّ الرابع، وهكذا دواليك حتّى نصل إلى أمر الله الذي هو العقل الكلّيّ الذي هو إبداعٌ بدوره من النور المحض نورِ الواحد الأحد.

وبما أنّ الانسان هو صفوة العالم وقد أُبدع من نور العقل، وبما أنّ العقل هو إبداع المطلق، فحقيقة الانسان، أي روحه، هي خالدة حيّة لا تموت. مَثَلُ الروح الانسانيّة من الجسم البشريّ هو كمثل المعنى من الكلمة. وكما أنّ المعنى لا يتحقّق إلاّ بالكلمة، كذلك الروح الانسانيّة لا تتحقّق روحًا إلاّ بالجسم البشريّ. وهكذا فالجسم البشريّ هو حقلٌ للروح الانسانيّة، فلا ترتقي الروح إلاّ بحقلها. والانسان إنّما يتحقّق إنسانًا بالمعرفة والمحبّة والذوق. من هنا كانت غاية الانسان التي يسعى إليها، أي جنّته، لا تتحقّق إلاّ بمعرفة الله ومحبّته وتذوّق جماله. ومعرفة الله ومحبّته وتذوّق جماله إنّما هي غير منفصلة عن الوجود، فلا معرفة لله ولا محبّة له ولا تذوّق لجماله إلاّ بمعرفة وجوده ومحبّته وتذوّق جماله.

الله والانسان

الموحِّد إنّما يحقّق ذلك إذا هو سلك مسلك الفضيلة، وهي العمل لتحقيق غايته في الوجود. بهذه الفضيلة يستطيع أن ينتقل من الأنانيّة والشعور بالكثرة إلى التوحيد، أي الشعور بالوحدة مع الواحد الأحد.
والأخلاق، في المفهوم التوحيديّ، إنّما تقوم على اتّباع الفضيلة التي تقود الانسانَ منطقيًّا إلى تحقيقٍ لذاته طبيعيّ. ففضيلة كلّ شيء، حسب مفهوم التوحيد للأخلاق، هي تحقيق الأشياء لغاياتها بأعمالها التي وجدت لها.
هذا المفهوم للأخلاق يجعل مسلك التوحيد يدعو إلى المساواة بين الناس. فهو يعطي المساواة أهميّة كبرى في بناء هذا المسلك الخلقيّ، وفي نظرته إلى مقام الانسان في الكون وعلاقته بالله. والناس، حسب عقيدة التوحيد، يتساوون في الأصل أمام الله، ذلك لأنّ كلّ إنسان هو مظهرٌ من مظاهر هذه الوحدة وتعبيرٌ من تعابيرها، ولأنّ كلّ واحد منهم يستطيع أن يشرف على ذاته بفضل قوّته العقليّة، وأن يعي وجوده ويسعى إلى المعرفة ويحاول أن يميّز ما هو خير وما هو حقّ وما هو جميل. لذلك، فلا فرق بين إنسان وإنسان إلاّ بمدى تحقيقه لذاته من حيث هو إنسان، وبمدى استعماله لعقله الذي يميّزه عن سائر الحيوان، وبمدى تمييزه لما هو خيرٌ وعلمِهِ لما هو حقّ وتذوّقِهِ لما هو جميل، وبذلك الخير الذي يصيبه منه الآخرون، وبتلك المحبّة التي يُغدقها على غيره من الناس، وبذلك النفع الذي يمنحه فيجعله يرقى بالانسانيّة جمعاء، وبمدى انضباطه بالنظام ومنعه للفوضى. وهكذا فلا أهميّة للّون والجنس والأصل والنسب والغنى والمركز الاجتماعيّ في مسلك التوحيد، الذي يدعو تاليًا إلى المساواة التامّة بين الرجل والمرأة.

أمّا موقف مسلك التوحيد من الحريّة الانسانيّة فإنّه نتيجة لهذا الموقف من الانسان. فلكي يتمكّن الانسان من أن يحقّق غايته في الوجود، ينبغي أن يكون له القدرة على هذا التحقيق، أي ينبغي أن يكون حرًّا وأن يكون مريدًا ومختارًا لِما يفعل كلّ الاختيار. إنّ هذه الحريّة هي أساسُ مفهوم مسلك التوحيد للعدالة الإلهيّة. فالانسان لو لم يكن حرًّا لَمَا استطاع أن يكون إنسانًا حقًّا، ولَمَا استطاع أن يبلغ حالةً من المعرفة توصله إلى التحقّق بالله. ولذلك لا يمكن الانسانَ أن يفوز بالجنّة، وهي التحقّق بالنظام الكونيّ، إلاّ بسعيه الحرّ إلى التوحيد. فالحريّةُ، في نظر مسلك التوحيد، ليست مقدرة الانسان أن يفعل ما يريد، بل مقدرته أن يفعل ما هو خير. والحرّ، في مسلك التوحيد، هو من يحقّق كماله الأخصّ به. غير أنّ ممارسة هذه الحريّة عمليًّا تصبح محدودةً بما تراكم على الانسان من أعمال سيّئة اختارها لنفسه، فكانت نتيجتها أن جعلت نطاقَ حريّته محدودًا.
لذلك فالثواب والعقاب هما، لدى عقيدة التوحيد، نتيجتان لأعمال الانسان ولما يعتقده ويؤمن به ويتّبعه. والانسان، حسب مفهوم التوحيد، هو زبدة هذا العالم، لما انفرد به من تقدّم في تركيبه الجسديّ وفي بنيانه العقليّ والنفسيّ والعاطفيّ، ولما تميّز به من مقدرة على التطوّر وعلى الإدراك والتمييز. فكان بذلك الوحيدَ الذي يستطيع أن يكتنه حقيقته التي هي قبس من عالم العقل النورانيّ الخالد البسيط. ولذلك فإنّ حقيقة الانسان التي هي كنهُه ومعناه ومدلولُه- وقد درج الناس على تسميتها بالروح- هي بسيطةٌ لطيفةٌ متحرّكةٌ محرِّكةٌ خالدةٌ لا تَفسد ولا تَتجزّأ ولا تَبيد.
وقد اتّخذت هذه الروح من الجسد الكثيف آلةً تبدو بها، وحقلاً تعمل ضمنه وتفعل خلاله وتتحرّك به وتتحقّق. وهكذا كان الانسان، في كثافته ولطافته، في مظهره ومعناه، في جسده وروحه، وحدةً لا تنفصل وكلاً لا يتجزّأ، يقوم بكليّته كيانًا واحدًا يدلّ بوجهيه على الوحدة الشاملة وعلى الكون الكلّيّ. فاللطائف الخالدة لا تثبت بذاتها ولا تقوم إلاّ بالآلة الجُرميّة التي هي الحقلُ الذي به تتحقّق به الروح وتتّسع وتنمو ليصير بها الانسانُ إنسانًا حقًّا.
إنّ مسلك التوحيد يعلّم سالكيه أنّ المعرفةَ دائمةُ النموّ والاتّساع. فهو لا يدعو إذًا إلى الانفتاح على الحقيقة وحسب، بل يوجب على الموحّد أيضًا أن يؤمن بالحقيقة إيمانًا معرفيًّا، وأن يكون دائمَ الانفتاح على هذه الحقيقة دائبَ السعي وراء المعرفة. ومسلك التوحيد يعلّم الموحّد أن الحبّ هو ثمرة المعرفة. هنا نرى كيف تتجاوب عقيدة التوحيد مع المعارف الانسانيّة ومع العلم والحكمة ومع الحبّ. فأهمّ شيء في حياة الموحّد، حسب عقيدة التوحيد، هو السعي الدائب إلى الحقيقة المحض التي توصل إلى الحبّ المحض.

المحامي طانيوس نعيم رزق

يا عذرا، عن شوف العذرا!

سألني ابني اليافع: «من هو أغنى شخص في بلدتنا كوكبا؟» فأجبته: لا أستطيع أن أحدّد من هو أغنى شخص، لكنّي أقول لك من هما أغنى شخصين:

أحدهما قريبنا الأخ أنطوان رزق الحبيس في وادي قاديشا، دير مار أنطونيوس قزحيّا، والثانية سيّدة أنعمت عليها أمّنا العذراء في كانون الأوّل ٢٠٠٩ بشفاءات عجائبيّة وعدّة ظهورات ورسائل. ومن خلالها التأمت مجموعة دائمة للصلاة.

أحد الظهورات عاينته إحدى نسيباتنا من منـزلها القريب لمنـزل هذه السيّدة، فاخبرتنا قائلة: «عصر ذلك اليوم كنت في منـزلي، وإذا بصلوات وتراتيل تتعالى من منـزل السيّدة... ولعلمي أنّ أصوات المصلّين تزداد ارتفاعًا وحرارة عندما يحصل ظهور لأمّنا العذراء، أسرعت بالخروج والتطلّع باتجاه منـزلها. ويا لروعة ما شاهدت: رأيت العذراء ويسوع واقفًا إلى جانبها وبينهما مسبحة كبيرة تتلألأ حبّاتها ضياء. فكانت ردّة فعلي أن صرخت مندهشة: «يا عذرا! عم شوف العذرا!»».

أنطلق من هذه العفويّة في التعبير التي تظهر جليًا مدى ارتباط شعبنا المؤمن بأمّنا العذراء ارتباطًا بنويًا عميقًا في بساطته وثابتًا في إيمانه. وبنفس البساطة أتوقّف عند محطّات مريميّة، عربون محبّة وامتنان وشهادة لبعض عطاءاتها.

أوّلاً. ثقة مطلقة بالله: الأمر الأوّل الذي يدهشنا، ثقة العذراء المطلقة بالله، وتسليمها الكامل لمشيئته وتركها الأمور لتدبيره. مذ بشّرها الملاك بمجيء المخلّص وأنّ نعمة الروح القدس جعلتها تحمله في أحشائها ليولد منها بصورة فائقة الطبيعة، التزمت الصمت حول هذا الحمل، ولم تبادر لتخبر خطّيبها يوسف بما حصل وتبرّر حملها وتبعد عنها سوء التفسير. وهذا أوّل تحدّ واجهته العذراء. «ولم يرد (يوسف) أن يشهر أمرها، فعزم على أن يطلّقها سرًّا. وما نوى ذلك حتّى تراءى له ملاك الربّ في الحلم» (متّى ١: ١٩ و٢٠).

ولا شكّ بأنّ العذراء كانت تدرك تمامًا أهميّتها لدى الله ومدى قدرة الطفل الذي تلده والسلطان المعطى له على الملائكة والبشر. لكنّها لم تستعمل هذه القدرة لمصلحتها الشخصيّة: ولادة يسوع تمّت في ظروف يصعب على امرأة ماخض أن تتحمّلها «فولدت ابنها البكر وقمّطته وأضجعته في مذود لأنّه لم يكن لها موضع في النـزل» (لوقا ٢: ٧).

وجاء الهرب إلى مصر ومعاناة التهجير والانتقال إلى بيئة غريبة، بعيدًا عن الأهل (متّى ٢: ١٣ و١٤)... كلّ ذلك احتملته ولم تلتمس إعفاء من صليب المشقّات هذا.

ثانيا. ظهور العذراء وعذريّتها:

١. يتوقّف أعداء بتوليّة العذراء عند عبارة «ولمّا حان يوم طهورها بحسب شريعة موسى، صعدا إلى أورشليم ليقدّماه للربّ، كما كتب في شريعة الربّ من أنّ كلّ ذكر بكر يدعى مقدّسًا للربّ» (لوقا ٢: ٢٢ و٢٣)، فيتخلّون عن الإطار الإلهيّ لهذا الحدث، وعن حلول الروح القدس والحبل بيسوع، ويضعون نصب أعينهم وأفكارهم امرأة عاديّة تلد ولادة طبيعيّة، فيزعمون: «طهورها يعني أنّ يسوع ولد كأيّ طفل في العالم، فلم تعد أمّه عذراء».

٢. وأمام هذه الوثنيّة الماديّة نسألهم: هل كان يسوع خاطئًا؟ فيجيبون: «كلاّ، لم يرتكب خطيئة». ونتابع: معموديّة يوحنّا كانت للتوبة والاعتراف بالخطايا «فظهر يوحنّا في البرّيّة معمّدًا ومناديًا بعماد توبة لغفران الخطايا» (مرقس ١: ٤) فلماذا اعتمد يسوع إذن؟

٣. ولماذا خُطبت العذراء ليوسف وعاشت معه، ما دام أنّها حبلت من الروح القدس؟

٤. «ولمّا تمّت ثمانية أيّام وآن للطفل أن يُختن، فسمّي يسوع» (لوقا ٢: ٢١). والختان، كما الله لابراهيم «هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك: يُختن كلّ ذكر منكم... ويكون ذلك علامة عهد بيني وبينكم» (تكوين ١٧: ١٠

و١١). فلماذا خضع يسوع لشريعة الختان، ما دام أنّه ابن الله، وأتى من الله لا من نسل بشريّ؟ هل كان بحاجة ليقيم عهدًا بينه وبين نفسه؟

٥.كان كلّ ذلك، ببساطة، لأنّ الله يريد أن تكون حياة يسوع الأرضيّة ضمن مظاهر الشريعة، حتّى لا يفسح في المجال للمشكّكين بالقول إنّه خارج على الأحكام المنظّمة للدين والعائلة، فيجدوا علّة لإنكاره ونبذه. والبرهان العمليّ على ذلك موضوع السامريّين: «أرسلهم يسوع وأوصاهم... ولا تدخلوا مدينة للسامريّين» (متّى ١٠: ٥)، لئلاّ يكون للفرّيسيّين عذر ليقولوا: «قَبِله السامريّون المارقون من الايمان القويم، فهو إذن منهم وليس منّا، ولا يمكن أن يكون هو المسيح المنتظر». والسهولة التي أعلنت فيها المرأة السامريّة: «هلمّوا فانظروا رجلاً قال لي كلّ ما فعلت، أتراه المسيح؟» (يوحنّا ٤: ٢٩)، دليل على أنّ الأسلوب العفويّ للسامريّين البسطاء القلوب يختلف كليًّا عن الفرّيسيّين المتقعّرين في التفحّص والتدقيق والتشكيك. فعبارة «سامريّ» كانت بمثابة شتيمة عند اليهود: «أجابه اليهود: ألسنا على صواب في قولنا أنّك سامريّ وأنّ بك مسًّا من الشيطان؟» (يوحنّا ٨: ٤٨). ومع ذلك، لم يتوان يسوع عن تكريم السامريّين بإعطائه مثل «السامريّ الصالح» إذ جعله أفضل من الكاهن واللاوي، خادم الهيكل (لوقا ١٠: ٣٠- ٣٧).

٦. إذن، كان يسوع حريصًا على احترام الأنظمة الدينيّة بما لا يسيء إلى شريعته وتعاليمه، بينما نقض «شريعة السبت» لأنّها تجعل السبت أهمّ من الانسان (مرقس ٣: ٢- ٤).

٧. ونتابع مع المتزمّتين في تكريس القوانين الطبيعيّة للولادة مستبعدين أيّ دور للإرادة الإلهيّة في موضع إلهيّ أساسيّ، فنسألهم: أما قرأوا حضور المسيح بين الرسل بعد قيامته: «وقد أغلق التلاميذ عليهم الأبواب، خوفًا من اليهود، جاء يسوع ووقف في الوسط» (يوحنّا ٢٠: ١٩، ثمّ ٢٦) «فارتاعوا وظنّوا أنّهم يرون روحًا وقال لهم: ألمسوني وانظروا، فليس للروح ما ترون لي من لحم وعظام» (لوقا: ٢٤: ٣٧ و٣٩). فهل انهار السقف حتّى يدخل يسوع، الرجل من لحم وعظام؟ وما هو أسهل، بمنطق «روّاد الطبيعة»: أن يخرج الجنين الإلهيّ من أحشاء والدته مع الحفاظ على عذريّتها، أم أن يخترق رجل سقف غرفة من دون أن يُثقب أو ينهار؟ ما دام منطقهم يقود إلى الاستنتاج أنّ اقتحام السقف أسهل وأسلم، فليجرّبوا ويبرهنوا نظريّتهم، فيكونوا، بحقّ، أكثر إقناعًا للناس، وإلاّ فليصمتوا!

ثالثًا. ما لي ولك يا امرأة:

«كان في قانا الجليل عرس وكانت أمّ يسوع هناك، ودعي يسوع أيضًا وتلاميذه إلى العرس ونفدت الخمرة، فقالت ليسوع أمّه: «ليس عندهم خمر» فقال لها يسوع: «ما لي ولك يا امرأة، لم تأت ساعتي بعد». فقالت أمّه للخدم: «مهما قال لكم فافعلوه». وكان هنالك ستّة أجران من حجر معدّة لتطهير اليهود فقال يسوع للخدم: «املأوا الأجران ماء» فملأوها إلى أعلاها (وحوّل يسوع الماء خمرًا). «هذه أولى آيات يسوع... فأظهر مجده وآمن به تلاميذه» (يوحنّا ٢: ١- ١١).

نتوقّف عند عدّة عبر في هذه الحدث:

١. أن يكون جواب يسوع «ما لي ولك يا امرأة» لمجرّد ما قالت له أمّه- بصوت مسموع- «ليس لديهم خمر»، يعني أنّه سبق الكلام المسموع، تخاطب روحيّ بين المسيح وأمّه. فأبلغته نفاد الخمر وطلبت إليه معالجة الأمر، فلم يستجب. لذلك صرّحت علنًا، فوضعته في موقف «حرج»: كإنسان، قال ما قال، وبدا كأنّه يعصو إرادتها. أمّا كإله، فانصاع ونفّذ رغبتها. وبالطبع، أن «يطيع» الإله رغبة إنسان، لهو أعظم شأنًا وأهمّ إكرامًا ممّا قد يبدو خشونةً كلاميّةً بشريّة.

٢. ويستوقفنا بانذهال تجاوب الخدم وطاعتهم التامّة من دون علم مسبق بما سيتمّ لاحقًا من خوارق لا يمكن توقّعها ولم يسبقها ما يشير إلى إمكان حصولها. هذه الطاعة العمياء، مع ما جرى لإليصابات «لمّا سمعت سلام مريم، ارتكض الجنين في حشاها وامتلأت من الروح القدس» (لوقا ١: ٤١)، تجعلنا ندرك أنّ للعذراء هالة روحيّة قدسيّة جعلت الخدم ينفّذون من دون أيّ تردّد أو تساؤل، رغم ندرة المياه ومشقّة استقائها آنذاك.

٣.عندما كانت الأمور تتعلّق بالعذراء شخصيًا، كان تسليمها مطلقًا لله. أمّا عندما تعلّق الأمر بخدمة للغير، فلم تنثن عن الوقوف بوجه ابنها الإله، واستعمال سلطتها كأمّ وإعلان مشيئتها له. وهنا عظمة وأهميّة شفاعة العذراء. ويا لشقاء من يحرم نفسه هذه الشفاعة.

٤. النتيجة التي انتهت إليها شفاعة العذراء أتت مزدوجة: لأهل العرس، فجنبتّهم المهانة؛ وللمسيح إذ «أظهر مجده وآمن به تلاميذه». واقتياد النفوس إلى الله أمر يطيب لله ويلتقي مع مشيئته الخلاصيّة. وبالتالي، فشفاعة العذراء تستجاب لحسن نتائجها المتكاملة مع الإرادة الألهيّة. بل استجيبت رغم أنّها كانت سابقة لميعاد تدبير الله: «لم تأت ساعتي بعد».

٥. ونعود إلى رسائل عديدة لأمّنا العذراء إلى دون غوبي، مؤسّس الحركة الكهنوتيّة المريميّة لمواجهة مخطّط الشيطان. وإحداها في ريو دو جانيرو في ١٩٩٥/٩/٢٩ (كتاب «إلى الكهنة، أبناء العذراء الأحبّاء» ص ٩٨٧)، إذ قالت حول نهاية الأزمنة: «كم من المرّات قد تدخّلت لأؤخّر دائمًا بدء الامتحان الكبير، لتطهير البشريّة التي امتلكتها وسيطرت عليها الآن قوّات الشرّ. ستُقصّر الأزمنة». فبفضل شفاعة أمّنا العذراء، أرجأ الله الآب الاستحقاق الكبير لعدالته وقصّر أيّام المحنة التي أنبأت بها رؤيا يوحنّا. ولعلّ هذه الشفاعة وفعاليّتها في إرجاء ساعة الدينونة الرهيبة، هي التي جعلت المسيح يقول: «فأمّا ذلك اليوم وتلك الساعة، فما من أحد يعلمهما لا ملائكة السماوات ولا الابن إلاّ الآب وحده» (متّى ٢٤: ٣٦). أي لأنّه يترك المجال لشفاعة أمّنا العذراء: فكما عجّلت في إتيان ساعته، فإنّها أجّلت ساعة الدينونة. وأنبأ يسوع عن ذلك بقوله: «من أجل المختارين ستُقصّر الأيّام» (متّى ٢٤: ٢٢). وصيغة المضارع المجهول «ستُقصّر»، دلالة واضحة بأنّ تلك الأيّام هي، أساسًا، طويلة، لكنّها «ستُقصّر» لسبب محدّد: من أجل المختارين. ولم يقل المسيح إنّها «أيّام قصيرة بطبيعتها». وهذا تأييد، قبل ألفي سنة، لرسائل أمّنا العذراء وتأسيسها «الحركة الكهنوتيّة المريميّة» وجماعات الصلاة، أي «المؤمنين المختارين».

رابعًا. الابن البكر وإخوة يسوع: في الناصرة «أخذ يسوع يعلّم في المجمع، فدهش كثير من الذين سمعوه وقالوا: «من أين له هذا؟... أليس هذا النجّار ابن مريم، أخا يعقوب ويوسى ويهوذا وسمعان؟ أوليست أخواته عندنا ههنا» (مرقس ٦: ٢-٦). فيتمسّك أعداء بتوليّة العذراء وكون يسوع ابنها الوحيد، بكلمتي «إخوة وأخوات»، «ويتواضعون» إلى درجة الظهور مظهر الجاهلين للكتاب المقدّس والمجتمع اليهوديّ، رغم أنّهم يتباهون، في مواقف أخرى أدقّ وأصعب، بأنّهم يعرفون الكتاب غيبًا، فيزعمون: «يسوع لم يكن الابن الوحيد لأمّه». فجوابنا:

١. عبارة «إخوة» لم تكن محصورة بالأولاد من نفس الأب والأمّ، بل كانت تشمل الأقرباء عمومًا. ونكتفي بمرجع واحد: إذ خرجت نار وأحرقت ناداب وأبيهو ولدَي هارون، «دعا موسى ابني عزّيئيل عمّ هارون وقال لهما: تقدّما فاحملا أخويكما» (الأخبار ١٠: ٤). فوفقًا لدرجة القرابة بينهم، هذان هما ابنا عمّ والدهما (بدرجة القرابة الخامسة). ومع ذلك سمّاهما موسى «أخويكما».

٢. حتّى أبناء هذه البدع والطوائف، ينادون أولاد جماعاتهم بعبارة «أخي». فهل يعني ذلك أنّ أمّ كلّ واحد منهم أنجبت كلّ هذه المجموعة؟!

٣. قال مرقس (١٥: ٤٠ و٤١) «وكان أيضًا هناك (عند الصليب) بعض النسوة ينظرن عن بعد. منهنّ مريم المجدليّة، ومريم أمّ يعقوب الصغير ويوسي، وسالومة» ويوضح متّى (٢٧: ٥٦) «منهنّ مريم المجدليّة، ومريم أمّ يعقوب ويوسف، وأمّ ابني زبدى».
إذن، أتى التفصيل عن أسماء «إخوة يسوع» وأمّهاتهم، وهنّ غير أمّه مريم العذراء، فنعجب كيف يتجاهلون هذا النصّ الواضح؟

٤.غنيّ عن القول إنّه لو كان لمريم العذراء أولاد غير يسوع، لما كان عهد برعايتها إلى يوحنّا بن زبدى، أخي يعقوب (يوحنّا ١٩: ٢٧).

٥. في عدّة مواقع، ورد اسم يوسف على أنّه «أبو يسوع». فقالت له أمّه: «يا بني لِمَ فعلت بنا ذلك؟ فأنا وأبوك نبحث عنك». (لوقا ٢: ٤٨) ولم تقل له: «أنا ومربّيك» أو «أنا ومدبّر عائلتنا»... بل استعملت عبارة «أنا وأبوك»، رغم أنّها أدرى الناس بأنّ يوسف ليس أبا يسوع؛ ما يؤكّد الحرص على المظاهر الاجتماعيّة، كما على مظاهر الشريعة وعدم إعطاء التسمية معناها الحرفيّ.

٦. ويقرأون لوقا (١: ٧ و٢٢ و٢٣) «فولدت ابنها البكر»... فصعد الأبوان بالطفل إلى أورشليم، لكي يقرّباه للربّ، عملاً بما في توراة موسى: «كلّ ذكر بكر يدعى مقدّسًا للربّ». فيسترسلون إلى فتوى لغويّة: «ابنها البكر يعني أنّه كان لها أولاد آخرون». مع العلم أنّ كلمة بكر، لغةً، لا توجب حتمًا أن يكون بعده ثان وثالث... صحيح أنّ البكر يعني أحيانًا الأوّل الذي يليه آخرون، لكنّ البكر يكون الوحيد إذا لم يأت بعده أحد، ويقال له دائمًا البكر.

ونسألهم: عندما يتزوّج شخصان من جماعتهم، أو من اليهود، وينجبان ولدًا، ماذا يفعل أبواه؟ ألا يقدّمانه للربّ في الموعد المحدّد، أم ينتظران: فإذا أنجبا ولدًا آخر، يبادران لتقديم الأوّل باعتباره «البكر». وإذا لم ينجبا سواه، هل يقولان للربّ: ولدنا ليس «بكرًا» إنّه «وحيد»، فلا يتوجّب علينا أن نقرّبه لك لأنّه لا يدعى مقدسًا للربّ.

٧. بالمناسبة نذكر حادثة تقول: ارتدّ أحد الموارنة إلى جماعة لا تولي أمّنا العذراء الإكرام الذي تستحقّه. وظلّ على علاقة مع أنسبائه. وكان الجدال يدور بينهم حول أهميّة العذراء. وذات يوم دعاه أحدهم وأصرّ عليه أن يحضر والدته معه، كما دعا حشدًا من أطفال وأولاد أقربائه. وقال لزوجته: «بالغي في الضيافة. لكن احرصي دومًا أن تقدّمي لجميع الحاضرين كبارًا وصغارًا، قبل والدة (المرتدّ)». وهكذا حصل. فانتفض المرتدّ غاضبًا وثائرًا لعدم إكرام والدته. فقال له قريبه: «ولو! ما دمتم تزعمون أنّ العذراء- وبالتالي كلّ أمّ- هي مجرّد إناء يحمل الولد تسعة أشهر، فما لك ولها بعدما ولدتك؟!»، فاتّعظ وعاد إلى مارونيّته. ونحن نضيف: إذا كان الشخص العاديّ يغالي في إكرام والدته، فهل يتصوّر نفسه مفاخرًا يسوع يوم الدينونة: «كنت أفضل منّي في تكريم والدتي»، فيما لو لم يكن المسيح يعطي والدته إكرامًا مميّزًا؟

٨. وبالرجوع إلى مرقس (١٠: ٣٠-٤٠) نقتطع «ودنا إليه يعقوب ويوحنّا ابنا زبدى... قالا له: امنحنا أن يجلس أحدنا عن يمينك والآخر عن شمالك في مجدك»... فقال لهما يسوع: «إنّكما لا تعلمان ما تسألان... وأمّا الجلوس عن يميني أو شمالي، فليس لي أن أمنحه، وإنّما هو للّذين أُعدّ لهم».

وبثقة نسأل: من هو أجدر من العذراء مريم أن تجلس إلى يمين ابنها (باعتبار أنّه هو جالس إلى يمين الآب، فيكون الله الآب عن شماله). فأمّ الملك هي أقرب إليه من سواها.

خامسًا. «مَن أمّي ومَن إخوتي»:

ويتمادون في قراءة مرقس (٣: ٣١- ٣٥) إذ قيل ليسوع: «ها إنّ أمّك وإخوتك في الخارج يطلبونك». قال: «مَن أمّي ومَن إخوتي؟... العامل بمشيئة الله هو أخي وأختي وأمّي»، فيتمادون: كانت مناسبة ليسوع ليكرّم أمّه، لكنّه بادرها بالمجافاة. ونجيب:

١. الصفة التي أعطاها المسيح كشرط ليكون المرء «أمّه وأخته وأخاه»، «العمل بمشيئة الله»، هي كاملة في مريم العذراء، لأنّها الأكثر عملاً وتسليمًا لمشيئة الله. وبهذا تستحقّ الإكرام أكثر من مجرّد كونها أمّه فيما لو كانت رافضة للمشيئة الإلهيّة.

٢.نعود إلى متّى (٣: ٩) إذ قال يوحنّا المعمدان للفرّيسيّين والصدوقيّين: «لا يخطر لكم أن تعلّلوا النفس فتقولوا: «إنّ أبانا هو ابراهيم». فإنّي أقول لكم إنّ الله قادر على أن يخرج من هذه الحجارة أبناء لابراهيم». أي إنّ استحقاقات المرء لا تنبثق من مجرّد كونه ابن ابراهيم، بل ينبغي أن «يثمر ثمرًا يدلّ على التوبة» (متّى ٣: ٨). وهكذا استحقاقات أمّنا العذراء.

٣. مَكْرُماتٌ ونِعَمٌ غزيرة انبثقت من التعبّد لمريم العذراء التي تقود النفوس إلى المسيح، بدءًا بالمسبحة الورديّة، إلى الأيقونة العجائبيّة، فثوب سيّدة الكرمل... كلّها منارات مريميّة أثبتت دورها الفاعل في ترسيخ الإيمان والتماس النعم والعطاءات للمؤمنين.

٤. ظهورات مريم العذراء ورسالتها في عدّة أمكنة، ومنها فاطيما (البرتغال) في ١٣ تشرين الأوّل ١٩١٧، حاملة الطفل يسوع على ذراعيها، دليل واضح على أنّ يسوع الإله، ما زال يعتبر نفسه مرتبطًا بالبنوّة بأمّه العذراء، رغم انقضاء ألفي سنة على ولادته وطفولته وعودته إلى مجده السماويّ. «ومن له أذنان سامعتان فليسمع»، وعينان مبصرتان فليدرك علامات السماء ونداءاتها قبل فوات الأوان.

٥. لو كان دور العذراء في مسيرة الخلاص مقتصرًا على تأمين ولادة المخلّص، لكان توفّاها قبل أن يبدأ التبشير، وما تركها تعاني ويلات الجلجلة؛ خصوصًا أنّ المسيح، خلال كلّ إقامته على الأرض، كان يواسي المتألّمين ويشفي الأسقام، ولم يقم بأيّة أعجوبة سلبيّة (كأن يضرب بعلّة أو يميت أيّ شخص أساء إليه) بينما الرسل فعلوا ذلك (أعمال ٥: ٥ و٩). أمّا تركه العذراء تتجرّع آلام الثكل ومعاناة مصاعب الحياة، بعدما جعل «افتتاح» بيان مجده على يدها (عرس قانا الجليل)، فدليل على

أنّها شريكته في الفداء وفي رعاية الخطوات الأولى للبيعة، ما جعلها تستحقّ المزيد من الإكرام.

وأختتم مستعيدًا بعض ما جرى معي: العام ١٩٩٤ رغبت أن أشيّد مزارًا لأمّنا العذراء (سيّدة لورد) في بيتنا في كوكبا. وسعيت لشراء تمثال متنقّلاً من الأشرفيّة حتّى البترون، فلم أعثر على ما يناسب (بارتفاع متر وبودرة رخام). ولم أصدف إلاّ تمثالاً ضخمًا من الجفصين في محلّ في سنّ الفيل. وبالاستعلام عن ثمن التماثيل بشكل عامّ، أُعطيت أرقامًا متناقضة ومتباعدة. وحاول أحدهم إقناعي بتمثال آخر للعذراء فتردّدت... ثمّ رأيت العذراء في الحلم قرب المزار تتّجه نحوي، فسألتها: أيّ تمثال تريدين؟ فأجابتني ملامسة خدّي بيدها: «لورد، لورد». وسألتها: أين أجده؟ فقالت: «مطرح ما برمت». وتابعت أسئلتي: وكم ثمنه؟ فأجابتني: «١١».

ولم أفقه معنى «١١». وعدت إلى محلّ سنّ الفيل، وإذا بهم يسعون لاستيراد تماثيل من إيطاليا (مصنوعة من résine) وأقنعوني بجودتها. فطلبت أحدها. وكانت المفاجأة عندما تسلّمت التمثال أنّه من بودرة الرخام وليس من رازين!

ومساء ١١ شباط ٢٠١١، سال الدم من أنفي. فأسرعت لقياس ضغطي بالآلة الزئبقيّة. وبوصول الضغط العالي إلى العشرين،

توقّفتُ صعودًا، وبلغ الضغط المنخفض ١٢. وانتقلت إلى المستشفى حيث اعتدل ضغطي، فكان الرعاف سبيلاً لإنقاذي من جلطة خطيرة. والطبيبة المعالجة وصفت لي دواء للضغط ونصحتني بالتوقّف عن تناول الأسبرين. وصباح السابع من تشرين الأوّل (عيد سيّدة الورديّة)، بدأت تتكوّن جلطة دماغيّة تطوّرت طوال اليوم، ولم يخطر ببالي أنّها «جلطة». وبانتقالي للمستشفى تدهورت حالتي لحدّ الشلل النصفيّ يسارًا... وتماثلت للشفاء بسرعة عجائبيّة. وبعد ١٦ سنة أدركت أنّ «الثمن ١١» كان إنقاذي يوم عيد سيّدة لورد (شفيعة المرضى ١١ شباط)، ورافقتني رعايتها أيّام محنتي معوّضة عن «غبائي الطبّيّ» باستدراك الجلطة، فجعلتها من نوع «فالج عالج» بدلاً من «فالج ما تعالج».

شكراً لأمّنا العذراء «وصلني أكثر من حقّي».

د. ديزيره سقّال

«أنشودة المطر» و«الأرض الخراب»

. قصيدة «الأرض الخراب»: تُعدّ قصيدة «الأرض الخراب» للشاعر الإنكليزيّ ت. س. إليوت إحدى قمم أعماله الشعريّة، من جهة، وعملاً من أهمّ الأعمال الشعريّة التي عرفها الغرب في القرن العشرين. وقد نشرها الشاعر عام ١٩٢٢ في مجلّة «المعيار» Criterium التي كان يرئس تحريرها.

والقصيدة مستوحاة من كتاب جيسي ويستن «من الطقس إلى الرومانس» From Ritual to Romance حيث تكلّمت على أسطورة الكأس المقدّسة، ومفادها أنّ كأس العشاء السريّ للمسيح قد اختفت لأنّ حراسها لم يكونوا أطهارًا، فحلّت اللعنة بالأرض، وانحبست عنها المياه، وأصيب الملك بالعقم. لهذا صار على أحد فرسان الطاولة المستديرة (ويدعى بارسيفال) أن يقوم برحلة إلى الكنيسة الخطرة، حيث عليه أن يَثبت أمام إغراءات الشيطان، محافظًا على نقاء نفسه، لتظهر له الكأس، فيعود بها إلى الأرض ويرفع اللعنة عنها.

واستعمل إليوت هذا الرمز بطريقته الخاصّة، وبشكل تناصّ، لينقل مشكلة الحضارة المعاصرة في أوروبا، إذ إنّه آمن بأنّ هذه الحضارة هي في طريقها إلى الموت لأنّها ابتعدت عن الإيمان وفقدته، ولا خلاص لها إلاّ بالعودة إليه.

وقد استعمل إليوت تقنيّات ثلاثًا أساسيّة خاصّة:

١. الأولى تقنيّة المدرسة التصويريّة التي تشبه المدرسة الرمزيّة، ولكنّها تركّز على الصور، معتمدة مبدأ «البديل الموضوعيّ»، وذلك أنّ هذه الصور هي البديل الموضوعيّ للمشاعر المتلاحقة التي ينقلها الشاعر. وتصير القصيدة أحيانًا لوحات عديدة، تبدو، للوهلة الأولى، منفصلة عن بعضها، غير أنّ القراءة المتأمّلة تُظهر أنّ ثمة خيطًا رهيفًا يربطها ببعضها.

٢. والثانية تقنيّة الأسطورة، حيث عمد إلى استعمال الأساطير رموزًا في نصّه. وفي هذا المجال، أشار إليوت نفسه، في بعض هوامش قصيدته، إلى أنّه تأثر بالسير جيمس فرايزر في كتابه «الغصن الذهبيّ» The golden bough —وهو مجلّد ضخم يتناول فيه أساطير الشعوب القديمة، وخصوصًا أساطير الخصب عند القدماء، وأبرزها أسطورة أدونيس وتموّز-. وقد ضمّن إليوت قصيدته باستمرار هذا الرمز الحيويّ، وأظهره بأشكال مختلفة، بانيًا عليها مسألة الخصب.

٣. والثالثة تقنيّة التضمين، حيث ضمّن قصيدته حشدًا هائلاً من التراث الأوروبيّ خصوصًا، وغير الأوروبيّ عمومًا، معتبرًا أنّ على الشاعر الأوروبيّ أن يشعر بحضور تراثه عبر التاريخ، من باندار حتّى اليوم، وهو يكتب قصيدته. ومن تضمينات إليوت أيضًا اللغات الأجنبيّة، حيث استعمل النماذج الأدبيّة (وأحيانًا غير الأدبيّة) بلغاتها الأجنبيّة، فجاءت القصيدة تحتوي على ثماني لغات: الإنكليزيّة، والفرنسيّة، والألمانيّة، واليونانيّة، واللاتينيّة، والروسيّة، والإيطاليّة، والسنسكريتيّة (الهنديّة القديمة)، ليصير النصّ بالغ الصعوبة، ولا يمكن فهمه من غير الحواشي التي وضعها إليوت نفسه في آخر القصيدة، ويبلغ حجمها ثلث العمل تقريبًا.

وتتألّف القصيدة من خمس توقيعات: ١. دفن الموتى The burial of the dead -٢. ولعبة شطرنج A game of chess -٣. وعظة النار The fire sermon —٤. والموت بالماء Death by water— ٥. وما قال الرعد What the thunder said. والقصيدة تتكامل في توقيعاتها (التي تبدو كلّ توقيعة منها للوهلة الأولى قصيدة مستقلّة عن الأخرى)، لتنقل الحسّ المأسويّ الذي يطبع إليوت في نقله للحضارة الأوروبيّة المعاصرة.

والفكرة الأساسيّة هنا هي أنّ إليوت ينعى حضارة ما بعد الحرب العالميّة الأولى، معتبرًا أنّ المجتمع الغربيّ قد فقد الروح، فتقطّعت العلاقات بين الناس، وصار المجتمع قائمًا على العلاقات المنفعيّة. والخصب الذي يتكلّم عليها إليوت هنا هو الخصب الروحيّ بامتياز، لأنّ حياة الإنسان، بغيابه، صارت في حال عقم، وصار الغرب أرضًا خرابًا، أشبه بالصحراء التي تسمع صوت المطر، ولكنّه لا يهطل عليها.

ويستعين إليوت بأساطير الخصب التي نهلها من كتاب فريزر المشار إليه («الغصن الذهبيّ»)، وخصوصًا القسم الذي يتناول فيه أسطورة أدونيس أو تموّز، وهذا تحديدًا هو القسم الذي عرّبه جبرا إبراهيم جبرا ونشره، واطّلع السيّاب عليه.

ويبقى عنصر المطر في قصيدة «الأرض الخراب» أساسيًا، لأنّ انحباسه عن الأرض هو الذي يصيبها بالعقم، والتوقيعة الخامسة هي التي تعكس مشهد المطر المنحبس، وفيه يحشد إليوت عددًا من الرموز الدينيّة المسيحيّة، وغير الدينيّة، ويستحضر رحلة المسيح إلى عمواس، كما يستحضر «الأوبانيشاد» الهنديّة Upanishad، وهي مجموعة ترانيم دينيّة سنسكريتيّة بوذيّة.

وفي القصيدة أيضًا يركّز إليوت على رمز الماء ودورته الحياتيّة، رابطًا بينها وبين دورة الحضارة في المجتمع الأوروبيّ، فيرى أنّ رحلة الماء تكون من الغيم، إلى المطر، إلى النهر فالبحر، ودورة الحضارة الأوروبيّة تقوم على أربع مراحل أيضًا، هي: القرون الوسطى، فالنهضة، فالقرن الثامن عشر (الثورة الصناعيّة)، فالقرن العشرون (وهو عصر انحطاط الحضارة)، وهي فكرة الحركة الحضاريّة الأوروبيّة التي نجدها نفسها تقريبًا عند عالم الاجتماع الألمانيّ دوايت شبنغلر.

وبطل القصيدة شخصيّة أسطوريّة يونانيّة، هي تايرزياس (يظهر في التوقيعة الثالثة من القصيدة)، وهو رجل— امرأة (أي رجل هو، في آن، ذكر وأنثى)، قيل إنّ «جوبيتر» سلبه القدرة على الرؤية انتقامًا منه، فأعطته «فينوس» المقدرة على رؤية المستقبل، فهو بذلك عرّاف. وتايرزياس يمثّل الذكور والإناث، وبذلك كلّ الجنس البشريّ. ومع أنّ إليوت يجعله الشخصيّة الرئيسة، فهو في القصيدة مجرّد شاهد على ما يحصل، ولا يتدخّل في الأحداث، فكأنّ إليوت يريد أن يقول لنا إنّ الإنسان في الغرب شاهد على التحوّلات الخطيرة التي تسحب حضارته نحو الموت، ولا يتدخّل ليفعل شيئًا، وبهذا فهو يساعد على انهيارها.

والبعد الروحيّ ظاهر في القصيدة، بمعنى أنّ هدفها الأخير هو الدعوة إلى عودة الإنسان إلى أعماقه الروحيّة لمواجهة طغيان الحضارة الماديّة، هذه الحضارة التي حوّلته إلى آلة (يصوّر هذا خصوصًا في التوقيعة الثالثة).

٢. السيّاب وتأثّره بـ«الأرض الخراب»: بالعودة إلى ديوان «أنشودة المطر» للسيّاب، نجد تأثير إليوت فيه في أمرين اثنين:

١. الأوّل: منهجيّة التضمين، ولاسيّما التضمين الأسطوريّ منه.

٢. موضوع القصيدة نفسه، وبعض الرموز التي وردت فيها، وخصوصًا رمزي تمّوز وعشتار، وبالتالي رموز الخصب.

ويمكننا اعتبار قصيدة «أنشودة المطر» أكثر قصائد الديوان تأثّرًا بقصيدة إليوت المذكورة. ولعلّ التوقيعة الخامسة من أنشودة المطر («ما قال الرعد») هي أكثر التوقيعات تأثيرًا في السيّاب، ولكنْ من غير أن تكون التوقيعات الأخرى بعيدة عن التأثير فيه في مواقع منها. وهنا نلفت إلى أنّ عددًا من النقّاد زعم أنّ السيّاب قد تأثّر في هذه القصيدة بقصيدة للشاعر الإنكليزيّة إيديث سيتويل، وعنوانها «لا يزال المطر يهطل» Still Falls the Rain. إلاّ أنّنا لا نظنّه متأثّرًا بهذه القصيدة لأنّ مضمونها، والأبعاد المسيحيّة العميقة التي فيها، والسوداويّة المطبقة التي عرفتها، تختلف عمّا في قصيدة السياب اختلافًا جوهريًا؛ أمّا العنوان المشترك فقد يكون من قبيل المصادفة، أو عن عمد، من غير أن يعني هذا أنّ السيّاب تأثّر بمضمون القصيدة الأجنبيّة. وفي دراسة مقارنة لهذا الموضوع يمكننا أن نلاحظ أنّ السياب لم يتأثّر بكامل التوقيعة الخامسة، بل كان تأثّره في القسم الأوّل منها خصوصًا. وهذا تعريب للقسم المذكور:

«بعد أن علا نور البطّاريّات الأوجهَ المتعرّقةَ،
بعد أن خيّم الموت الجليديّ على الحدائق،
بعد أهوال الموت في الأماكن الحجريّة
والصراخ والنحيب
والسجن والقصر،
وهزيم رعد الربيع فوق الجبال البعيدة،
هو «مَن كان حيًّا... مَيتٌ الآن»
نحن «الذين كنّا أحياء متنا الآن»
بصبر قليل.
لا ماء هنا، بل صخر فقط
صخر ولا ماء، والطريق الرمليّة
الطريق الرمليّة التي تتلوى صعُدًا بين الجبال،
وهي جبال صخر بلا ماء،
لو كان هناك ماء لتوقّفنا وشربنا،
فالعرق جافّ والأقدام في الرمل.
لو كان ثمّة ماء بين الصخر
تلك الأسنان النَخِرة لفم الجبل الميت التي لا تستطيع حتّى أن تبصق.
هنا لا يستطيع المرء إلاّ الوقوف أو الرقاد أو الجلوس،
حتّى الصمت غير موجود في الجبال،
بل رعد جافّ، خالٍ من المطر.
حتّى العزلة لا وجود لها في الجبال،
بل وجوه متجهّمة تزدري وتزمجر
في أبواب منازل طينيّة متصدّعة.
لو كان ثمّة ماءٌ ولا صخر،
لو كان ثمّة صخرٌ وماءٌ أيضًا،
ماء...
نبع...
بركة بين الجبال،
لو كان ثمّة صوتُ الماء فقط
لا الزيز
وغناء الحشائش الجافّة
حيث العصفور الناسك يغنّي فوق أشجار الصنوبر
تويت تويت تويت...
لكن ليس ثمّة ماء.»
نجد في هذا القسم من التوقيعة مسألة انحباس المطر وبوار

الأرض بفعل اللعنة التي حلّت بالأرض الخراب، وهي المسألة المحوريّة في قصيدة «أنشودة المطر» للسيّاب. فالموضوع مستوحًى من هنا، لكنّ التفريع والمعالجة مختلفان، وكذلك طبيعة الكتابة الشعريّة؛ فـ«أنشودة المطر» لا تحتوي على التعقيد والصعوبة الرمزيّة التي في «الأرض الخراب»، ولا على كثافة التضمينات التراثيّة التي نجدها في قصيدة إليوت.
ونقاط الالتقاء بين القصيدتين تمتدّ، كما سبق أن ذكرنا، إلى أبعد من التوقيعة الخامسة، ولا تتوقّف عندها. فرمزا تمّوز وعشتار اللذان نعثر عليهما في القصيدتين منتشران في «الأرض الخراب» في التوقيعات، وهذا ما سنبيّنه.
يبدأ إليوت قصيدته بالمقطع الآتي: «نيسان أقسى الشهور...» واللافت هو غرابة هذه البداية، لأنّ نيسان عادة يكون من أجمل الشهور بعد الأشهر القاسية الشتائيّة. ولكنّ تسويغ هذا يتّضح لنا لاحقًا بعد أن يذكر إليوت سبب ما يقول:
«...يُخرِج
اللَيلَكَ من الأرض الموات، يمزج
الذكرى بالرغبة، يحرّك
خامل الجذور بمطر الربيع.»
وهكذا نعرف أنّ قسوة هذا الشهر مردّها إلى كونه يُحيي الذكريات والرغبات، وبعضها يكون ممزوجًا بالحزن. وهي معاناة تتكرّر في كلّ سنة عندما يعود هذا الفصل، ويبدأ الربيع معه. ومعنى هذا أنّ إليوت قد قلب الاستعداد الرومنطيقيّ المتعلّق بشهر نيسان عند الناس. ونجد مثل هذا في بعض مقاطع «أنشودة المطر» للسيّاب، حيث يقول:
«أتعلمين أيّ حزن يبعث المطر
وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر،
وكيف يشعر الوحيدُ فيه بالضياعْ
بلا انتهاءٍ، كالدم المراقِ، كالجياعْ
كالحبّ، كالأطفال، كالموتى... هو المطرْ.»

فنحن نعرف أنّ المطر عند الشرقيين، ولاسيّما عند الذين يعيشون في بلد تمتدّ فيه الصحراء، يمثّل الخير والبركة، ولكنّه يصير هنا باعثًا على الحزن والألم، لأنّه يمثّل له مطرًا عقيمًا، لا يخصب الأرض- والمطر رمز للثورة في القصيدة- ويسفك الطاغية خلاله دمَ الأبرياء، وهو ينقل دورة حياة كاملة (الحبّ= الزواج/ الأطفال= الولادة/ الموتى= نهاية العمر). وإن يكن التأثير غير ظاهر في مستهلّ الأمر، ولكنّه موجود بلا شكّ. من جهة أخرى، فإنّ عودة المطر تبعث الذكريات، بكلّ ما فيها من ألم وحزن دفينين، وهنا يلتقي مع أصل الرمز المذكور عند إليوت.

من جهة ثالثة يمكننا أن نقول هنا إنّ السيّاب يحاول أن يظهر أنّ البعث ومخاضه هما أقسى من الموت، وأنّ معاناته مريرة، لأنّه لا يأتي بسهولة.

من جهة ثانية، نجد السيّاب يفتتح قصيدته بتصوير المرأة: «عيناكِ غابتا نخيل ساعة السحر...» وهذه المرأة ترتبط بالطبيعة («عيناكِ حين تبسمان تورق الكروم»)، وتمثّل حياة الطبيعة، فيربطها بعشتار. ومن المعروف أنّ عشتار كانت حبيبة أدونيس في الأسطورة، وكانت أيضًا أمّه، ما نجده ظاهرًا في المقطعين اللاحقين، لأنّ السيّاب يتكلّم على «نشوة الطفل إذا خاف من القمر»، ثمّ على نفسه حين كان طفلاً وماتت أمّه (في المقطع الثالث) وينتظر انبعاثها (وهنا يربطها بعشتار). وبذلك يكمل العلاقة بين الأمّ وابنها، وبين رمزي الخصب المحوريين في القصيدة: تمّوز وعشتار. وهما رمزان أساسيّان في «الأرض الخراب» أيضًا.

من جهة ثانية، فإنّ القمر الذي راح ينأى عن الشرفتين في مستهلّ القصيدة لا يختلف عن المطر الذي راح ينأى عن الأرض، ليحلّ محلّه المطر العقيم السلبيّ الذي ينتشر في الحركة الأولى من القصيدة. (أي من السطر ١ حتّى السطر ٥٢)، وهو يتحوّل إلى مطر حقيقيّ في نهاية القصيدة («ويهطل المطر»). والصراع الذي يظهر بين المقطعين الأوّل والثاني (الذي يبدأ بالسطر ٧) يتمثّل في صورة الأرض التي يخصبها المطر («عيناكِ حين تبسمان تورق الكروم...») وصورة البحر الحزين الممتدّ (وهو بحر الحياة) وفيه الموت والميلاد («والموت والميلاد والظلام والضياء»)، هذا البحر الذي يوقظ الحزن في قلب الطفل (والطفل، كما رأينا، يرتبط بأدونيس).

من جهة ثانية، نجد صدى التوقيعة الرابعة من «الأرض الخراب» في قصيدة «أنشودة المطر». فهذه التوقيعة تتكلّم على «الملاّح الفينيقيّ الغريق» الذي يدعى «فليباس»، وهي توقيعة قصيرة جدًا، جاء فيها:

«فليباس البحّار الفينيقيّ الميت منذ أسبوعين،
نسي صراخ النورس، وتماوج البحر العميق،
والربح والخسارة.
تيّار تحت سطح الماء
التقط عظامه هامسًا. وبارتفاعه وهبوطه
مرّ على مراحل هرمه وشبابه
داخلاً الدوّامة.
أُمَمِيًا أو يهوديًا
أنتَ يا مَن يدير الدفّة وينظر باتجاه الريح
تأمّل «فليباس» الذي كان ذات يوم وسيمًا وطويلاً مثلك.»

و«فليباس» هذا الذي يتكلّم إليوت عليه يرتبط بأدونيس إله بيبلوس وقبرص القديمتين؛ ففي خلال احتفالاتهم بعيده، كانوا يحملون تمثاله محاطًا ببواكير الفواكه، ويلقون به في الماء، فهو «ابن المياه العميقة»، كما دعاه بعضهم. وهذا العمل الطقسيّ يسبق انبعاث الإله في الأسطورة، ما يعني أنّ غرق الإله هو ضرب من ضروب الولادة، وعودة إلى ماء الرحم. وقد استعمل السيّاب هذه الصورة في سياق آخر، فقال:

«أصيح بالخليج: «يا خليجْ...
يا واهبَ اللؤلؤ والمحارِ والردى!»
فيرجعُ الصدى
كأنّه النشيجْ:
«يا خليجْ
يا واهبَ المحار والردى.»
وينثر الخليج من هباته الكِثارْ
على الرمال رغوة الأجاج والمحارْ
وما تبقّى من حطام بائس غريقْ
من المهاجرين ظلّ يشرب الردى
من لجّة الخليج والقرارْ...»

فالمهاجر الغريق يشبه الإله الغريق (يمثله «فليباس الفينيقيّ») الذي نجده في توقيعة إليوت، وارتباط كلا الرمزين بالانبعاث حتميّ، وتعطّله واضح عند السيّاب، كما أنّه معطّل عند إليوت. ولكن الفرق في مستوى هذا الانبعاث، فعند السيّاب هو انبعاث على مستوى الوطن، في حين أنّه عند إليوت على مستوى

الحضارة الغربيّة كلّها. أفق الرمز مختلف، ولكنّ الرمز بحدّ ذاته مشترك.

ومثل هذا، نجد في توقيعة إليوت الخامسة صوت الرعد يتردّد في آخرها، ولكن بصوت ينقل العِبَر الإنسانيّة الثلاث التي يريد إليوت أن يقولها، وهي مأخوذة من الأوبانيشاد الهنديّة باللغة السنسكريتيّه: أعطوا Datta ، تعاطفوا Dayadhvan ، سَيطِروا Damyata . وهي الأصوات الوحيدة التي نجدها في القصيدة مرتبطة بالمطر (التوقيعة الخامسة). هذه الأصوات تحوّلت مع السيّاب إلى أصوات متكرّرة تندّ عن صوت المطر العقيم المتكرّر في القصيدة (مطرٌ... مطرٌ... مطرٌ...) وكأنّه لازمة لها، ولهذا السبب أسماها «أنشودة المطر».

من جهة أخرى، نجد السيّاب متأثّرًا جدّا بتقنية إليوت الأساسيّة في «"الأرض الخراب» وهي التضمين. فالقصيدة تحتوي تضمينًا أسطوريًا أساسيًا، حيث نجدها تقوم على رمزين أسطوريين محوريّين، هما تمّوز/ أدونيس وعشتار/ عشتروت، يتجلّيان شيئًا فشيئًا عبر المشاهد: ففي المقطع الأوّل نجد امرأة يصف الشاعر عينيها، ثمّ يربطها بالطبيعة:

«عيناكِ غابتا نخيلٍ ساعةَ السحَرْ...
عيناكِ حين تبسمانِ تورقُ الكرومْ...»

ثمّ نجد تلك المرأة تتحوّل إلى أمّ في المقطع الثالث، حيث يقول:

«بأنّ أمّه التي أفاقَ منذ عامْ
فلمْ يجدْها، ثمّ حين لَجّ في السؤالْ
قالوا له: بعدَ غدٍ تعودْ...»

وهذه صورة مستوحاة من طفولة السيّاب نفسها، لأنّ أمّه ماتت وهو صغير، وكان مقيمًا مع والده في بيت جدّه، وحين كان يسأل عنها كانوا يقولون له إنّها تنام قرب التلّ- وفي هذا المكان مقابر آل السياب في جيكور-. ولا يلبث الشاعر أن يربط أمّه بالانبعاث، فيقول:

«لا بدّ أن تعودْ
وإنْ تهامسَ الرفاقُ أنّها هناكْ
في جانب التلّ تنام نومةَ اللحودْ
تسفّ من ترابها وتشرب المطرْ...»

معنى هذا أنّ الأمّ ترتبط بعشتروت التي تنزل إلى مملكة الموتى وتعود بحبيبها أدونيس. وفي الأسطورة أنّ أدونيس هو ابن عشتار أيضًا، كما سبق أن ذكرنا. ولا تلبث هذه الأمّ أن تتحوّل إلى وطن (هو العراق) حين يقول:

«ومقلتاكِ بي تطيفان مع المطرْ
وعبرَ أمواج الخليجِ تمسحُ البروقْ
سواحلَ العراقِ بالنجومِ والمَحارْ
كأنّها تهمّ بالشروقْ
فيسحب الليلُ عليها من دمٍ دِثارْ...»

هذ المشهد التضمينيّ يجعل المرأة — الأمّ وطنًا (أي أمّةً)، ويربط صورتها هنا أيضًا بالصراع والنضال، من خلال معاناة الموت والانبعاث (الصراع بين العينين اللتين تمسحان سواحل العراق بالنجوم والمحار، وبين الليل الذي يسحب عليها دثار الدم). وبذلك تمكّن السياب من تضمين الرمز بالطريقة التي عمد إليها إليوت لبناء قصيدة «الأرض الخراب». بل أكثر، فإنّ الرمز الذي استعمله إليوت نفسه هو الرمز الذي بنى عليه السيّاب قصيدته.

ومن التضمينات التي استعملها السيّاب أيضًا قصّة «ثمود»، حيث يقول:

«أكادُ أسمع العراقَ يذخر الرعودْ
ويخزن البروق في السهول والجبالْ
حتّى إذا ما فضّ عنها ختمها الرجالْ
لم تترك الرياحُ من ثمودْ
في الوادِ من أثرْ...»

وقصّة ثمود مع نبيّها صالح معروفة، وهي من القبائل البائدة التي نسج حولها المؤرّخون العرب قصّة مستوحاة من بعض ما جاء عنها في القرآن الكريم.

واللافت أنّ إليوت في تضميناته في «الأرض الخراب» يشير إلى

مصدر التضمين، في حين أنّ السيّاب لا يفعل هنا، لأنّه لا يستعمل التضمين كثيرًا، ويقيم قصيدته على تضمين رئيس، هو نفسه الفكرة المحوريّة في قصيدة إليوت، أي ما يمثّل فكرة الموت والانبعاث (أدونيس وعشتروت). ولا بدّ من أن نشير في هذا المجال إلى أنّ عشتار التي نتكلّم عليها (وهي إلهة بابليّة) تقترن بعشتروت (وهي إلهة فينيقيّة)، لأنّ صفة الأمومة ترتبط بعشتار الفينيقيّة، لا بعشتار البابليّة.

٣. نتيجة: نستنتج أنّ التفاعل بين شعر السيّاب وشعر إليوت قد أدّى إلى فتح باب جديد أمام قصيدة الشاعر العراقيّ. وقد اجتمعت في قصيدة «أنشودة المطر» ثلاثة مؤشّرات من التأثُّر:

١. الأوّل هو مسألة التضمين: فالسيّاب استعمل تقنية التضمين التي بنى عليها إليوت والتصويريّين (ولاسيّما عزرا باوند منهم أستاذ إليوت)، ولكنّه، في هذه القصيدة لم يعتمد التوقيعة، بل اكتفى بالتضمين الأسطوريّ؛ وكان هذا مستلهَمًا من رموز إليوت الأساسيّة في قصيدته، بدليل أنّ الرمز الأسطوريّ للخصب متواتر بقوّة في «الأرض الخراب»، وأنّ السيّاب قد قرأ ما ترجمه جبرا إبراهيم جبرا عن أدونيس أو تموز من كتاب «الغصن الذهبيّ» لفريزر، وهو مصدر أساسيّ استوحى منه إليوت وأشار إليه في هوامش القصيدة، إذ قال: «إنّ خطّة القصيدة، مع قدر كبير من رمزيّتها العرضيّة، هو ممّا استوحيت من كتاب الآنسة جيسي ل. وستن حول أسطورة الكأس المقدّسة: «من الطقس إلى الرومانس» (كمبردج). والواقع أنّني مدين بشكل يحملني على القول إنّ كتاب الآنسة وستن يوضح صعوبات القصيدة أفضل ممّا تستطيع هوامشي فعله، وأنا أشير بقراءته (إلى جانب المتعة الكبرى في الكتاب نفسه) إلى كلّ من يظنّ أنّ مثل هذا التوضيح يستحقّ العناء. وأنا مدين بشكل عامّ إلى كتاب آخر في علم الإنسان، كتاب له أثر كبير في جيلنا، وأعني به «الغصن الذهبيّ»، وقد استعملت منه خصوصًا الجزأين حول «أدونيس، أتيس، أوزيريس». إنّ من له معرفة بهذه الأعمال سيلمس فورًا في القصيدة بعض الإشارات إلى احتفالات الخصب.»

وفي حين أنّ إليوت قد ضمّن قصيدته ما لا يعدّ من أعمال التراث الأوروبيّ القديم والجديد، فإنّ السيّاب قد اكتفى بالتضمينين المشار إليهما بصورة خاصّة (أي رمزي عشتروت وأدونيس، وتموز)، ولهذا السبب لا نجده يشير إلى مسائل في حواشٍ كما فعل إليوت، فلا حاجة له إلى هذا.

٢ . والثاني أنّ السيّاب تمكّن من هضم ما تأثّر به في قصيدة إليوت الكبرى، وأعاد صياغته بطريقة خاصّة، فلم يأتِ مطابقًا لما في «الأرض الخراب». والتناصّ الحاصل هنا يختلف عن ذاك الذي نجده أحيانًا في بعض قصائد السيّاب، حيث ظهر نافرًا، ولم يُهضَم (ولاسيّما في بعض قصائده المبكرة).

٣. والثالث أنّ لغة إليوت في «الأرض الخراب» قد أثّرت في لغة السيّاب، فالشاعر الإنكليزيّ آمن بأنّ على الشاعر أن يضمّن قصيدته لغة الشعب، ولهذا السبب نجده يعمد في عمله إلى بعض الأغاني الشعبيّة وإلى بعض الحوارات العاديّة فيستعملها بلغتها الأصليّة. ونجد السيّاب، بالمقابل، يستعمل لغة بسيطة جدًّا في «أنشودة المطر» وتكاد تكون أحيانًا عاميّة.

د. جان نعّوم طنّوس

تجربة الحبّ في شِعر إيلي مارون خليل

مقدّمة:

تجربة الحبّ من أعمق التّجارب الذّرَويّة، تكاد تقارب حدّ الصوفيّة، ففيها تموت الذّات السُفليّة لتحيا الذّات العُلويّة، وبذلك تتخلّص النّفس من الوحشة والغربة، ومن عالم الصّراع والنّزاع، فلا يصير الإنسان إنسانًا إلاّ إذا نطق بكلمة «أنت»، وشعر بوحدة «النحن»، كما يقال[1]. فالحبّ يستثير أعمق شعورين جارفين هما الحنان والحنين، وبدلاً من توثين الأنا يتمّ تأليه المحبوب بعيدًا عن تيّار المجون الذي يذوّب المرأة في أمبراطوريّة النّرجسيّة، وبعيدًا عن تيّار العذريّة حيث القطيعة التّامّة بين الرّوح والجسد.

ولإيلي مارون خليل تجربة فريدة في شعر الحبّ، شكلاً ومضمونًا، بلغت ذروتها بابتعاده عن الموروث الشّائع، واستنطاقه المناطق القصيّة، وهناك تقبع أعمق النّوازع وأكثرها براءة. على أنّنا، في هذه العجالة، نؤثر أن نتناول نتاجين للشّاعر. في القسم الأوّل نتطرّق إلى ديوان «غدي مرصود عليكِ» معلّلين التّفرّد فيه، وفي القسم الثاني نتناول «متناثرًا في كلماتي» متأوّلين حالة الاتّحاد، وهي أرقى ما في الإنسان حيث يصبو إلى ما يتجاوز الإنفصال واليباس.

ألقسم الأوّل: ألحبّ في «غدي مرصود عليكِ».

في هذا الدّيوان يقلب الشّاعر المعادلة الذكوريّة القديمة، حيث يبدو الرّجل فاعلاً، أو جبّارًا، في حين تبدو المرأة كائنًا سلبيًّا منفعلاً أو منسحقًا، وربّما ظهرت أداة لذّة ولهو. والحقّ أنّ الحبّ نوع من المحو الجميل، محو الميول السّفليّة لتتمكّن الدّوافع العليا من الظّهور والبروز. إنّ في العاشق نقصًا لا يمتلئ إلاّ بالآخر، وهذا النّقص الكيانيّ الأصيل، مثل كلّ حالة «ضعف» خلاّقة تتولّد منها ينابيع القوّة، هو العذاب الجميل والاحتياج المضني، والظّمأ الذي لا يرتوي إلاّ بالحضور. وربّما تفاقم النّقص وبلغ حدّ عقدة النّقص، ولا تسلْ، عندئذٍ، عن المنازع الشّرّيرة المتفجّرة، كالولع بتعذيب الذّات، واللذّة المتأتّية من تدمير المرأة[2]. غير أنّ شاعرنا بعيد عن هذه الالتواءات لأنّ الحنين إلى الحياة يشتدّ في أعماقه عندما يعاني هذا النّقص الإلهيّ، وما هو إلاّ الصّلة الرّائعة التي تشدّ الأنا بالآخر والمطلق، وبدونه يدخل المرء كهف النّرجسيّة، ويعيش في ما يشبه توثين الأنا، أو تَضَخُّمها.

هكذا يصرح الشّاعر: «إرفعيني من الهاوية، أتقوّ. إرحميني، يا امرأة، يا غالية كالحياة والحبّ. هلّي أربح نفسي والعالم!» [3]. بعيدًا عن الحبيبة، العالم هاوية، والنّفس الحسّاسة بلا مصير، ومعها يمكن أن تكون الحياة لا مسوّغة وحسب، بل حلوة وشهيّة. وبوسع المرء أن يتغذّى بالحليب، إن كان طفلاً، لكنّه بالحبّ يذوق عسل السّعادة، ومن المحال أن يحبّ نفسه حبًّا عميقًا إلاّ إذا احتضنه الآخر. ولعلّ النّقص شرط لانبجاس مشاعر الحبّ. من هنا يداوي الشّاعر وحشة البلقع الذي فيه بارتمائه في أحضان المرأة لا الخالقة، مبدأ الخصب الرّوحيّ، تلك التي تسري فيه سَرَيان الرّبيع في الأرضى العطشى: «أريدك فيّ تزرعين بذور الخصب... أنا بين يديك طينة طيّعة، أتحوّل حتّى إلى بحيرة تثمر الهستيريا»[4]. أرأيت إلى هذا النّقص الجميل كيف يحدث تحوّلاً في الذات العاقر، الجديبة؟ فليست المرأة أنثى، بمعنى الشّهوة وحسب، وما هي رمز إلى التفاهم بين اثنين فقط. إنّها الأنثى التي تخلق الرجل، وتحوّله، وتزرع فيه نَفَس الحياة، وتُذيقه عسل الوجود. بها يتمّ الانتصار على الغربة، وتصير الدّنيا جمالاً وحلاوة، ولعلّها تمثّل أرقى مستوى من مستويات التّجارب الوجدانيّة العليا. وبدلاً من أن يكون الرجل دودةً تدبّ في صراع البقاء، يصبح عصفورًا تملأه غبطة ما بعدها غبطة. ولئن تطرّق بعض الشّعراء، كيوسف غصوب،

(١) زكريّا ابراهيم، «مشكلة الحبّ». مكتبة مصر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٠، ص ٥٣.

(٢) المازوشيّة والساديّة من أبرز التعقيدات النفسيّة عند بعض الشعراء، كنزار قبّاني تمثيلاً لا حصرًا.

راجع: جان نعّوم طنّوس: «صورة الزاني والزانية في الأدب العربيّ المعاصر». دار المنهل اللبنانيّ، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨، ص ١٦٧-٢٠٣.

(٣) إيلي مارون خليل: «غدي مرصود عليكِ». مكتبة الحرف، لا ط، ١٩٨٠، ص ١١.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٧.

إلى موضوع المرأة الخالقة(٥)، فإنّ إيلي مارون خليل يعلو به متقصّيًا حالاته، متتبّعًا تفاصيله، إلى حدّ تغدو الحبيبة معادلة للخصب الرّوحيّ، فهي التي تعطي الحياة، بيولوجيًا ونفسيًا، وتجعلها جديرة بأن تعاش، أقصد أنّها تعاش في أروع وأعلى قمم السّعادة، ولا سعادة بدون نقص، ولا حضارة، تاليًا، بدون هذا الضّعف السّاحر، علّة وجود الاختراعات والابتكارات. ولئن قلب الشّاعر المفاهيم الذكوريّة، فها هو يستعير اللغة الدينيّة (المسيحيّة تحديدًا) بغرض أن يلغي المعادلة القديمة: المرأة / الأفعى / الشرّ / الخطيئة / حوّاء الغاوية / باب جهنّم / سلاح الشّيطان... لقد أفسد بعض الزّهّاد العلاقة الأكثر صدقًا وبراءة حتّى إنّهم عادوا الجسد، وكرهوا العقل، وازدروا العواطف. ألم يقل أحدهم: «ألنّساء ملائكة في الكنيسة، شياطين في البيت، وقرود في السّرير»(٦). واشتطّ كاتون مجاهرًا: «إنّ المرأة وهم، فمظهرها جميل، لكنّ وصالها منفّر، وصحبتها قاتلة»(٧). وفي هذا المنحى قال القدّيس أغوسطينوس من غير أن يتخلّص من مانويّته القديمة: «يقضي النّظام الطّبيعيّ، عند البشر، بأن تكون النّساء خاضعات للرّجال، والأولاد للأهل. فمن العدل والإنصاف أن يكون العقل الأضعف خاضعًا للعقل الأقوى»(٨). أمّا إيلي مارون خليل فقد انتهك هذه المعادلة المشؤومة، وربّما عاد إلى الإنجيل الذي بارك العلاقة القدسيّة، وإذ به «يخضع» للمرأة، ولا يرى فيها عنصرًا شرّيرًا، بل كائن خيّر يمنح الخصب والخير والبركة. لكنّ الحبّ لا ينفي امكانيّة التّسامي sublimation، باعتراف فرويد نفسه، حين يكون التّسامي مشبعًا بالحبّ، من الحبّ الإلهيّ حتّى حبّ الحيوانات(٩).

ها هي الأفعى القبيحة التي طالما رذلها البنّاؤون تغدو عنده أفعى جميلة لأنّها تهب الحبّ وتحوّل القفر زهرًا: «يا امرأة. لماذا أنت هكذا؟ أفعى جميلة، تقطر السّمّ في بسمتها، فتقتل»(١٠). ولا يخدعنا المعنى الظّاهريّ في هذه العبارة لأنّ الأفعى أصابها التّحوّل، وكأنّ شاعرنا يعود إلى زمن

الميتولوجيّات حين كانت الحيّة مكرّمة بوصفها رمزًا للحكمة، وكان الجسد ممجّدًا بوصفه تجلّيًا للألوهة. ولذلك نقول إنّ هذا الصّنيع الشّعريّ وثنيّ/ مسيحيّ في آن واحد. هو وثنيّ بتخطّيه فلسفة الزّهّاد المتشائمة، وهو مسيحيّ بتضرّعه إلى الحبيبة كما يتضرّع إلى العذراء مريم. وفي هذا السّياق يبدّل من دلالة التفّاحة التي أهبطت آدم إلى أرض الشّقاء، فتصير عنده عودة إلى الفردوس: «أنتِ تفّاحتي المحرّمة. وأحبّ أنا أن أخالف الوصيّة. نعم الوصيّة لخير البشر. أعلم أنا، أنّكِ أنتِ، الخير لي، لا الوصيّة»(١١). ولعلّ إيلي خليل يخطئ هنا، فما من وصيّة، وإنّما هو تقليد موروث سرى في الحضارات حتى أفسدها. غير أنّه يلغي الهوّة بين الروح والجسد، كما يلغي الحرب الأهليّة بينهما، فلا يحبّ الجسد من جهة، وتحبّ الروح من جهة أخرى، وهو أمر نجده جليًا في شعر الياس أبي شبكة(١٢). وحدة الروح والجسد من أهمّ الإنجازات الشّعريّة الحديثة، حين يتلاقى ما يسمّى بشيطان الشهوة وبراءة الملاك: «بودّي، يا امرأة، لو نحيا بحمق الشيطان، وصفاء الملاك»(١٣). ويختصر إحساسه بالنّقص الرائع بقوله: «كنتِ طريقي إلى المحبّة، إلى الله. خارجك ما عرفت سوى القحط واليباس»(١٤). فالمرأة هي الطّريق الملكيّة إلى الله، وليست طريقًا إلى جهنّم كما يزعمون، وهل الله إلاّ هذه الوصلة بين الكائنات، وبينها وبين المتعالي المتجسّد؟ فالحبّ يصيّر الإنسان طبيعيًا لأنّ الحبّ

(٥) يوسف غصوب: «المجموعة الشعريّة الكاملة (قارورة الطيب)». دار النهار للنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، ص ٨١.
(٦) روجيه غارودي وآخرون: «نقد مجتمع الذكور»، ترجمة هنرييت عبّودي. دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٢، ص ٤٨.
(٧) المصدر نفسه، ص ٣٤.
(٨) المصدر نفسه، ص ٥٨.
(٩) سيغموند فرويد: «الحياة الجنسيّة»، ترجمة جورج طرابيشي. دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٢، ص ١٢٣.

(١٠) إيلي مارون خليل: «غدي مرصود عليكِ»، ص ١٥.
(١١) المصدر نفسه، ص ١٨.
(١٢) خريستو نجم: «رهاب المرأة في أدب الياس أبي شبكة». دار الجيل، بيروت/ مكتبة السّائح، طرابلس، الطبعة الأولى، ١٩٩٦، ص ١٨٣-٢٣٥.
راجع أيضًا:
جان نعوم طنّوس: «صورة الزاني والزانية في الأدب العربيّ المعاصر»، ص ١١١-١٤٤.
(١٣) إيلي مارون خليل: «غدي مرصود عليكِ»، ص ٢٢.
(١٤) المصدر نفسه، ص ٢٥.

الأكثر طبيعيّة، أمّا الشهوة المحض، فتصيّر الرّغبة خنزيريّة الملامح: «أحببتُكِ، صرتُ إنسانًا سويًا...» [١٥].

من البديهيّ أن تنضح المرأة بالشّهوة، ولكنّها ليست شهوة غفلاً ماديّة الملامح، لأنّها تطعّمت بإكسير الرّوح: «يا أنتِ. تنضحين بالشّهوة. تغلين»[١٦]. فمن أبواب الفردوس إنهاء الصّراع بين الروح والجسد، وبلوغ الغبطة الملائكيّة. فقد قيل: «في البدء كان الكلمة»، وجاء غوته وقلب المعادلة معلنًا: «في البدء كان العمل»، متناسيًا أنّ لا عمل بدون فكر، وها هو إيلي مارون خليل يؤكّد: «في البدء كان الجسد»، مستعيدًا ملامح الحبّ الميتولوجيّ القديم، حيث الجسد قبّة الروح، كما قيل لاحقًا. وإذا كانت الأمم المهزومة (كالسّريان والعبران) قد انطوت على نفسها، فاحتقرت الجسد والغرائز، على ما يؤمن نيتشه، فإنّ مجد الإنسان يكون في الاحتفاء بالجسد، لا في بُعده الأوحد، بل بوصفه عناقًا حسّيًا للحبّ الرّوحيّ: «آه! يا للرّوعة، اكتشفنا الجسد»[١٧]، يهتف شاعرنا هتافًا لا يجافي قيم الإنجيل بقدر ما يجافي بعض الزهّاد الذين شوّهوا المسيحيّة: «وفي البدء كان الجسد، في البدء كان الذّكاء»[١٨]، وكأنّه يردّد ما قاله فرويد بأنّ القمع الشّرس يولّد التّبعيّة، في حين أنّ التّسامي الصّالح أجنحة للرّوح. واللافت أنّ نيتشه، الفيلسوف شبه الملحد يؤكّد بدئيّة الجسد، بمعنى ما من المعاني: «جسد وروح أنا. هكذا يتكلّم الطّفل. ولمَ لا ينبغي على الناس أن يتكلّموا مثل الأطفال؟»[١٩]. ويقول الشّاعر اللبنانيّ: «جسدي قنديل دربي، لأنّ الجسد نضارة الطّفولة، لأنّ الجسد فتون التّوجّع...»[٢٠].

قلنا إنّ الشّاعر قَلَبَ المعادلة الذّكوريّة النّسكيّة القديمة من غير أن يتخلّى عن مسيحيّته. والأصحّ القول إنّه يحتاج الكثير من تلك النّفحة السّلميّة التي روّضت الوحش الرومانيّ، وقلّمت أظافره. وإذا كانت المرأة مبدأ الخصب الرّوحيّ تبثّ الحياة في الحياة، فها هي تبدو على يراعة هذا العاشق المرهف شبيهة بالعذراء مريم. والحقّ أنّ أفروديت الأرضيّة تتلاقى هنا مع أفروديت السّماويّة، وكأنّ العبارات الشّعريّة نوع من الابتهالات والصّلوات التي يمارسها المسيحيّون في كنائسهم. خذ مثلاً هذا المقطع تجد أنّ الحبيبة اكتسبت وجهًا دينيًا ساطع الحضور: «إرحميني، يا حلوة، إرحميني... من الأعماق صرخت إليك»[٢١]. ويقول أيضًا: «باركيني أنا المبتهل إليك، أنتِ بركتي»[٢٢]. ويضيف: «طوبى لي لأنّني أحببتك، أنتِ يا قدّيستي، وطوبى لكِ لأنّك حبيبتي»[٢٣]. فهو يستعير اللغة الدينيّة الشّائعة بنوع من التّناص الجميل حتّى إنّ عناوين بعض القصائد نوع من الصّلاة المسيحيّة مثل: «طوباكِ، طوباكِ، هلّلويا»، ومثل: «هلمّوا سبّحوها»، حيث يعلن: «إرحميني، يا رائعة، كعظيم بهائك، وكمثل كثرة جمالاتك، امحي تقصيري في إجلالك»[٢٤].

على أنّ هذه التّعابير تعود في جذورها إلى الدّين الفينيقيّ العظيم، دين المحبّة (إيل)، ودين الحبّ (عشتروت وأدونيس). فقد قرأنا نصوصًا وثنيّة تكاد تشابهها الابتهالات المسيحيّة الموجّهة إلى العذراء مريم، بل إنّ تعبير «كوكب الصّبح»، وما شاكل، وثنيّ في الأساس. ويخيّل إليّ أنّ خليل شاعر فينيقيّ يتجاوز المسافة الزّمنيّة التي أبطلت أبعاد الحبّ، وقمعت الحواسّ، وعطّلت العقل، وإذا به ذلك البريء، النّظيف، العائد إلى مرحلة وثنيّة مطعّمة بالمسيحيّة. وقد يقول قائل إنّ تعظيم المرأة ينطوي على عقدة نقص، غير أنّنا نرى فيه ملامح ذلك "الضّعف" الخلاّق، بقطع النّظر عن مبالغات الشّاعر. فالنّفس الحسّاسة في الجوهر "ضعيفة"، ومسيحيّة، وشبه طفوليّة تسترحم الأمّ العظمى، تصلّي بحنوّ، وتشفق وتترأّف، وما هي بنفس صحراويّة متيبّسة. ولعلّها إذ تمجّد تفيض حياة، فلا تنطوي ولا تتقوقع، ولا تقسو قسوة ساديّة، أو تتذلّل تذلّلاً مازوشيًا. إنّ صورتها الكبرى هي المسيح على الصّليب، ومن دموعه النقيّة الطّاهرة، يتفجّر الحبّ في الأرض، وتشيع الرّحمة. يقول خليل: «عليّ أن أتصفّى، أغتسل بالنّدم، أنسحق بالتّوبة، بالدّموع أنعجن»[٢٥]. ربّما بالغ الشّاعر في نزعته التّطهّريّة، ولكنّه وجد خلاصًا لروحه، كما يعتقد...

ألجسد نعمة، والحبّ يصيّر الإنسان إنسانًا، والمرأة هي المخلّصة والشّفيعة. وربّما بدت مسيحًا آخر يزيل الغربة والوحشة والوجود

(١٥) المصدر نفسه، ص ٣٧.
(١٦) المصدر نفسه، ص ٤٥.
(١٧) المصدر نفسه، ص ٩١.
(١٨) المصدر نفسه، ص ٩٢.
(١٩) فريدريش نيتشه: «هكذا تكلّم زرادشت»، ترجمة عن الألمانيّة علي مصباح. منشورات الجمل، كولونيا/ بغداد، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، ص ٧٥.
(٢٠) إيلي مارون خليل: «غدي مرصود عليكِ»، ص ٩٥.
(٢١) المصدر نفسه، ص ٥٣.
(٢٢) المصدر نفسه، ص ٥٤.
(٢٣) المصدر نفسه، ص ٥٥.
(٢٤) المصدر نفسه، ص ٥٧.
(٢٥) المصدر نفسه، ص ١٠١.

البلقعيّ: «أنا أحبّكِ إذن أنا أحيا»[٢٦]، يصرخ الشّاعر معارضًا فلسفة ديكارت المشؤومة التي حصرت الوجود في بُعد عقليّ واحد. إنّ الوجود، بمعنى عامّ في هذا السّياق، يكون للكائنات حتّى الحجر، أمّا فعل «أحيا» فهو للإنسان في أعمق صبواته. بوسعك أن توجد وتعيش بلا حبّ، ولكنّك لا تستطيع أن تحيا إلا بالحبّ الذي يرفع إلى أعلى بدلاً من أن يفجّر الميول السُفليّة، كما هي الحال عند الشّاعر الحديث محمّد الماغوط[٢٧]. يقول خليل: «كم رفعتِني، منّي إليكِ. كم رفعتِني إليكِ. كم ذوّبتِني، صيّرتِني، كم أحييتني، يا امرأة لم يحلم بمثلها إله»[٢٨]. هذه المبالغة الطّفوليّة لعلّها من سمات العشق النّبيل، حتّى لتبدو المرأة فاعلة، والرّجل منفعلاً يتقبّل النِّعم والبركات، على نقيض النّزعة الذّكوريّة التي تسحق الآخر، لجبروتها، فتسحق نفسها، وتجفّف ينابيع الحنان. وبكلمة، المرأة وطن سماويّ حين يبدو الرّجل بلا ميناء ولا وطن. ويا سعادة مَن انتسب إلى هذا الوطن السّحريّ، منبع التّحوُّلات، ومكمن الخير والبركة!

وأخيرًا، فإنّ اللغة الشّعريّة عند إيلي مارون خليل، رفيعة المستوى، مستلّة من أعمق التّجاريب. فبعض الشّعراء يعيشون في عالم الألفاظ المرتّبة سلفًا في الذّهن، وبعضهم الآخر يعيشون دقائق، كَمَن يحوّل اللهيب مطرًا. وقد لجأ الشّاعر إلى الأساليب الإنشائيّة كالنّداء والأمر، وخاطب الحبيبة بضمير المخاطب، واستخدم ضمير المتكلّم، مضفيًا الحيويّة على النّصّ الشِعريّ حتّى ليشعر القارئ أنّه ذلك العاشق المتنسّك تحت ظلال الحبّ. وكثيرًا ما اقتصرت الجملة الشّعريّة على كلمة أو كلمتين تمتدّان وتنداحان عبارات مترابطة تكوّن مقاطع متمايزة بوسعنا وضع العناوين المناسبة لها. أمّا الصّورة فليست بلاغيّة أو تراثيّة، وإنّما هي «روحيّة»، إن صحّ القول، لأنّها وليدة تجربة خاضها إيلي، فاكتشف ذاته واكتشف المرأة، وهي الشّقّ العُلويّ فينا. وتُعَدّ هذه المجازات وكأنّها وليدة أقانيم موغلة في الذّات لا يستطيع أن يردّدها الشّاعر التّقليديّ الفاقد البعد الرّوحيّ. ألصّورة العظيمة ليست بنت الابتكار العقليّ، بل هي نتيجة الغوص في مملكة سحريّة قابعة في الأعماق، لا يشعر بها إلاّ القلّة. ولعلّ فضل إيلي مارون خليل أنّه هجر الذّات العتيقة والسّياج الآمن، وإذا هو خلْق جديد وإنسان جديد تتولّد منه مضامين جديدة وصورة جديدة. وحده مَن يولد روحيًا يُجدّد شباب اللغة. أمّا بعض قصائد الحبّ الشّائعة فهي نتاج غثّ توقّف خارج الذّات العليا متوهِّمًا التّجديد والرّيادة، لكنّه عند التّحقيق، محروم من النّعمة الداخليّة، وكأنّه يعيش في الذات المقتبسة بعيدًا عن الشّعاع الطّفل، حيث باب العجائب التي لا تُحصى.

ألقسم الثّاني: ألحبّ في «متناثرًا في كلماتي».

غدي مرصود عليكِ هي الكتابة / الرّحم التي أنجبت مواليد شعريّة لاحقة، غير أنّ الحمّى المتدفّقة قد فترت قليلاً. ويخيّل إلينا أنّ الديوان الأوّل قمّة شاهقة لا تقلّ عظمة عمّا كتبه أكبر الشّعراء في هذا المجال، وهذا لا يعني أنّنا نبخس من قيمة الدّواوين اللاحقة. ففي «...متناثرًا في كلماتي" يعاني الشّاعر مأساة العمر المولّي، وإذا به وهم سراب، وستار ضباب، وهشيم خراب، كما يعبّر. ومن المعروف أنّ الحبّ لا ينبجس إلاّ بعد فراغ يدفع إلى ملاقاة الآخر، وبعد نقص يهيب إلى الامتلاء بالحبيبة، لذلك نتلمّس في الكتاب أروع تجارب الامتزاج، حين يصير الاثنان روحًا واحدة وجسدًا واحدًا: "وأنا بكِ أنبض / تتشظّى من شراييني / رائحة إيماني بالأنوثة»[٢٩]. فأن ينبض الرجل بالمرأة فذلك هو قمّة الذّوبان، وذروة استيطان الأنوثة، وكأنّ العاشقَين قد تبعثرا في بعضهما بعضًا تبعثرًا يثمر زهرًا وزهوًا وحنانًا. لا فاصل بين الرجل والأنثى، ولا موجب للركض وراء النّساء لأنّ تلك المشتهاة تختصر جنس النّساء كلّه. من هنا عطايا الحبّ وبركاته: «أجمل هداياكِ أنّك وهبتِني عمري / وقد كان دخانًا»[٣٠]. ويتراءى للشّاعر أنّ الحبّ قديم، موغل في الزّمان، ولعلّه شعور يراود العشّاق جميعًا، وكأنّ النّفس عندما انفصلت عن وحدتها الكونيّة، تستذكر أشياء مبهمة واضحة، ثاوية في تلافيف اللاشعور: «يبدو أنّا التقينا / في سالف الأرواح / يبدو أنّنا تواعدنا / في عابر الجراح»[٣١].

ألحبيبة هي الفيء من هجير الأيّام، وأكثر رقّة من لون هادئ، نحيلة مثل سمرة سنبلة، شامخة مثل إباء نبيّ. لا صفات جسديّة واضحة، كما هي الحال عند الشّعراء التقليديّين، وإنّما هو جمال الرّوح ينعكس على الخارج، فيختار منه العاشق ما يناسب، وما

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٧٥.

(٢٧) جان نعّوم طنّوس: «صورة الحبّ في الشعر العربيّ الحديث». دار المنهل اللبنانيّ، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩، ص ١٦١-٢٣٢.

(٢٨) إيلي مارون خليل: «غدي مرصود عليكِ»، ص ١١٩.

(٢٩) إيلي مارون خليل: «متناثرًا في كلماتي». دار المفيد، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥، ص ٢٣.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ٤١.

(٣١) المصدر نفسه، ص ٤٢.

أعجز الكلمات! وكيف يستحقّ نعمة السّموّ إلى المرأة/ النّعمة، وهي نِعمَ الملاذ من الدّهاليز المعتمة! أمّا الجسد فهو الوجه المرئيّ للروح، وبه يتمّ الانصهار، ولا تلميح هنا إلى انتهاك الموروث: «أتصفّح جسدك/ أُفَهْرِسُه/ بلساني أقرأه/ أتنسّمه بشفتيّ/ وبخيالي أتلمّسُه/ أرتشفه عضوًا فعضوًا/ فأسمع نبضينا/ تفجُّر الحنين!» [٣٢]. ألاتّحاد هو الفردوس المنشود، ولعلّ تجربة التّوحُّد بالآخر من أعمق التّجارب الإنسانيّة سواء أكان الآخر إنسانًا، أم طبيعة، أم المطلق المتعالي المحايث: «أمتلئ بنفسك/ أهيم/ أجدني متوحّدًا بك»[٣٣]. فالحبّ جوع إلى الكمال، يكتمل ويتزيّن بالحبيبة التي هي بوصلة في جليد الحياة، ثمّ إنّه ضياع جميل، لا كالضّياع في عالم الصّراع والقوّة، بل انفلات في ما يدهش ويستلب اللبّ. والعجيب أنّ المرأة ملتقى الأضداد، فهي ذات نعومة مفترسة، وعذوبة فتّاكة، لكنّها متناقضات ظاهريّة تشير إلى عمق الحبّ، وإلى التّواصل الحيّ الذي يبلغ حدّ الذّوبان.

ويتقصّى إيلي مارون خليل حالات الحبّ، ومنها الصّمت الغزير، ولا نقصد به ذلك الصّمت العاقر عند الانطوائيّ السّلبيّ. إنّ صمت الحبيبة بدء الينابيع، وأشواق متواصلة، وغيم من القبلات. ونراه يوغل في عينيها، ويتّحد بها كشيخ الطّريقة، ويبدع معها أرقى أبجديّة. ونراه أيضًا يتحسّس جسده، نعم يتحسّس جسده، لا كطاقة مادّيّة صرف، بل كطاقة روحيّة يسربلها الحنان: «يدي تلين لمرآكِ/ تصقل نفسها خلسةً/ تدخل ذاتها/ تُقيم في نبضها/ جرأة تلتمس/ يدي تتهجأ فِهْرِسَ جسدِك/ تقرأ انسياب أقاليمه»[٣٤]. ولا مشاحة أنّ الحبّ «يذوّبُ» الذّات، ويجعلها أكثر ذاتيّة ورصانة، وأبعد عن التّشيّؤ أو الموضوعيّة الغفل. فأن تصير ذاتًا يعني أن تحسّ بكلّ شيء، وأن تحبّ وتتخيّل وتغامر. أمّا إذا تموضعت الذّات فهي إذًا حطبة لا عشبة، وحجر ميت الجوانح: «يدي تبدع/ تزهر حقولُك الخصيبة/ تثمر أشجارك الرّطيبة/ فجسدك نبوءات/ نِعَمُ الحواسّ تنبجس»[٣٥]. وعندما يصير المرء ذوْب حساسيّة، ويعاني «الضّعف» الجميل يسهل عليه النّفاذ إلى الآخر واستيطانه، والعيش في مُناخاته وأقاليمه، بينما نجد الرّجل الامتلاكيّ يستعمر المرأة جسدًا وروحًا: «أحلامُكِ وسادتي/ أحلامي وسادتك/ شراكة الأحلام/ تُوحّد الرّوحين»[٣٦].

هكذا يمجّد إيلي مارون خليل الضّعف الأصيل المفضي إلى اللقاء الأروع: «أنا الفقير إليكِ/ يا تعاليتِ/ كم أدنيتني من الله»[٣٧]. إنّ طريق الحبّ تؤدّي إلى الله، كما أنّ الحبيبة دائمة العذريّة، أي التّجدّد، وأبعد من الأبديّة، إذا كان ثمّة أبعد منهما. وما التّجارب الجديدة إلاّ نوعًا من الولادة الجديدة: «معها ولدت/ معها أولد/ كلّ ولادة تجدّد/ ألتّجدّد سَفَرٌ في الرّؤيا»[٣٨]. وربّما اختلطت الحواسّ كعادة الرّمزيين، وبعض الصّوفيّين، فتحلّ كلّ حاسّة مكان الأخرى: «لسانك رؤى/ فيداك تذوقان/ عيناك تلمسان/ أذناك خبيرتا عطور/ أنفك إرهاف النّبضِ»[٣٩]. إنّها معجزة الحبّ، معجزة اكتشاف الذّات والآخر، اكتشاف الحياة المتعالية على الوجود الغفل، ليقول الإنسان: «أنا أحيا» بدلاً من قوله: «أنا موجود»، حتّى لتبلغ المرأة ذروة نادرة من ذرى التّوحُّد: «ألمرأة سَفَرٌ عبقريّ/ ألقصيدة إيقاع عميق/ ألمرأة وتر سَرْمَديّ/ ألقصيدة جدول دهشة/ ألمرأة ديمة قدسيّة/ وأنا.. بينهما/ شاعر...» [٤٠]. وأن تكون الحياة قصيدة، فذلك هو الحبّ والتّعالي وتجاوز الموروث... تكون الحياة روحيّة أو لا تكون.

خاتمة:

من المحال أن يتقصّى النّاقد المفكّر أعمق التّجاريب في عجالة نقديّة عابرة، وحسبنا أنّنا فتحنا بعض الكوى صوب الرّوح، وهي السّرّ الأكبر ومنجم الحنان والحنين. على أنّنا نكتفي بهذه الصّفحات مخافة الوقوع في التّكرار، ونختم في النّهاية بالقول إنّ القصيدة عند إيلي مارون خليل تتجاوز الموروث الذكوريّ والتّقليد الدّينيّ، ليتجلّى فيها النّزوع إلى الاتّحاد، فما في الجبّة إلاّ الإنسان، هذا الإنسان الذي يتوق إلى السّعادة، وعبثًا يفتّش عنها في ميدان الصّراع والنّزاع والسّلطة والجاه والمال. ألسّعادة في «الضّعف»، وفي «النّقص»، فإن شعرنا بهما امتلأ وجودنا بالفرح، وتطعّمت الدّنيا بنكهة من غير هذا العالم.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٥٦.
(٣٣) المصدر نفسه، ص ٥٧.
(٣٤) المصدر نفسه، ص ١٠١.
(٣٥) المصدر نفسه، ص ١٠٣.
(٣٦) المصدر نفسه، ص ١٠٧.
(٣٧) المصدر نفسه، ص ١٢١.
(٣٨) المصدر نفسه، ص ١٤٠.
(٣٩) المصدر نفسه، ص ١٧٦.
(٤٠) المصدر نفسه، ص ١٨٢.

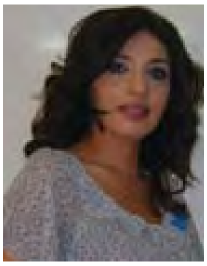

دكتورة ديزيره القزّي

النقد الأدبيّ النفسيّ والتحليل السريريّ (الالتقاء والاختلاف)[١]

١. تمهيد: إنّ الغرض من هذه الدراسة هو إظهار نقاط الالتقاء والاختلاف بين كلّ من النقد الأدبيّ للنصّ على ضوء المنهج النفسيّ، والتشخيص السريريّ لصاحب النصّ. فهل يمكننا أن نتبيّن حال الشاعر (أو الكاتب إذا كان النصّ نثرًا) من خلال نصّه؟ وهل يلتقي النقد الأدبيّ الذي يلجأ إلى المنهج النفسيّ في قراءة النص مع التشخيص السريريّ ذي الطبيعة الطبيّة؟ هذا ما سنحاول أن نتبيّنه في السطور اللاحقة.
وقد اخترنا لهذا الغرض نصًّا معبّرًا للشاعر الأمويّ قيس بن ذُرَيح الذي عُرف بـ«قيس لُبنى»، وقمنا بقراءته قراءة نقديّة مستعملين المنهج النفسيّ، ثمّ شخّصنا صاحبه تشخيصًا سريريًّا.

٢. النصّ:

أَلُبْنى، لقد جَلّتْ عليكِ مُصيبتي، غداةَ غدٍ إذْ حلّ ما أتوقّعُ.
تُمَنّينَني نَيْلاً وتَلْوينَني بهِ، فنَفسيَ شوقًا كلّ يومٍ تَقَطّعُ!
وقَلْبُكِ قَطُّ ما يَلينُ لما يَرى، فوا كَبِدي! قد طالَ هذا التضرُّعُ!
أَلومُكِ في شأني، وأنتِ مُليمَةٌ، لَعَمْري، وأَجْفى للمُحِبّ، وأقطَعُ.
أَخُبِّرتِ أنّي فيكِ مَيّتُ حَسْرَتي، فما فاضَ من عينيكِ للوَجْدِ مَدْمَعُ؟
ولكنْ، لَعَمْري، قدْ بكَيْتُكِ جاهدًا، وإنْ كانَ دائي كُلُّهُ منكِ أَجْمَعُ.
صَبيحةَ جاءَ العائداتُ يَعُدْنَني، فظَلّتْ عليّ العائداتُ تَفَجّعُ،
فقائلةٌ: جئنا إليهِ وقد قضى، وقائلةٌ: لا، بل تركناهُ يَنزَعُ...
فما غَشِيَتْ عينَيْكِ من ذاكَ عَبرةٌ، وعَيني على ما بي، بذكراكِ تَدْمَعُ
إذا أنتِ لم تبكي عليّ جَنازةً لدَيْكِ، فلا تبكي غدًا حينَ أُرفَعُ.

قيس بن ذُرَيح

٣. التحليل النفسيّ:

أ. مدخل: يرى يونغ أنّنا عندما نتعامل مع نص نتعامل مع منتوج فاعليّات نفسيّة معقّدة جدًّا، ولكن يجب أن نتعامل مع الجهاز النفسيّ بالتحديد[٢]. كما لا بدّ لنا من الإعلان، قبل أن نبدأ بالعمل، أنّ هناك فرقًا أساسيًّا في الفهم بين عالم النفس حين يفحص العمل الفنيّ وبين الناقد الأدبيّ، لأنّ النتاج الأدبيّ له أهميّة كبرى عند العالم النفسيّ[٣] فالفنان يمثّل حساسيّة خاصة، تعتلج فيها عوامل عديدة مؤثّرة، من غير أن يكون هذا مناقضًا للتحليل النفسيّ.

ب. تحليل النصّ الأدبيّ على ضوء المنهج النفسيّ: يبدأ الشاعر نصّه بالمناداة: مناداة المرأة التي تمثّل له ما فُقِد. فالذات تواجه فجيعة الفقدان والغياب. ولكنّ هذا الفقدان مردّه إلى نوع من الاستلاب الآتي من الخارج: فالآخر يستلب ما تحبّه الذات، ويقمعها بقوّة، لذلك فإنّ النداء هنا يفيد التفجّع. والشاعر يعترف بالمصيبة التي حلّت به، وعليه فإنّ الأنا والآخر يدخلان في صراع مباشر: الذات تريد أن تحقّق نفسها والآخر

(١) نوجّه شكرًا إلى الدكتور ديزيره سقّال الذي قام بمساعدتنا في القسم الأوّل المتعلّق بالنقد النفسيّ.

(٢) ك. غ. يونغ، علم النفس التحليليّ، تعريب: نهاد خياطة، اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٩٧، ص ١٥٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٦٠.

(الخارج/ الحبيبة) يمنعها من هذا. وهذا التسلّط والقهر «يأخذ على المستوى اللاواعي شكل العلاقة السادومازوشية.»[٤]
لكنّ القامع هنا لا يلبث أن ينكشف أكثر، منذ البيت الثاني: إنّه الحبيبة. فالتواصل هنا بين طرف يتعذّب وطرف يُعذِّب. والذات تحاول أن تحقّق مشروعها (وهو الاتصال بالحبيبة)، لكنّها تواجَه بالاستحالة، فتُخفق، لذلك تنسحب وتردّد، لتكشف عن عقدة دونيّة، وعن ضعف ظاهر. والعجز عن ممارسة الرجولة (الأنا التي تمنح الحبّ والأمان هنا) لا يلبث أن يتحوّل إلى ضرب من المازوشيّة، وهو يماثل هنا ما يسمّيه أدلر «الطفل — المشكلة»، "لأنّه يتفهّم كلّ الخبرات التي تمرّ به على أنّها هزائم، ولأنّه يعتبر نفسه مهملاً دائمًا، وأنّ هناك تمييزًا وتحيّزًا غير عادلين ضدّه من الطبيعة ومن المجتمع."[٥] كما يعتبر نفسه ضعيفًا أمام الخارج، فتتزعزع ثقته بنفسه، بينما يتمكن والده من فرض ما يريد عليه(٦)؛ والوالد هنا يمثّل الأنا العليا التي تفرض الممنوعات على الذات، وتضغط لتقهر الرغبات التي في الأنا السفلى وتمنعها من الظهور، بحسب فرويد. وعندما تخسر الأنا حبّها تصاب بالاكتئاب mélancolie، والاكتئاب عادةً مصحوب بالهوَس، لأنّ الأنا عند قيس تستعيد باستمرار موضوع حبّها، وتتقمّص شخصيّته عندما كان مع الحبيب[٧]. وفي هذا نكوص، لأنّ قيسًا يعود إلى حالة حبّه السابقة للبنى، ويتمسّك بها في محاولة للتعويض، ولكنّه يصاب بالاستحالة، ويتقمّص شخصيّته الماضية حين كان معها[٨]؛ وبهذا يفرض نفسه على الأنا السفلى كموضوع حبّ ليهوّن عنه ضياع موضوعه، ويظهر لنفسه أنّه مشابه لموضوعه، ما يستتبع حالة من النرجسيّة المتخفّية[٩]. ولكنّ سلوك الأب (الخارج/ مصدر القمع) يقود الطفل إلى الإحساس بأنّه عاجز، وعديم القيمة، ولا يستطيع التحكّم بأيّ شيء غير إسعاد الكبار أو إتعاسهم[١٠]. وفي هذه الحال، تشكّك الذات في جديّة الحياة نفسها، كما هي الحال هنا، وتحاول أن تجعل الآخر يعترف بها. غير أنّها لمّا كانت تشعر بالدونيّة توجّه ساديّتها التي يمكن بها أن تواجه نحو الداخل، نحو نفسها، فتصير مازوشيّة، ويعوّض لها العذاب ما خسرته في الخارج[١١]. وفي الحقيقة، إنّ الانفصال عن الموضوع يؤدّي إلى الحزن والقلق[١٢]، وفقدان الموضوع هو الذي يولّد العارض في الإنسان، لأنّ العارض يأتي نتيجة لرغبة معيّنة لم تُشبَع[١٣]، والرغبة هنا هي الحصول على الآخر/ الحبيبة مرّة أخرى.
من الواضح أنّ الشاعر يعاني عقدة المنع (الحرمان العاطفيّ)، لأنّه مَرْكَزَ حبّه كلّه في شخص واحد: لُبنى. وتدلّ هذه العقدة «على حساسيّة متطرّفة في القصور العاطفيّ، وفقدان الحبّ، ووسواس في الابتعاد العاطفيّ، بل تصدّعه.»[١٤] لهذا السبب نجده يشعر بشراهة عاطفيّة قد يستحيل تعويضها، ويبقى خوفه

(٤) مصطفى حجازي، التخلّف الاجتماعيّ- مدخل إلى سيكولوجيا الإنسان المقهور، بيروت: المركز الثقافيّ العربيّ، ط ٩، ٢٠٠٥، ص ٨٨.

(٥) ألفرد أدلر، الطبيعة البشريّة، تعريب: عادل نجيب بشرى، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥، ص ٨٠.

(٦) كان قيس قد تزوّج لبنى، ولكنّها لم تنجب ولدًا له، فظلّ والده يضغط عليه ليطلّقها حتّى فعل، ثمّ شعر بالذنب، فأراد أن يردّها، ولكنّ والده زوّجه من امرأة أخرى لعلّه ينساها، فلم يفعل.

(٧) راجع: سيغموند فرويد، الأنا والهو، تعريب: محمّد عثمان نجاتي، دار الشروق، ط ٤، ص ٤٧.

(٨) راجع: المرجع نفسه، ص ٥٠.

(٩) المرجع نفسه، ص ٥٠ — ٥١.

(١٠) ألفرد أدلر، الطبيعة البشريّة، ص ٨١.

(١١) يقول أدلر في هذه المسألة إنّ الشعور بالدونيّة عند الطفل «هو قوّة من قوى الدفع، وهو نقطة البداية التي تخرج منها كلّ دوافع الطفل، وهذا الشعور هو الذي يحدّد للطفل كيفيّة الحصول على الأمن والأمان في العالم، فهو يحدّد له الهدف من الوجود، ويمهّد الطريق الواجب سلوكه لتحقيق هذا الهدف». (المرجع نفسه، ص ٧٩ — ٨٠)

(١٢) فرويد، الكفّ والعرض والقلق، تعريب: محمّد عثمان نجاتي، بيروت: دار الشروق، ط ٤، ١٩٨٩، ص ١٥٠.

(١٣) المرجع نفسه، ص ٥٤.

(١٤) روجيه موكيالي، العقد النفسيّة، تعريب: موريس شربل، بيروت: منشورات عويدات، ط ١، ١٩٨٨، ص ٧٣.

الأكبر من إهماله، ونجده يَستجوب الآخر باستمرار ليتعرّف إلى مدى حبّه[١٥]. ومن الواضح هنا أنّ الشاعر لا يجد أيّ اطمئنان. وهذا لا يخلو تمامًا من عقدة الذنب. فالشاعر طلّق لبنى بضغط من أبيه لأنّها لم تُنجب له ولدًا، ثمّ شعر بالذنب لهذا. والشعور بالذنب يمكن أن يولّد ضربًا من الساديّة، ولكنّها تتوجّه نحو الداخل لتصير مازوشيّة، كما ذكرنا. وترتبط عقدة الذنب بعقدة الفشل، لأنّ الشاعر فشل في تحقيق علاقة مستمرّة بالمرأة التي أَحَبّ. ويرافق هذا الأمرَ الشعورُ بالنقص؛ فالشاعر لمّا لم يتمكّن من إرضاء حبيبته، وهجرها بفعل الضغوط، بدا كأنّه ليس على المستوى المطلوب، وغير كفء لها[١٦].

والتصرّف المازوشيّ هنا يتجلّى بوضوح، لأنّ المازوشيّ، كما يقول فرويد، «يريد أن يُعاملَ كطفل صغير عديم الحيلة وتابعٍ»، وخصوصًا كطفل شقيّ. وتضع ذاته نفسها في حالة نَسَويّة، فالمازوشيّ يشعر بالخصاء[١٧]. والشاعر في أبياته يُظهر نفسه غرضًا للتفجّع عليه، ويُفرط في استجرار العطف، وفي جعل المرأة (الطرف الآخر) تقسو عليه ولا ترحمه. وهنا يعكس إحساسه بالذنب، لأنّ الخيال المازوشيّ، عمومًا، يعبّر عن هذا، ويفترض، في لاوعيه، أنّ الذات ارتكبت جريمة ما، لا يكون التكفير عنها بغير التعرّض للألم والتعذيب[١٨].

هكذا تتحوّل غريزة التدمير، في المازوشيّة، من الخارج نحو الداخل، وتنقلب على الذات[١٩]. فالقمع الذي مارسه الأب على الابن بفعل ضغط القيم والتقاليد[٢٠] أدّى إلى رضوخه. ولكنّ الشاعر بعد هذا أحسّ بالخطإ الذي ارتكبه، واعتبر نفسه مذنبًا تجاه من يحبّ، لأنّه عوضًا من أن يحقّق له غرض الحبّ واستمراريّته، هجره وانسحب، فلم يتمكّن من تحقيق مشروعه، وهذا بالتحديد ما ولّد فيه الشعور بالذنب الذي جاء تعبيرًا عن التوتّر الحادّ بين الأنا العليا والأنا. وهنا ردّت الأنا بأحاسيس القلق ووخز الضمير، لإدراكها بأنّها أخفقت في تحقيق هدفها[٢١]. لذلك نجد الشاعر، بعد فقده لُبنى، يمرض، ويصوّر الآخرين يرثون لحاله لإظهار حال الحزن مصعّدة فيه، وينقل إلى ذاته صورة الأنثى الضعيفة حين يصوّر العائدات (زوّار المرضى والموتى) يعدْنه فيتفجّعنَ عليه ويرثين لحاله التاعسة، ومع هذا فالحبيب لا يذرف دمعة عليه، ولا يرفّ له جفن كما يصفه. فكأنّه يلتذّ بعذاب جميل، وبهذا يعاقبه. ونحن نعرف أنّ الأنا، في المازوشيّة تسعى إلى العقاب، إمّا من جانب الأنا العليا في داخله، وإمّا من جانب مَن يمثّل السلطات الأبوية في الخارج، وتتكوّن فيه رغبة ملحّة لا يشبعها إلاّ العقاب والمعاناة[٢٢].

إنّ النفس الإنسانيّة تتنازعها غريزتان أساسيّتان تتمثّلان في كلّ شيء: غريزة الحياة، وغريزة الموت. ولمّا كانت الحوافز التدميريّة تصاحب الليبيدو، وتعمل سرًّا داخل الذات، ولا تظهر إلاّ إذا تحوّلت نحو الخارج بوصفها غريزة تدمير، فهنا تنبثق الساديّة. وعندما تتكوّن الأنا العليا في الطفل، تنبث كميّات كبيرة من غريزة التدمير العدوانيّة داخل الأنا، وتعمل ضدّ الذات على نحو تدميريّ. وعندما يغضب المرء «يبيّن كيف يتمّ الانتقال من العدوان المقيّد إلى تدمير الذات... وهذه معاملة كان يودّ لو وجّهها إلى شخص غيره.»[٢٣]

ينطبق هذا تمامًا على الشاعر. فبدلاً من أن يوجّه نزعته التدميريّة نحو الخارج الذي سبّب له التعاسة (متمثّلاً في الأب بصورة خاصّة)، يوجّهها نحو نفسه، فيتمسّك بالعذاب، ويجعل من غرض حبّه المفقود (لبنى) يعذّبه، في محاولة منه للتعويض من شعوره بالذنب. فقد هجرها، ولكنّه ندم، ولا يستطيع أن يعوّض من خسارته، فيقبل طوعًا بتعذيبها له عبر لامبالاتها.

٤. التشخيص السريريّ للنصّ: إذا أردنا أن نتلمس النواحي المرضيّة، وخصوصًا المازوشيّة في هذا النصّ، لوجدنا نفسنا في لبّ الموضوع. فنحن عرفنا أنّ هذا الشاعر الذي عاش في العصر الأمويّ كان قد أحبّ لُبنى، وتزوّجها، ثمّ طلّقها لأنّها لم تنجب له ولدًا، بسبب إصرار والده. ولم يلبث أبوه أن زوّجه من امرأة أخرى لينساها. والسؤال الجوهريّ هنا هو الآتي: لماذا لم ينجب منها؟

هذا السؤال ملحّ، يسلّط الضوء على قدراته الجنسيّة. وعندما طلّقها تزوّج سواها فلم ترضه. وهنا السؤال المهمّ: ماذا يريد هو من العلاقة الزوجيّة، ولاسيما العلاقة الجنسيّة؟ الواضح والمؤكّد أنّ هذه العلاقة بين لبنى المرأة وقيس الرجل تتسم

(١٥) المرجع نفسه، ص ٧٤.

(١٦) قارن: المرجع نفسه، ص ١٠٠.

(١٧) فرويد، أفكار لأزمنة الحرب والموت، تعريب: سمير كرم، بيروت: دار الطليعة، ط٢، ١٩٨١، ص ١٠٧.

(١٨) المرجع نفسه، ص١٠٨.

(١٩) المرجع نفسه، ص ١١٢.

(٢٠) كان أبو قيس يريد أن يتزوّج ابنه من إحدى بنات عمّه. وحين تزوّج من لبنى ولم تُنجب له ولدًا ضغط عليه مع أمّه ليطلّقها، خوفًا من أن يُحرَم النسل، وبالتالي لا تنتقل ثروته إلى من هو من صلبه.

(٢١) المرجع نفسه، ص ١١٣.

(٢٢) المرجع نفسه، ص ١١٦.

(٢٣) فرويد، الموجز في التحليل النفسيّ، تعريب: سامي محمود علي وعبد السلام القفّاش، القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتّاب، لا تاريخ، ص ٣٢.

بالسادومازوشيّة: فلبنى بحضورها وغيابها تمارس الساديّة على قيس الذي يتّخذ صفات المازوشيّ. يقول فرويد: «إنّ الأكثر تواترًا ودلالةً بين الانحرافات هو الميل إلى إنزال الألم في الموضوع الجنسيّ ونظيره.»(٢٤) لا يريد الساديّ أن يسمع كلامًا، بل يريد أن يقوم بفعل. لذلك يصمت ويقوم بما يريد القيام به. وهذا ما تحاول لبنى بصمتها أن تفعله بقيس، لأنّنا نجدها، بحسب قوله، تمتنع عن رؤيته، وترثي لحاله، ومع أنه يائس ومعتلّ لا تنزل منها دمعة عليه:

فما غشيت عيناكِ مِن ذاكَ عبرةٌ،

وعيني على ما بي بذكراكِ تدمعُ.

هكذا صارت لبنى هي المعذِّب والقاهِر والمُبكي، والمُؤلِم، وقيس هو الذي يتلقّى العذاب ويعانيه بكلّيته، إذ إنّنا نعلم أنّ المازوشيّة تكون عندما يصبح الإنسان عاجزًا عن الحصول على اللذّة الجنسيّة بلا عذاب جسديّ أو نفسيّ(٢٥). لقد صار قيس في وضع المظلوم الذي ظلمته حبيبته واختارت البعد عنه على الرّغم من أنّه هو الذي اختار البعد عنها حين طلّقها، وبالتالي هو من اختار عقابه. لذلك نتساءل: أهناك عقاب من غير وجود عقدة ذنب في المازوشيّة التي نتكلّم عليها؟

يرى فرويد أنّ كلّ شذوذ جنسيّ ينبع من الهوامات fantasmes، ويذكر أنّ المازوشيّة تنشأ في مراحل ثلاث يمرّ بها الطفل، يصفها كما يأتي:

- أبي يضرب الولد الذي أكرهه.
- أبي يضربني: إعادة بناء هوامي.
- الولد المضروب (انقلاب).

في هذا الوصف تظهر عقدة الذنب التي تنشأ عند الولد بفعل الضرب أو العقاب الذي يتلقّاه في طفولته، معتبرًا أنّه يستأهل هذا، ما يبقى موجودًا ومكبوتًا في الهوامات التي يعانيها الفرد نفسيًا حتّى يصل إلى العمل الجنسيّ، فيجد نفسه يعمل من خلالها وفي إطارها. ويصف يونغ العصاب والهوامات في حال صفائه بقوله: «تتنقّى أفكاري وأستطيع أن أفهم وأستوعب بشكل أدقّ كلّ الخيالات (الهوامات) التي كنت استشعرها فيّ، حتى هذه اللحظة، مجرد مشاعر مبهمة.»(٢٦) فهذه الهوامات تكون في أعماق ذاتنا في حالة كمون، ولا تستيقظ إلاّ عند الفعل

الجنسيّ.

ولكنّ في تشكيل كلّ حالة من حالات الشعور بالذنب وحب تعذيب الذات أو أذيّتها شعورًا بالنقص. فما مردّ هذا؟

إذا أردنا وصف عقدة النقص بشكل عامّ، قلنا: «تميّز مشاعر الدونيّة، بشكل عامّ، موقف الإنسان المقهور من الوجود. فهو يعيش حالة عجز إزاء القوى الطبيعيّة وغوائلها، وإزاء قوّة السلطة على مختلف أشكالها؛ مصيره معرّض لأحداث وتغييرات يطغى عليها طابع الاعتباط أحيانًا، والمجّانيّة أحيانًا أخرى. يعيش في حالة تهديد دائم لأمنه وصحّته وقوته وعياله. يفتقر إلى ذلك الإحساس بالقوّة والقدرة على المجابهة الذي يمدّ الحياة بنوع من العنفوان، ويدفع إلى الاحترام والمجابهة. الإنسان المقهور عاجز عن المجابهة.»(٢٧) هكذا نجد شاعرنا يتألّم ويُعاقَب بسبب هذه العقدة إلى حدّ الشعور بالذوبان والعياء حتى الموت.

يقول قيس:

إذا أنتِ لم تَبكي عليّ جَنازةً

لديكِ، فلا تبكي غدًا حينَ أُرفَعُ.

انطلاقًا من هذا، نستطيع أن نقول إنّ كلّ عقدة نقص ترتبط بالعصاب، لذلك فكلّ عصابيّ مصاب بعقدة نقص. وفي هذه الحال، لا يمكننا تمييز المصاب بالعصاب عن سائر العصابيّين الآخرين بمجرّد القول إنّه مصاب بالعصاب، وأنّ الآخرين بمنجاة من هذا، بل يمكننا تمييزه عنهم باختلاف الموقف الذي يجد نفسه فيه غير قادر على على مواصلة الجانب النافع له ولغيره

(٢٤) G. Bonnet, Les perversions sexuelles, Paris: P.U.F, 2009, p. 49 .24.

(٢٥) Ibid, p. 59

(٢٦) Ch. Gaillard, Young, Paris: P.U.F, 2009, p. 73.

(٢٧) مصطفى حجازي، التخلّف الاجتماعيّ- مدخل إلى سيكولوجيا الإنسان المقهور، ص ٤٥.

من الحياة، فهو يمكن تمييزه عن سواه بما يكون قد ضربه حول ذاته من قيود أعاقت مسيرة نحو النشاط المجدي والفاعليّات النافعة[٢٨]. وفي هذا الإطار، نجد الشاعر عاجزًا عن إكمال الحياة من غير لبنى سببِ شقائه وعلّته، ويفضّل الموت:

أَخُبِّرْتِ أنّي فيكِ مَيِّتُ حَسْرَتي
فما فاضَ من عينيكِ للوجْدِ مَدْمَعُ؟

لهذا السبب نجد المنيّة بدأت تغزو حياته، والاكتئاب يجتاحها ويملأها. وهنا نلاحظ علاقة مباشرة بين الشعور بالنقص، من جهة، وعقدة أوديب، من جهة أخرى، فالعقدتان مترابطتان، وهو ما ذكره لاكان.[٢٩]

وعقدة أوديب مرتبطة مباشرة بعقدة الخصاء التي مصدرها أوديب نفسه، والشعور بالنكوص والذنب أمام السلطة الأبويّة الأقوى. ويتجسّد الأب بالآخر الذي يصير هو القوّة القاهرة والبطّاشة التي لا تكترث بألم الشخص وحزنه، ولا تبالي بأحاسيسه. وهذا ما يظهر حين يقول للمرأة التي يحبّ:

وقلبُكِ، قَطٌّ، ما يَلِينُ لما يرى
فوا كَبِدي قدْ طالَ هذا التضرُّعُ.

ولا ندري إذا كان الشاعر يتألّم أو يفرح بسبب ألمه وبُعد حبيبته عنه.

ويبدو قلق الخصاء حين يتمنّى قيس الموتَ في البيت الذي أشرنا إليه قبل قليل في مكان سابق. يقول لاكان في قلق الخصاء: «إنّ عقدة الخصاء هي الأثر الأساسيّ لهذا المزج بين الأب والقانون. فالقانون ينشأ من... التمازج الغريب بين رغبة الأب بعد قتله؛ وتكون النتيجة، سواء في تاريخ الفكر التحليليّ أو في كلّ ما يمكن أن نعتبره رابطًا أكيدًا، عقدة الخصاء.»[٣٠]

ويزداد هذا الشعور بالخصاء مع الوقت، حين يشعر الإنسان أنّه غير قادر على أن يكمل الحياة، فيرغب في الموت، ويشتهي الألم والمرض والحزن والذوبان في حال الحبّ حتّى التلاشي، كما رأينا في أبيات القصيدة.

٥. نتيجة التشخيص السريريّ: من خلال الحالة التي استعرضنا نجد عدّة عوامل تؤكّد حالة المازوشيّة عند الشاعر، تتجلى في تلقّي الشاعر الأسى والعنف الصامت من محبوبته الغائبة؛ وهو يضع نفسه في وضع المظلوم الذي يتلقّى الضربات، وتتحدّث هواماته عن العذاب الأقسى والأمرّ، وتظهر عقدة الذنب والنقص بشكل لافت جدّا، وهي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بعقدة الخصاء في العصاب التي تتشكّل في المرحلة الأوديبيّة. وإذا استندنا إلى تشخيص الـ DSMIV[٣١] للمازوشيّة رأينا أنّ لها صفتين رئيستين:

١. ظهور هوامات مثيرة جنسيًا، أو تصرّفات تظهر بشكل متكرّر، وبكثرة، في خلال مدّة لا تقلّ عن ستة أشهر، تحتوي على أفعال... يبدو فيها الشخص مُهانًا، مذلولاً، ومضروبًا، أو معذّبًا بوسائل أخرى.

٢. تكون الهوامات والدوافع الجنسيّة والتصرّفات في أساس عذاب عبّرة جدّا سريريًا، أو بتغيير في مجال العمل الاجتماعيّ والمهنيّ أو في مجالات أخرى مهمّة.

وتدعو هذه الصفات التي تكون في غالب محتواها ذات طابع جنسيّ إلى التساؤل عن الحياة الجنسيّة لدى هذا الشاعر (قيس) الذي طلّق زوجته، وكان يهيم بها، بسبب عدم الإنجاب، وهو أمر يثير العجب، ويطرح تساؤلات حول حياته وقدرته الجنسيّة، وخصوصًا أنّ شاعرنا يملأه الشعور بالنقص والذنب والخصاء، وربّما كان هذا مرتبطًا بعجز جنسيّ مرافق لهذه الحالة المازوشيّة بامتياز.

وتجدر الإشارة إلى أنّ المازوشيّ شخص يطلب القهر والعذاب والتلاعب مع الموت[٣٢]. وفي هذا الإطار، نجد الشاعر يتكلّم بشكل مستمرّ على الموت، ويندب نفسه ويرثيها، ويقول:

صبيحةَ جاءَ العائداتُ يَعُدْنَني،
فظلّتْ عليّ العائلاتُ تَفَجّعُ،
فقائلةٌ: جئنا إليه وقد قضى،
وقائلةٌ: لا، بل تركْناهُ يَنزَعُ.

وهنا نجد أنّ الشاعر، على الرّغم من مرضه وحالته العصابيّة، يتلاعب بنزعه وموته، ليبدو دائمًا المعذّب الضحيّة في علاقته كلها، ما يبرهن حالته المازوشيّة التي يمكن أن نلخّصها بالشعار: الحبّ حتى الموت.

(٢٨) أدلر، سيكولوجيتك في الحياة كيف تحياها، بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، ١٩٩٦، ص ٧٧ — ٧٨.

(٢٩) يقول لاكان: «تعني ميثة أوديب أنّ رغبة الأب هو ما صنع القانون. فما الذي جعل للمازوشيّة قيمة في وجهة النظر هذه؟ إنّه الثمن الوحيد الذي يدفعه المازوشيّ. فعندما يجتمع كلّ من الرغبة والقانون، يظهر ما يريده المازوشيّ. وأضيف: ...يجب ألاّ ننسى أنّ الرغبة في الآخر هي ما يصنع القانون.» (J. A. Miller, Le séminaire de Jacques Lacan, Paris: éd. Du Seuil, 2004, p. 126).

(٣٠) Ibid, p. 127.

(٣١) J. DGUELFI, Mini DSM – 4, Paris: Masson, 1996, p. 248.

(٣٢) يقول لاكان: «إنّ الموت ليس مُختَبَرًا كموت، فهي دائمًا غير واقعيّ. لذلك فالإنسان لا يخاف إلا مما هو متَخَيّل. وهو... ليس حتّى خشية، بل مجازفة، وقضيّة. ذلك لأنّ بين السيّد والعبد، منذ البدء، قاعدة للّعب». (J. Lacan, Les écrits techniques de Freud, Paris: éd. Du Seuil, 1975, p. 344 – 345).

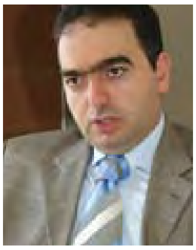

د. أنطوان صفير*

قانون الانتخاب

نظام أكثريّ فرديّ للبنان التعدّديّ

إنّ البحث في القانون الانتخابيّ المناسب للواقع اللبنانيّ يتطلّب مراجعة تاريخيّة وسياسيّة عميقة تحتاج إلى دراسات متكاملة ووضع إطار لاقتراحات حلول بعد استعراض المسائل الخلافيّة والمشكلات العالقة على أكثر من صعيد .

في هذا المقال، لا بدّ من اختصار الواقع بغية اقتراح القانون المناسب.

١. الواقع اللبنانيّ

أفضى التاريخ السياسيّ اللبنانيّ عبر مراحله المختلفة إلى أنّ تركيبة الوطن اللبنانيّ هي تعدّديّة بامتياز، والتنوّع فيها هو سمة بارزة. وما قانون الانتخاب إلاّ سبيلٌ من سبل إدارة هذه التعدّديّة؛ وكلّما اقتربت معاييره من القدرة على الحفاظ على الديمقراطيّة بمعناها الواسع وعلى النسيج الوطنيّ بمنحاه الطائفيّ والثقافيّ والمناطقيّ، كلّما شكّل قانون الانتخاب آلية تساهم في تحديث النظام السياسيّ وتطوير مؤسّساته.

والتاريخ الحديث يشير، عبر القوانين المتتالية، إلى أنّ السعي من قبل السلطة القائمة أو أيّ قوّة فاعلة في الداخل أو الخارج لفرض سيطرتها عبر إرساء قوانين انتخابيّة غير عادلة ولا تحقّق صحّة التمثيل، لم يكن سعيًا، موفّقًا بحكم أنّ الأمور كانت تعود إلى واقعها بعد زوال الظروف القاهرة أو الاستثنائيّة كافول سلطة الوصاية على سبيل المثال.

والقول إنّنا نحتاج إلى ثورة قانونيّة عبر قانون انتخاب حديث هو قول صحيح، ولكن شرط أن يتحلّى القانون المطروح بمعايير الواقعيّة وإمكانيّة التطبيق.

وإذا كان الواقع اللبنانيّ مَشوّبًا بعيوب عديدة على صعد الثقافة السياسيّة ومفهوم الانتماء الوطنيّ وعلاقة المنتخِب والمنتخَب والخيارات الخدماتيّة التي تقوى أحيانًا على الخيارات الوطنيّة، فإنّ قانون الانتخاب هو محرّك إيجابيّ من حيث المبدأ لتخطّي العوائق والمعضلات، بغية الوصول إلى إدارة سياسيّة تتحقّق معها المساواة والعدالة المنشودة، وإن بشكل تدريجيّ.

وقوانين الانتخاب المتتالية افتقدت الثباتَ، وهو عنصر مهمّ في دمقرطة المجتمع وفي صحّة التمثيل، إذ أنّ ثبات القانون يؤدّي حكمًا إلى تقوية العمليّة السياسيّة وجعلها غير متقلّبة التمثيل مع تقلّب الزمن السياسيّ وموازين القوى في الداخل والخارج.

ومع افتقاد عنصر الثبات هذا، أضحينا أمام قوانين انتخابيّة لا يشبه بعضها بعضًا في كثير من النقاط والنواحي، إلاّ أنّ القاسم المشترك يبقى سيطرة المنافع على مصلحة الوطن وصحّة التمثيل للمواطنين.

وما شهدناه خلال عصر الوصاية وتبعاتها أعطى دليلاً حسيًّا على القوانين الجائرة غير المتوازنة في الشكل والمضمون، التي أدّت، بعد تبدّل الظروف، إلى تغيير سياسيّ جذريّ، لأنّ ما بُني على باطل فهو باطل.

وإذا حلّلنا الواقع اللبنانيّ، نراه متعلّقًا بالعناصر التالية:

١. تعدّديّ، ولكن بشكل متفلّت.

٢. يفتقر إلى ثبات قانونيّ انتخابيّ.

٣. تتأجّج فيه المشاعر الطائفيّة والمناطقيّة.

٤. يتراجع فيه منطق الدولة- الحاضنة.

٥. يتداعى فيه دور المؤسّسات الدستوريّة.

٦. تترنّح ثقة المواطنين ببنية النظام وقدرته على تنظيم العلاقات.

لكلّ هذه الأسباب كعناصر سلبيّة، وبغية تحويل النظام القائم إلى انتاج سياسيّ أكثر حداثة، نتطلّع إلى قانون انتخابيّ متوازن.

٢. قانون أكثريّ ودوائر صغرى

تبدو الطروحات المختلفة على الصعيد الانتخابيّ، متضاربة أو متباعدة، لأنّها لا تخرج من القضيّة نفسها ولا تعتبر ردًّا منطقيًا على المشكلات العالقة، لأنّ كلّ طرف يرى النـزاع في مكان مختلف، وطبعًا يطرح الحلّ نسبة لما يراه أو تفرضه مصلحته التي ربّما لا تتلاءم مع مصلحة الوطن.

* أستاذ محاضر في القانون الدوليّ المصرفيّ- جامعة القدّيس يوسف

وطرح النسبيّة هو منطقيّ من الناحية التقنيّة، ولكنّه غير واقعيّ كطرح سياسيّ، لأنّه يفتقر إلى عناصر داعمة أو مؤسّسة كقانون اللامركزيّة الذي يجعل الإدارة اللامركزيّة صاحبة صلاحيّة، ويرسي ثقافة مواطنية تحرّر المنتخِب من الزبائنيّة والخدمات الضيّقة.

أمّا العنصر الداعم الآخر فهو قانون أحزاب عصريّ يُخرج الأحزاب من شرنقتها وعدم شفافيّة تنظيمها وانتشارها وإدارتها وتمويلها. وهذه الأحزاب هي المحرّك الأساسيّ للتمثيل السياسيّ وتنقيته، شرط أن تحدّث الأحزابُ نفسَها سعيًا لترقية نظرتها وعملها.

الأحزاب بمجملها تفتقر إلى النظرة العصريّة. وفي الحالة هذه، يميل النظام المركزيّ إلى الحصريّة والديناميّة الوطنيّة، فهي إمّا محصورة بواقع الوراثة المحليّة وإمّا بشعارات غير قابلة للتحقيق، ما يعني أنّ الابقاء على الواقع الحاليّ سيفاقم الأزمات إلى حدود خطرة.

كلّ هذه الأسباب تجعل النظام النسبيّ الذي اعتمدته فرنسا وعادت عنه، وهو معتمد في بلجيكا ولا يمكّنها دومًا من تأليف حكومة متجانسة، غير قابل للتطبيق في لبنان، ولا يتلاءم مع تركيبة طائفيّة دقيقة.

أمّا النظام الأكثر ملاءمة فهو اعتماد لبنان ١٢٨ دائرة، بحيث يُنتخب كلُّ نائب عن دائرته وفق نظام:

One Person one vote

فتنتهي لعبة بيع الأصوات وتجييرها وتبديل التمثيل الحقيقيّ، ويذهب النائب الذي يفضّل أن ينتمي إلى حزب أو جماعة سياسيّة متّحدًا بقوّةٍ تمثيليّة، متحرّرًا من فضل دخول البرلمان بدعم هذه الزعامة أو تلك.

وهذا النظام هو الأكثر عصريّة، تعتمده دول عريقة في الديمقراطيّة ككندا مثلاً، حيث يحكم نظام الأحزاب بمعناه الأرقى.

أمّا استعمال المال فهو أمر مفسد وخطر ينبغي مراقبته ومعاقبته بشدّة، لأنّ الدائرة الفرديّة هي عرضة لهذا الوباء، ما يعني والحالة هذه أنّ إنشاء أجهزة قضائيّة رقابيّة هو بمثابة الشرط الضروريّ لعمليّات انتخابيّة شفّافة وصحيحة.

والدائرة الفرديّة تناسب الديمقراطيّة وتحفظ التعدّديّة، ولكنّها بالطبع لا تتلاءم مع من يوّد استقطاع نوّاب يأتون باسم الناس من حيث الشكل.

من هنا أنّ التمسّك بالدائرة الفرديّة أو بالدائرة الصغرى التي لا تتعدّى نائبين أو ثلاثًا، هو الطريق الذي يوصل إلى تكريس ديمقراطيّة، تبقى أفضلَ الحلول وأقصرَ الطرق نحو تحديث سياسيّ واقتصاديّ وقانونيّ.

القانون الاستثنائيّ للإيجارات وتأثيره على الاقتصاد

د. لويس حبيقة

الحمد لله أنّني لست مالكًا قديمًا ولا مستأجرًا قديمًا، لأنّني كنت سأشعر بالألم في الحالتين. لو كنت مالكًا كنت سأشعر بالغبن، ولو كنت مستأجرًا كنت سأشعر بالظلم حتّى لو كانت ممارسته قانونيّة وإن كانت غير فاضلة. لذا آمل أنّني سأعرض للموضوع أو نظرتي فيه بموضوعيّة. فالمالك القديم يتعذّب إذ يرى أنّ استثماراته لا تعطيه شيئًا، وبالتالي يرغب في حلّ هذا الموضوع عبر رفع قيمة الإيجار بنسب محترمة ومقبولة أو البيع بأسعار واقعيّة. لماذا يستثمر الانسان في أيّ قطاع إذا لم يكن هنالك عائد، علمًا أنّ مصدر النموّ والتنمية هو الاستثمارات المنتجة؟ أمّا المستأجر القديم، فهو يسكن بأسعار رخيصة تبعًا للسنة التي استأجر خلالها. المستأجر يعلم تمامًا أنّ قيمة الإيجار بخسة، لكنّه يستفيد من قانون ظالم وضعته أسفًا المؤسّسات الشرعيّة اللبنانيّة. لا أفهم وجود مستأجرين لا يستعملون الشقّة ويحتفظون بها للاستفادة من أرباح مستقبليّة يمكن أن تأتي. لا أفهم وجود مستأجرين بأسعار بخسة يورثون الإيجار لأولادهم وربّما لأحفادهم أي يعمّقون الظلم. هنالك فارق كبير بين القانون والأخلاق، والمهمّ أن نصل إلى الاثنين معًا.

صحّحت القوانين العقاريّة جزئيًا الإيجار التجاريّ، أي لم تعط المالك حقّه لكنّها أرضته، كما لم يحتجّ عليها المستأجر الذي يستفيد تجاريًا من المأجور. لذا المطلوب من الدولة وضع حلول وسطى فيما يخصّ إيجار السكن القديم، خاصّة أنّها هي سبب المشكلة أو أصلها. كلّ الأسعار والأجور ارتفعت، فلماذا هذا الاستثناء الظالم؟ أليس الإيجار جزءًا من الانفاق الطبيعيّ والعاديّ للمواطن كما الغذاء والنقل؟ أليس الإيجار دخلاً للمستثمر؟ إنّ وضع أو تمديد قوانين بهذا الشكل غير مقبولين لا في الواقع ولا في المنطق، وهي غير أخلاقيّة لأنّها تظلم قسمًا من اللبنانيّين.

بدأت قوانين الإيجار الثابت في الولايات المتحدة وأوروبا خلال الحرب العالميّة الثانية لتجنّب التهجير، وحافظوا عليها لسنوات قليلة بعد انتهاء الحرب لتجنّب ارتفاع الإيجار بعد عودة الجيوش والمحاربين إلى مدنهم للاستئجار والسكن. في الولايات المتحدة، فرضت الخضّات الشعبيّة والتضخّم المرتفع في السبعينات وضع قوانين للإيجار الثابت منعًا لتفاقم الأوضاع المعيشيّة والاجتماعيّة. في كلّ حال أنتجت قوانين الإيجار الثابت ارتفاعًا كبيرًا في الإيجارات عندما أزيلت لأنّها خنقت الأسواق بشكل غير طبيعيّ. هكذا كان حال الأسعار والأجور عندما ثبّتها الرئيس نيكسون لأشهر قليلة، فعادت لتحلّق ارتفاعًا عندما أزيل السقف.

نعلم جميعًا أنّ المالك ليس بالضرورة غنيًا، والمستأجر ليس بالضرورة فقيرًا. هنالك مالكون ينتظرون آخر الشهر أو الفترة المعتمدة لتحصيل الإيجار للعيش. هنالك مستأجرون قدامى أغنياء، لكنّهم يستفيدون من قانون جائر، فيما هم قادرون على شراء شقّة أو منزل أفضل بكثير ممّا هم حاصلون عليه عبر الإيجار. في الحقيقة، لا أستطيع أن أقبل أن يستمرّ شخص ميسور في استئجار شقّة قديمة من مالك غير ميسور متّكلاً على قانون يعرف تمامًا أنّه جائر، ولو كان هو مالكًا لرفضه منذ الساعة الأولى. إذا وضع المالكون القدامى والمستأجرون القدامى أنفسهم بعضهم مكان بعض، أي بدّلوا مواقعهم فكريًا لـ ٢٤ ساعة فقط، لسهل الحلّ بالتعاون مع مؤسّسات الدولة، لأنّها هي المسؤولة عن خلق مشكلة تخطّاها معظم، إن لم نقل كلّ دول العالم.

في لبنان وللأسف، مشاكلنا بدءًا من السياسة إلى الاقتصاد، تنبع من القطاع العامّ الذي وجد أصلاً لتسهيل حياة المواطن وجعله يعيش بشكل أفضل. لكن في الواقع، هل يمكننا أن ننتظر حلولاً إيجابيّة من دولتنا في وضعها الحاليّ وقبل سنة من الانتخابات النيابيّة حيث لكلّ صوت قيمة؟ السعر الأفضل في الاقتصاد هو الذي ينبع من التقاء العرض والطلب، أي السعر التوازنيّ. أمّا إذا كان السعر دون التوازنيّ، فيحصل شحّ أو نقص في الأسواق بسبب زيادة الكميّات المطلوبة عن المعروضة. سنعرض المشكلة بإيجاز ونحدّد نتائجها أوّلاً، ثمّ نحاول إعطاء أفكار حلول في ظروف دقيقة كالتي نعيش فيها.

أوّلاً: عندما يكون السعر دون سعر التوازن بين العرض والطلب، يحاول المستهلكون الحصول على أعلى الكميّات الممكنة والاحتفاظ بها. هذا هو حال الإيجارات القديمة حيث يعرف المستأجر أنّ السعر رخيص ويحتفظ به متجاهلاً الواقع. على سبيل الطرفة،

مستأجر قديم قال لي إنّ إيجاره مقبول وعادل وربّما مرتفع، لأنّه لا يستعمل المنزل إلاّ شهرًا واحدًا في السنة. مستأجر آخر لا يريد حلولاً لأنّ أيّ حلّ جديد لن يناسبه، وبالتالي هدفه الحفاظ على العقد الحاليّ.

ثانيًا: للأسعار الثابتة نتائج اجتماعيّة وخيمة، إذ في حال الإيجار لا تقع المشكلة فقط بين المالك والمستأجر، وإنّما أيضًا بين المستأجرين أنفسهم حيث يتفاوت الإيجار لنفس الشقّة تبعًا لتاريخ العقد بحيث يشعر المستأجر بالسعر الأعلى أنّه مغبون بالرّغم من أنّ الإيجار رخيص. يؤثّر الإيجار الثابت سلبًا على توزّع المسكن بشكل فاعل بين المواطنين، إذ لا يستفيد منه الذين هم بحاجة قصوى إليه كما يقضي الحقّ والمنطق.

ثالثًا: أوضاع الأبنية القديمة سيّئة، إذ لماذا يقوم المالك بالصيانة والتأهيل عندما يتقاضى إيجارًا بخسًا؟ أوضاع الأبنية القديمة مقلقة، ولا بدّ أن يفهم المستأجرون هذا الواقع ويطالبون بحلول واقعيّة تنقذ سكنهم. ما نفع الإيجار الرخيص إذا سقطت الأبنية وطار المنزل، دون الكلام عن الضحايا البشريّة والخسائر الماديّة؟

رابعًا: أثّر قانون الإيجار الثابت على كميّات الشقق المتوافرة للإيجار لسنوات طويلة وبالتالي أثّر سلبًا على الحركة الاقتصاديّة وعلى الماليّة العامّة كما على أوضاع الشباب. فالمستثمرون ولمدّة طويلة أنشأوا للبيع فقط، علمًا أنّ الأسعار فاقت قدرات اللبنانيّين وخاصّة الطبقات الوسطى وما دون. عندما انتقلنا إلى القانون الحالي الذي يحرّر الإيجار ويحدّده بـ ٣ سنوات، ظلم المستأجر الذي يمكن أن يطرد بعد انتهاء المدّة أو يقبل بإيجار جديد أعلى.

من غير المقبول الانتقال من قانون يظلم المالك إلى آخر يظلم المستأجر. هل من الضروريّ أن تظلم دولتنا دائمًا كلّ أو قسمًا من المواطنين.

ما هي الحلول الممكنة؟

أوّلاً: لا يمكن إيجاد الحلّ المتوازن الذي يساهم في تعزيز الاستقرار الاجتماعيّ إلاّ بتعاون الأطراف الثلاثة أي المالك والمستأجر والدولة التي خلقت المشكلة. المطلوب، إذا لم تنتج الجهود الحاليّة حلاً، أن تكلّف لجنة من الاختصاصيّين المستقلّين وضع الحلّ الموضوعيّ المقبول إذ من الصعب التحاور بين أصحاب مصالح في أجواء حوار وطنيّ عامّ محتدّ لا تدعو للاعجاب والتقدير.

ثانيًا: الحلّ الأنسب يقضي برفع قيمة الإيجار القديم بنسبة نصف معدّل التضخّم الرسميّ، والعودة لعقدين من الزمن إلى الوراء أي إلى تاريخ انتهاء الحرب. يجب بعدها رفع الإيجار سنويًا بنسبة ٥٠٪ من مؤشّر التضخّم الرسميّ. يجب إعطاء الفرصة للمستأجر للشراء بنسبة ٦٠٪ من القيمة الحاليّة للمسكن أو التعويض عليه من قبل المالك للإخلاء بنسبة ٤٠٪. يمكن للدولة أن تشارك في التعويض لأنّها أساس المشكلة، وهنالك مصادر دوليّة للتمويل في قضايا اجتماعيّة كهذه. هذا حلّ يمكن أن يريح الفريقين. عند الخلاف من ناحية مَن يستفيد من الحلّ، يلجأ الفريقان إلى القضاء. لن يتحقّق حلّ بفرضه على فريق لا يقبل به أو يظلم منه. ليست هنالك حلول تفرح الجميع، بل هنالك إمكانيّة تطبيق حلول تريح الجميع وتسهّل الحياة الماديّة والأخلاقيّة.

المطلوب إنهاء هذه المشكلة عبر المنطق، لأنّ المصالح المتضاربة واضحة ولن تكون هنالك حلول فضلى بل ممكنة. اللجوء إلى العقل والعدل هو الأساس ولا يمكن التمييز بين مواطنين. إعطاء المالكين حقّهم هو كإعطاء المستهلك أو المرأة أو الطفل أو الضيف حقوقهم أيًا كانت طوائفهم أو مذاهبهم. قطار العدل لا بدّ وأن يسير باتجاه فاضل لبناء اقتصاد سليم.

المستشفى الحكوميّ واجبٌ وحقّ

نموذج «البوار» مع د. شربل عازار

في ظلِّ ظروفٍ معيشيّة صعبة، بل خانقة أحيانًا كثيرة، ثمّةَ تطلّعٌ حثيثٌ صوب وزارة الصحّة العامّة والمستشفيات الحكوميّة، أي صوب دولة الرعاية والعناية. ومن واجب الدولة أن تؤمّن المواطنَ في حقِّه في الطبابة والدواء والاستشفاء، ولاسيّما متى كان معوزاً حقّاً، وما من ضامنٍ له أو تأمينٍ. وليس لأحدٍ أن ينكرَ عليه هذا الحقّ أو يذلّه فيه ويستهينَ بكرامته.. ويمنّن!

ومن هذا المنطلق، شئنا أن نسلّط ضوءاً على الموضوع من خلال رئيس مجلس إدارة- مدير مستشفى فتوح كسروان الحكومي- البوار، الدكتور شربل عازار، المعروف هو وسائر أعضاء مجلس الإدارة بالغيرة والإقدام والحرص على المصلحة العامّة على ما أثبتت التجربة، في محاولةٍ لتعميم الفائدة أو التذكير بها:

كيف تنظر إلى المستشفيات الحكوميّة في لبنان؟ هل تثق بها؟ هل تدخل إليها للمعالجة؟

هذه الأسئلة وسواها، لو طرحناها على المواطنين ستتنوّع الإجابة عنها كلٌّ بحسب منطقته ومنطقه وتجربته والصورة المسبقة لديه. أتفهّم جميع وجهات النظر، لأنّ مجرّد الإشارة الى مؤسّسات الدولة قد يعني بالنسبة للكثيرين الفوضى والروتين والمحسوبيّات وتدنّي مستوى الخدمة...

للأسف، هذه الصورة غير واقعيّة وغير صحيحة تعميمًا ودائمًا. وأستطيع الجزم أنّ عددًا لا يستهان به من المستشفيات الحكوميّة يضاهي بجودة تقديماته الطبيّة والفندقيّة أفضل المستشفيات الخاصّة، ولن أسمّي.

فمنذ صدور القرار بإنشاء مؤسّسات إستشفائيّة عامّة مستقلّة (يعني مستشفيات حكوميّة مستقلّة) في العام ١٩٩٦ بموجب القانون رقم ٥٤٤ تاريخ ١٩٩٦/٠٧/٢٤ المعدّل بالقانون رقم ٦٠٢ تاريخ ١٩٩٧/٠٢/٢٨، قفزت المستشفيات الحكوميّة قفزة نوعيّة جدًّا ووثبت بسرعة صوب النجاح، إذ استلم إدارتها مجالس إدارة متخصّصة من القطاع الخاصّ، الذي يُشهد له بالتفوّق في لبنان.

صحيح أنّ حريّة ومطواعيّة مجالس الإدارة مقيّدة بمجموعة قوانين ومراسيم تحدّ من اندفاعتها، إلاّ أنّ هذه التشريعات، وإن كان تجب إعادة النظر فيها بشكل دائم، لا تمنع المستشفيات الحكوميّة من التطوّر وسلوك طريق النجاح والإزدهار.

المستشفيات الحكوميّة في لبنان تستقبل جميع المرضى من لبنانيّين وأجانب. بالنسبة للأجانب، معالجتهم تتمّ على نفقتهم أو نفقة شركات التأمين إذا كانوا مؤمّنين، لأنّ الدولة اللبنانيّة بالمبدأ لا تغطّي نفقات علاج الأجانب. أمّا اللبنانيّ فله الحقّ في الاستشفاء في المستشفى الحكوميّ مهما كان وضعه الصحيّ أو التأمينيّ.

المشمولون بالتغطيات العامّة كالضمان الاجتماعيّ أو المؤسّسات العسكريّة والأمنيّة وتعاونيّة موظّفي الدولة وغيرها من الإدارات أو الذين لديهم تغطية من شركات التأمين، معلومٌ أنّهم كلّهم يعالَجون على نفقة المؤسّسات التي ينتمون إليها.

أمّا فيما خصّ المواطنين غير المشمولين بأيّ تغطية، فمعالجتهم تتمّ على نفقة وزارة الصّحة العامّة، فيدفع المواطن خمسة بالمائة من قيمة الفاتورة الإجماليّة فقط، يضاف إليها في بعض الأوقات بعض الزيادات غير المشمولة بتغطية الوزاراة. لكن، وبكلّ تأكيد تبقى فاتورة المستشفى الحكوميّ جزءًا يسيرًا من فاتورة المستشفى الخاصّ بالنظر إلى فروقات وزارة الصحّة العامّة.

بكلّ صدق يجب النظر بكثير من الإيجابيّة الى المستشفيات الحكوميّة، ويجب الإستفادة من خدماتها الجيّدة، فهذا حقّ لجميع الموطنين. وأسمح لنفسي أن أتكلّم بفخر وتفاؤل عن مستشفى فتوح كسروان الحكوميّ- البوار؛ فقد أصبح في مدّة وجيزة جدًا (مضى سنتان تقريبًا على استقبال أوّل مريض فيه) مثالاً للمؤسّسات الحكوميّة الناجحة والمميّزة، حتّى أنّي اقترحت على المسؤولين إمّا تحسين صورة المؤسّسات الحكوميّة في عين المواطنين، وإمّا إلغاء كلمة حكوميّة عن المؤسّسات العامّة الناجحة.

وعن مستشفى فتوح كسروان الحكوميّ- البوار، هذه اللمحة التاريخيّة:

سنواتٌ طويلةٌ مرّت منذ ولدت فكرة إنشاء مستشفى حكوميّ في هذه المنطقة، وصولاً إلى تحقيق هذا الحلم الكبير.

فقطعة الأرض التي عليها المستشفى (حوالى ٢٩٠٠٠ م.م) بدأ استملاكها لصالح الدولة اللبنانيّة في عهد الرئيس الياس سركيس، ثمّ في عهد الرئيس أمين الجميّل، وانتهت المعاملة في عهد الرئيس الياس الهراوي. أُنجز البناء في عهد الرئيس إميل لحّود عام ٢٠٠٠، وعيّن أول مجلس إدارة في ٢٠٠٥/٠٣/٠٣. وفي عهد الرئيس ميشال سليمان افتُتح المستشفى، وبدأ استقبال المرضى فعليًا في بداية العام ٢٠١٠ .

وكيف وصل المستشفى إلى ما وصل إليه اليوم؟

وسط الظروف البالغة الصعوبة المعروفة، بدءًا من اغتيال الرئيس الحريري إلى حرب تمّوز إلى معارك نهر البارد فحوادث أيّار فاتفاق الدوحة، نشط مجلس الإدارة (المحامي إميل مخلوف، الدكتور توفيق مرعب، المهندس الياس عوّاد، المهندس أديب الهاشم) بيدٍ واحدةٍ وتصميمٍ أكيدٍ وإصرارٍ كبير وفي كلّ اتّجاه، لتجاوز الصعوبات الإداريّة والروتينيّة والتقنيّة من أجل تجهيز المستشفى بأسرع وقت ممكن.

فكان الأمل يكبر مرّةً ويختفي مرّات (تنتهي المناقصة ويرسو الإلتزام ثمّ تعود الأمور بسحر ساحر إلى نقطة الصفر). ونعاودُ الكَرّةَ بعد الكَرّة.. إلى أن والحمد لله استطعنا أن نقول اليوم: صحيح تعبنا، بس لقينا.

وفي التفاصيل، لا بدّ من الإشارة أوّلاً إلى أنّه يوم استلم مجلسُ إدارة المستشفى مهامّه، كان مرصودًا لإعادة تأهيله وتجهيزه مبلغ مليون وسبعمائة ألف دولار أميركيّ فقط، وهو مبلغ زهيد جدًا لا يكفي لتصليح المبنى.

فلدى إطّ لاعنا على وضع المبنى والأقسام المنشأة، تبيّن لنا أنّه لم يتمّ لحظ أقسام عديدة تُعتبر أساسيّة كالعناية الفائقة وغسيل الكلى والسكانر وتفتيت الحصى والعناية بالمولودين الجدد والعيون والأنف والأذن والحنجرة وجناح مستقلّ للأطفال وغيرها وغيرها، فراجعنا المسؤولين المعنيّين وقلنا لهم أنّه لا يجوز في قلب منطقة كسروان الفتوح وجبيل أنشاء مستشفى من دون هذه الأقسام، وإلاّ فلنسمّ المستشفى مستوصفًا كبيرًا. فتجاوبوا وصدر القرار بتوسيع المستشفى وإضافة هذه الأقسام وتأمين المال اللازم لذلك.

والقصّة تطول إذ شئنا المتابعة في هذه التفاصيل: من مراجعة وزارة الصحّة العامّة ومجلس الإنماء والإعمار، وسعيٍ لتأمين قروض خارجيّة، وملاحقةِ عمليّة التلزيم حتّى يوم الافتتاح وبدء التشغيل وتكشّفِ ويلاتٍ ومصائب لا تخطر ببال في الإمدادات والبنى التحتيّة على السواء،.. ما اضُطرّنا إلى البدء في استقبال المرضى من جهة والمباشرة بورشة التصليحات التي تتواصل حتّى اليوم من جهة أخرى.

المهمّ أنّنا أجرينا أوّل عمليّة جراحيّة في بداية العام ٢٠١٠. وخلال أقلّ من سنتين أجرينا أكثر من ثلاثة آلاف عمليّة جراحيّة، واستقبلنا حوالى ستّة آلاف مريض، وساهمنا مجّانًا بالصور الشعاعيّة للوقاية من أمراض سرطان الثدي لحوالى ألف وخمسمئة إمرأة.

إذًا، ما هي الأقسام التي تعمل في المستشفى حاليًا؟

قسم أمراض الطبّ الداخليّ في كلّ اختصاصاته: أمراض الجهاز الهضميّ- أمراض الغدد والسكري- أمراض الضغط والكلى- أمراض القلب والشرايين- أمراض الصدر والرئتين- الأمراض المُعدية- الأمراض السرطانيّة وغيرها وغيرها

قسم العناية الفائقة- قسم طبّ الأطفال- قسم التنظير.

قسم الجراحة: جراحة العظم والعامود الفقريّ- الجراحة العامّة- جراحة الشرايين- جراحة الغدد- جراحة الأطفال- جراحة المسالك البوليّة- الجراحة التجميليّة- الجراحة النسائيّة

طبّ وجراحة العيون- الفحوصات المخبريّة- الصور الشعاعيّة والصور الصوتيّة Echographie-وصور الثدي Mammographie- العيادات والمعاينات الخارجيّة لكلّ ما عدّدناه أعلاه.

وتمّ افتتاح قسم التوليد (ولادات طبيعيّة وولادات قيصريّة)، وقسم طبّ وجراحة الأنف والأذن والحنجرة. وهذا العام ٢٠١٢ هو عام تركيب جهاز سكانر وافتتاح قسم الطوارئ وقسم جراحة الرأس وقسم غسيل الكلى.

وطبعًا هناك القسم الإداريّ المجهّز بأحدث برامج الربط الالكترونيّ.
ناهيك عن أقسام التعقيم والمطبخ والمغسل والصيانة والمستودع والأرشيف وصيانة الحدائق.

ونستطيع التأكيد أنّ أطبّاءنا وممرّضينا يتمتّعون بمهارات علميّة عالية وكفاءات مميّزة باعتراف الجميع. وكذلك هي حال الخدمة الفندقيّة ونوعيّة الطعام والنظافة وغيرها. فنحن متمسّكون بأعلى معايير الجودة الطبيّة والفندقيّة.

وماذا عن التعاقدات؟

إنّ مستشفى البوار الحكوميّ هو مستشفى متعاقد مع جميع الهيئات الضامنة أي وزارة الصحّة العامّة والضمان الاجتماعيّ والجيش وقوى الأمن الداخليّ والجمارك وتعاونيّة موظّفي الدولة وشركات التأمين.

والمستقبل؟

إنّنا نسعى، وبطرق مختلفة (منح وهبات) لإكمال تجهيز هذا المستشفى البالغ الحيويّة في هذه المنطقة من لبنان.

وكلمة بعد..

وإذا كان لنا من كلمة بعد، فهي دعوةُ مواطنينا إلى الإفادة من خدمات هذا المستشفى، ونصرته كقضيّة إنسانيّة وطنيّة وسط منطقة تستحقّ وتستأهل.. ويحقّ لأبنائها أن يأخذوا ولو قليلاً ممّا أعطَوا ويعطون من دونِ مِنّة!

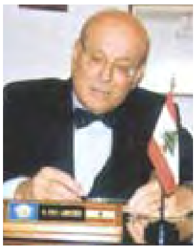

د. جورج أبو جودة
سفير الأمم المتحدة سابقًا

أولويّات بيئيّة ملحّة
حوادث السير وسياسة النقل: إلى الأسوأ!!

تُطلّ علينا شمسُ الخامس من حزيران كلّ سنة، والذي هو يوم مجيد في تاريخ الانسانيّة، ولها كالعادة بريق خاصّ يضيء الواقع البيئيّ المحزن وما آلت اليه الأمور في وطننا بحيث لا يغدو هناك مجال لتبرير أيّ تقصير في المعالجات المطلوبة.

لقد ردّدت مرارًا، وخصوصًا في السنوات الأخيرة بعد انتهاء الحرب «القذرة» عندنا، أنّه من الملحّ جدًّا وضع سياسة متطوّرة للنقل يصار إلى تطبيقها سريعًا بآليّة تنفيذيّة فعّالة. غير أنّ الملاحظ أنّ الأيّام تسارعتْ وأمورًا أخرى كثيرة فرضت أولويّتها، فلم يتمّ وضع تلك السياسة الشاملة والمتكاملة التي من أهمّ عناصرها تنظيم قضايا استيراد السيّارات والسير والطرق الدوليّة وداخل المدن وخصوصًا الكبيرة منها. ولا شكّ في أنّ لهذا الوضع انعكاسات وتفاعلات بيئيّة على أكثر من صعيد مثل حوادث الطرق وتلوّث الهواء والأمراض الناتجة عن ضجيج السيّارات. ولا بدّ لي من أن أذكر في هذا السياق أنّ النسبة الحاليّة لحوالى ٤٠٠ سيّارة لكلّ ١٠٠٠ شخص، تعتبر عالية جدًّا في بلد كلبنان، موجودة في معظمها في المناطق الحضريّة.

وهكذا نرى أنّ حوادث الطرق في تزايد مستمرّ، (تحصد سنويًا ما يقارب ألف ضحيّة) ممّا يتسبّب في مآسٍ إنسانيّة كبيرة، إضافة إلى مشكلات بيئيّة واقتصاديّة مدمّرة. ومن ناحية أخرى، فإنّ الوضع تدهور أكثر فأكثر مع البدء بتطبيق منطقة التجارة الحرّة الأوروبيّة المتوسطيّة في سنة ٢٠١٠، تسارع لتدارك ذلك بوضع سياسات ملائمة لمواجهتها. ثمّ إنّه من المفيد جدًّا في هذا المجال التذكير كذلك بالتوقّعات التي أصدرتها الخطّة الزرقاء (Plan Bleu) التابعة للاتحاد الأوروبيّ وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة، من أنّ أكثر من ٧٠ بالمئة من سكّان بلدان جنوب البحر

المتوسّط، ونحن منهم، سيعيشون في سنة ٢٠٢٥ في المدن وخصوصًا في المدن الساحليّة. ممّا يعني أنّ الضغوطات على الموارد الطبيعيّة من مياه وأراضٍ وعلى الشواطئ ستزداد كثيرًا وتصبح الحاجة أكثر إلحاحًا لحلول رؤيويّة سريعة تقوم بها اليوم قبل الغد.

عطفًا على ذلك، فإنّ منظّمة التعاون والتنمية الأوروبيّة (OECD) قدّرت تكاليف ازدحام السير في المناطق الحضريّة من الدول الأعضاء فيها بخمسة بالمئة من الناتج المحليّ، وتشمل كلفة الطاقة والتلوّث والوقت الضائع، الخ... أمّا في لبنان فلا شكّ أنّ هذه النسبة هي أعلى، نتيجةَ عدم انتظام السير بشكل غير مقبول إطلاقًا، بحيث تؤدّي الاختناقات إلى المزيد من استهلاك الطاقة والتلوّث والوقت، إضافة إلى الاستهلاك غير الطبيعيّ للسيّارات (المستوردة كليًا) وأمراض الأعصاب التي تتلفها تلك الاختناقات الخ...

وفي ضوء كلّ هذه الوقائع ونحن في مطلع القرن الواحد والعشرين، قرن العولمة التي لا ترحم كلّ من لا يستطيع مجاراتها بسياساته

الانفتاحيّة المتقدّمة، وهنا أودّ أن أطلق صرخة لأقول إنّ الأمور لا يمكن أن تستمرّ كذلك لأنّنا تجاوزنا الخطّ الأحمر!! فالمطلوب أن نسرع في وضع تلك السياسة المتطوّرة للنقل كما ذكرتُ آنفًا والبدء بتطبيقها بآليّة تنفيذيّة فعّالة وحاسمة.

وبالإضافة إلى ما ذكرتُ آنفًا عن موضوع عدد سيّارات الركّاب وتنظيم الاستيراد، أودّ أن أذكر عناصر مهمّة أخرى يمكن أن تنظّمها تلك السياسة ومنها :

١. تنظيم برنامج تلفزيونيّ أسبوعيّ يقوم به المسؤولون عن قضايا السير بالتعاون مع المجتمع الأهليّ من أجل التوعية والإرشاد. وكذلك من أجل إظهار أسباب حوادث السير ونتائجها الكارثيّة بشريًا واقتصاديًا وبيئيًا، مع التشديد على ضرورة الانضباط والتقيد بقانون السير، وإلاّ فإنّ العقوبات ستكون قاسية جدًا على المخالفين كما هي الحال في مختلف بلدان العالم المتطوّرة منها والنامية كذلك: (العقاب الموجع يردع السائقين المتهوّرين!) فالعقوبة في دولة قطر وفي دولة الإمارات العربيّة المتحدة تصل مثلاً إلى ١٥٠٠ دولار أميركيّ؛ وكذلك فهي عالية جدًا في الدول المتقدّمة.

٢. يجب تقوية وتنظيم النقل المشترك بطريقة علميّة حضاريّة طبّقتها دول كثيرة. فأزمة النقل الحضريّ لا تُحلّ إلاّ باعتماد النقل المشترك بمعناه الحقيقيّ المطبّق في العالم المتحضّر، وليس «لمسخ» المعتمد في العاصمة بيروت وغيرها من المدن الكبرى، حيث تفاقمت نتيجةً لذلك أزمة السير وزاد التلوّث كذلك بشكل قتّال ذات أبعاد خطيرة حاضرًا ومستقبلاً.

٣. تعميم الأرصفة في جميع طرقات المدن وتمكين المواطنين من استعمالها لتنقّلاتهم لا أن تكون «مرتعًا لاستراحة» السيّارات عليها.

٤. تعميم جسور المشاة فوق الطرق السريعة بشكل مكثّف، ما يساعد في انضباط المشاة والتقليل من حوادث السير. وفرض غرامة عالية على كلّ مخالف.

٥. وضع أجهزة حديثة لقياس نسبة التلوّث في أماكن معيّنة من المدن، بحيث تؤمّن الإنذار اللازم للمسؤولين لتفادي النسبة العالية غير المقبولة. وهنا يمكن التعاون مع القطاع الخاصّ في تأمين هذه الأجهزة وإداراتها بإشراف المؤسّسات الرسميّة المختصّة. والتجربة الحاصلة مع المعاينة الميكانيكيّة يمكن الاستفادة منها وتطويرها بحيث يقطع دابر الفساد من التنفيذ والذي ظهر هذه الأيّام بوجود سيّارات (تاكسي خصوصًا) تنقصها المعايير الأساسيّة اللازمة للسلامة العامّة.

وفي الختام أجد من المفيد استذكار العنوان الذي اختارته منظّمة الصحّة العالميّة للاحتفال بيوم الصحّة العالميّ في ٧ نيسان ١٩٩٦ وهو «المدن الصحّية»، التي من أهمّ سماتها أنّها «توفّر مجالاً للمتعة والترويح عن النفس يسهّل التفاعل والاتصال بين مواطنيها». فلنجعل هذا العنوان شعارًا لنا في معالجة قضايا السير والتلوّث في المدن قبل فوات الأوان. فإنّ قضيّة السير إجمالاً وحوادث السير على الأخصّ يجب ألاّ تترك للمصادفة. فحياة الانسان أغلى من كلّ تضحية ماديّة أو تنظيميّة في سبيل الوقاية من حوادث السير، ضمن إطار السياسة الشاملة التي نكرّر الدعوة إليها كما في الماضي ونرفع الصوت عاليًا لوضعها ضمن الأولويّات البيئيّة والانسانيّة الملحّة وإلى تنفيذها بكلّ صرامة ودقّة.

د. جورج لبكي

الربيع العربيّ بين الديمقراطيّة والبلقنة

انطلقت شرارة غربلة الأنظمة الديكتاتوريّة في العالم العربيّ منذ أكثر من عام، بعد عقود طويلة من الاستبداد، خُيّل فيها للمواطن العربيّ أنّها لن تنتهي يومًا. بدأت المرحلة الجديدة وسط ذهول المجتمعات العربيّة أمام سرعة انهيار أنظمةٍ كان يُخيّل أنّها لا تُقهر بسبب سطوتها وظلمها وقمعها لكلّ تحرّك مطلبيّ، أو حتّى لمجرّد الخروج ولو البسيط عن الضوابط المفروضة.

لم تمرّ أيّام قليلة حتّى سقط النظام التونسيّ. وعملاً بنظريّة الدومينو في السياسة، انتقلت عدوى الديموقراطيّة إلى مصر، الدولة العربيّة الأكثر سكّانًا واللاعب السياسيّ الأساسيّ في العالم العربيّ. كان لسقوط النظام المصريّ دلالات قويّة، أبرزها أنّه من الممكن إسقاط أيّ نظام ديكتاتوريّ حتّى في مصر التي قيل فيها: رجالها عبيد لمن حكَم!

وما لبثت أن امتدّت السبحة إلى ليبيا، التي كان يحكمها نظام دمويّ، لم تَعرف غطرستُه حدودًا، بحيث أنّه اختزل البلاد بحاله المَرضيّة. وأخيرًا، وليس آخرًا، انتقلت العدوى إلى سوريا وبلدان الخليج واليمن.

ولكن، هل هذا هو الربيع العربيّ الموعود؟

هل المسألة مسألة تحرّر شعوب، أم استعمار آخر يعود إلى المنطقة بثوب جديد، طمعًا بثروات وخيرات ونفط؟

هل الوقت مناسب لاندلاع الثورات؟

هل العربيّ- وهو الذي يعاني من التخلّف- جاهز للديمقراطيّة؟

أَوَليس الأمن أفضل من الفوضى التي قد تُحدثها الديموقراطيّة؟

الواقع أنّنا اليوم نعيش تحوّلاً كبيرًا، هو الأبرز بعد الحرب العالميّة الأولى، نتيجةً لديناميّة تاريخيّة فرضتها متحوّلات كثيرة، أخصّها: العولمة، وثورة الاتصالات، والتخلّف، وإرادة العيش الكريم لدى الشعوب.

صحيح أنّ الثورات تقضي على الأخضر واليابس، وتقتل المذنب والبريء، وتدمّر البنى التحتيّة، وتقلب رأسًا على عقب المعادلات

والتوازنات العتيقة والمجوّفة التي أكل عليها الدّهر وشرب؛ والثورة الفرنسيّة التي حصدت عشرات آلاف الضحايا على مدى ثمانية عقود من الزمن خيرُ دليل على ذلك!

وبإيجاز، يمكن تلخيص أبرز أسباب الربيع العربيّ بما يلي: العولمة، التخلّف والفقر، ثورة الاتصالات، ظهور المجتمع المدنيّ، المطالبة بالحريّة كلازمة أساسيّة للنظام الاقتصاديّ الليبراليّ (libéralisation et libéralisme)، صعود الحركات الإسلاميّة، وأخيرًا وليس آخرًا سقوط الاتحاد السوفياتيّ أكبر ديكتاتوريّة دمويّة في القرن العشرين والعالم المعاصر. كان سقوط الاتحاد السوفياتيّ عظيمًا. وصلت تردّداته إلى كلّ العالم، فسقطت الديكتاتوريّات في جنوب أميركا- باستثناء كوبا الدولة المتخلّفة- وأفريقيا (دول جنوب الصحراء الكبرى)، والآن وصلت الموجة إلى آسيا والعالم العربيّ. لقد حَرم سقوطُ المنظومةِ الشيوعيّة الديكتاتوريّةَ من دعم روسيا وأميركا معاً.

المسألة الشرقيّة La question d'Orient

تعود المسألة الشرقيّة إلى القرن الثامن حيث كانت أوروبا تتصارع على اقتسام الإمبراطوريّة العثمانيّة، أو ما سُمّي «الرجل المريض». وقد أخّر جشع وتناحر الدول الأوروبيّة على هذا الإرث سقوطَ

السلطنة العثمانيّة أكثر من قرنين، حتّى الحرب العالميّة الأولى. ثمّ أقرّ مؤتمر Versailles عام ١٩٢٠ بحقّ القوميّات والأثنيّات، التي كانت تتكوّن منها السلطة، بإنشاء كيانات مستقلّة في أرمينيا والعراق وسوريا- التي قُسّمت وقتها إلى أربع دول- وغيرها.
بيد أنّ هذه المحاولات فشلت لأسباب عديدة، أبرزها: الظهور المفاجئ لأتاتورك، والدعم الخفيّ الذي تلقّاه من الغرب نفسه بسبب تلويحه بالعلمانيّة وبإلغاء الخلافة، وكذلك المصالح الاقتصاديّة الغربيّة التي عادت ووحّدت بعض هذه الدول ضمن إطار دولة مركزيّة أو تخلّت عن بعضها الآخر (كأرمينيا والدولة الأشوريّة في العراق). ارتأت الدول الغربيّة، وخاصّة فرنسا وبريطانيا، إنشاء دول كبيرة مركزيّة يَسهُل حكمها، من دون الأخذ في الاعتبار خصوصيّات هذه الشعوب. وأمّا الوسيلة لتبرير خلق هذه الكيانات الاصطناعيّة، فكانت مفهوم الدولة القوميّة (état- nation) التي ظهرت في أوروبا في القرن السابع عشر بعد صراعات عديدة وطويلة.
وجاء عصر الاستقلال في الستّينات من القرن الماضي، فنالت هذه الدول استقلالها. وسرعان ما قُضي على ديمقراطيّاتها الناشئة بانقلابات عسكريّة داخليّة، بدعم من قطبَي القرن الماضي. كان المهمّ حفظ الوضع الموروث Statu quo والاستقرار، حتّى ولو على حساب الحريّات وكرامة الانسان والعدالة.
إنّ اندلاع الربيع العربيّ أعاد فتح المسألة الشرقيّة على مصراعيها. فأيّ مصير لهذه الدول القوميّة القائمة على عروبة مترهّلة وهزيلة؟ هل ستستطيع الأنظمة الجديدة المنبثقة من الثورات العربيّة إدارة السلطة وإعطاء الأقليّات والطبقات الاجتماعيّة المختلفة حقوقها؟ فموضوع حقوق الأقليّات وحقّ تقرير مصير الجماعات مطروح إذًا أكثر من أيّ وقتٍ آخر. ولم يعد من الممكن بالتالي قمع هذه الجماعات أو التخلّص منها بسهولة. كما أنّه يعود لها أن تحافظ على خصوصيّاتها في ظلّ عولمةٍ نمت على حساب الدول القوميّة. وهل يُعقل أن لا يكون للأكراد، وعددُهم يناهز الثلاثين مليونًا، أيّ كيان أو حقوق خاصّة بهم؟ من الصعب تصوّر استمرار الوضع الحاليّ بدون تغيير (Statu quo).

البلقنة أم دولة الحقّ والعدالة؟

إنّ نجاح الأنظمة الجديدة في الحفاظ على وحدتها ودولها يتوقّف على توافر شروط عديدة، أبرزها: إقامة أنظمة ديمقراطيّة قريبة من النمط الغربيّ، إقامة دولة العدالة والقانون، القيام بعمليّة إصلاح اجتماعيّة تربويّة تعتمد المفاهيم المعاصرة للتربية والتنمية خاصّةً أنّ معظم هذه البلدان تعاني من الفقر والتخلّف على أكثر من صعيد.
إنّ تلافي خطر التفتّت يكمن في القدرة على الوصول إلى توازن (Compromis) بين مختلف مكوّنات الدولة، بحيث تقبل الجماعات المختلفة بشرعيّة السلطة.
بيد أنّ التحدّي الأكبر للديمقراطيّة هو ظهور الحركات الإسلاميّة المتشدّدة، ووصولها إلى السلطة، وفوزها في معظم الانتخابات التي أجريت حتّى الآن. إنّ الحركات الإسلاميّة تطرح نفسها كبديل عن الديمقراطيّة، وتضع في المقدّمة نظامًا مرتكزًا بالأساس على الشريعة. والواقع أنّ المشكلة الحقيقيّة ليست مع الدين أو مع الشريعة، بل تقوم على الخوف من أن تقيم الحركات الإسلاميّة أنظمة حكم، ظاهرُها ديمقراطيّ وباطنُها متشدّد. فحتّى اليوم لا يوجد حالة تمّ فيها تداول فعليّ للسلطة بين نظام إسلاميّ متشدّد ضمن إطار انتخابات ديمقراطيّة. كما أنّ بعض الفتاوى تبعث على القلق. أمّا المثال المطروح، وهو الديمقراطيّة على الطريقة التركيّة، فدونه والديمقراطيّة الحقيقيّة مراحل. صحيح أنّ هذا النظام أكثر ديمقراطيّة من سابقاته، ولكنّه يمارس التسلّط على معارضيه، وينكر على الأقليّات حقوقها. وممّا يَزيد في تعقيد الأمور على الصعيد الأديولوجيّ أنّ العروبة في أزمة؛ فهي من جهة لم تستطع مواكبة المتغيّرات في الشرق الأوسط، ومن جهة ثانية تتعرّض لضغوطات حول مشروعيّتها، من الحركات الإسلاميّة، التي تطرح فكرة القوميّة الإسلاميّة (Islamo- naturale).
وبالنهاية، يتطلّب الحفاظ على الدول الحاليّة اعتماد الشفافيّة في الحكم والديمقراطيّة البرلمانيّة أو شبه الرئاسيّة، واقتسام للسلطة والتنمية، والاعتراف بالتعدّديّة والتنوّع. ولم لا؟ فالإمبراطوريّة العربيّة قامت على التنوّع الذي كان يشكّل مصدر قوّتها وثروتها. آن الأوان للتخلّي عن المركزيّة المطلقة في الحكم. أمّا ثمن عدم السير بهذه المفاهيم فستنتج عنه فوضى كبيرة تُحِلُّ اللادولةَ مكان الدولة مع حدّ أقصى يقود إلى التفتّت أو العودة إلى نظام «الملّة» العثمانيّ. أوليس معظم روّاد الربيع العربيّ ينحون باتجاه النمط التركيّ للديمقراطيّة؟

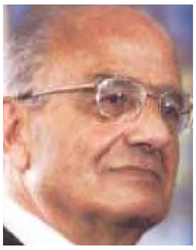

د. أنطوان يوسف صفير

لئلاّ تُنسَى خفايا المؤامرة:
إسرائيل في فلسطين

هل تلك حقًّا أرضُ الميعاد؟

منذ العام ١٩٤٨ والصراع العربيّ الإسرائيليّ مادّة دسمة في مائدة تأريخ الحدثان على مساحة هذا الشرق التعس بأبنائه الجهلة أو المغلوب على أمرهم.

والسؤال: لمَ تكون إسرائيل جمرَ الحروب الكامنة تحت رماد الأحداث تتغذّى بها وتغذّيها وتوقدُ النارَ حين يشاءُ أو لا يشاء القدر؟

«أرتور بلفور» بصفته أوّل وزير من حزب المحافظين، وحدَه كان يعرف أنّ كلّ حراك سياسيّ يحمل طابع المفاجاءات وغير المتوقّع من الأحداث. تعيّن وزيرًا للشؤون الخارجيّة في الحكومة الائتلافيّة برئاسة واحدٍ من ألدّ أعدائه «ديفيد لويلد جورج» أثناء الحرب العالميّة الكبرى.

إعلان بلفور

لكنّ بلفور هذا لم يكن ليأخذ منه العجب ودهشة الاستغراب، لو قُيّضَ له أن يدرك ما آلتْ إليه من نتائج وتداعيات رسالته تلك التي وجّهَها إلى اللورد «روتشيلد» في الثاني من نوفمبر ١٩١٧، وجاء فيها: «إنّ حكومة صاحبة الجلالة تنظر بعين الرضى إلى إقامة وطنٍ قوميّ للشعب اليهوديّ في فلسطين. وسوف تعمل قصارى جهدها لتحقيق هذا المشروع، ويبقى معلومًا جدًّا أن لا أمر يحدث من شأنه أن يُلحق ضررًا بالحقوق المدنيّة والدينيّة للمجموعات من غير اليهود في فلسطين، أو ينال من حقوق اليهود المقيمين في أيّ بلدٍ آخر أو من نظامهم السياسيّ الخاصّ».

Le Gouvernement de sa Majesté envisage favorablement l'établissement en Palestine d'un foyer national pour le peuple Juif et s'emploiera de son mieux à faciliter la réalisation de ce projet, étant bien entendu que rien ne sera fait qui puisse porter tort aux droits civils et religieux des communautés non Juives en Palestine ou aux droits et statut politique des Juifs résidant dans tout autre pays.

بموضوع هذه الرسالة- الوعد من جانب «بلفور»، لا بدّ من فضح ما انطوت عليه من مفارقات عجيبة ومغالطات منافية للمنطق والقياس، وتخطٍ للأعراف المؤسّساتيّة وقواعد التراتبيّة في رسم سياسة الدول أوّلاً. هذا الوزير ينصّبُ نفسه متكلّمًا أحاديًا باسم حكومة صاحبة الجلالة. السؤال هنا: هل حكومة صاحبة الجلالة هي حقًّا التي بحثتْ وناقشتْ واتّخذت هذا القرار، ثمّ فوّضتْ إلى وزير خارجيّتها صلاحيّة إعلانه وتبلغيه إلى ذوي الشأن؟.. ثمّ في سجلّ تدوين وتأريخ مقرّرات جلسات مجلس الوزراء البريطانيّ زمن ذاك، هل ثمّة من أثر لذلك؟

وثانيًا، ما هذه الكذبة الكبيرة وهذه الخدعة الفرّيسيّة المشينة المموّهة بأن **«لا أمر يحدث من شأنه أن يلحق ضررًا بالحقوق المدنيّة والدينيّة للمجموعات من غير اليهود في فلسطين...»** ورأس مجريات الأمور وخطط الاستيطان ومؤامرة التهجير كان استئصال الفلسطينيّين من أرضهم في عمليّات الإبادة والتهجير والتهويد الصارخ للأرض ومتابعة الاستيطان اليهوديّ وبناء جدار الفصل والتمييز وإعلان القدس العاصمة الأبديّة للدولة اليهوديّة.

وثالثًا، يقابل هذه الخدعة الفرّيسيّة المجافية لكلّ حقّ ومنطق تعهّدٌ بنفي جميع مضامينها، حيث يؤكّد صاحب الوعد بأنّ **«لا أمر يحدث وينال من حقوق اليهود المقيمين في أيّ بلد آخر أو من نظامهم السياسيّ الخاصّ...»** هل إلى هذا الحدّ يكونُ الاستخفاف بالعقل البشريّ كما بعقول الناس والحكّام ممّن ناصروا وأيّدوا وعد بلفور وما زالوا بعد أربعة وستين عامًا: دعمٌ لليهود الصهاينة في الداخل، ودعوة تأييد ليهود الخارج في «أيّ بلدٍ آخر، ونصرة لنظامهم السياسيّ الخاصّ»؟ فغير خافٍ على أحد ما يستبطن ذلك من تسهيل هجرة يهود الخارج إلى الداخل الفلسطينيّ تحت غطاء هذه الوعود المموّهة.

مع وعد بلفور، وبعد ٦٤ عامًا على المؤامرة الكبرى بغرز الحربة القاتلة في خاصرة هذا الشرق البائس.. دخل العقل البشريّ عصر البَلَه والهلوسة.

وبعد، وبالعودة إلى السياق التاريخيّ في مقدّماته ونتائجه، يتّضح الآتي: إنّ التزام الحكومة البريطانيّة تجاه المسألة اليهوديّة كان من باب العمل الدبلوماسيّ الذي تفرضه مصالح الدولة البريطانيّة: قبل ١٩١٤ كان الشرق الأوسط بغالبيّته محميّة تركيّة، وكانت الإمبراطوريّة العثمانيّة على

مشارف انحطاطها وتفكّكها. وأكثر ما كان يشغل بال المفوّض البريطانيّ المنتدب سايكس بيكو هو مصير فلسطين، ذلك أنّ هذه المنطقة كانت ذات حدود مشتركة مع مصر، حيث البريطانيّون يمسكون ليس فقط بالمرافق والإدارات العامّة بل وبحامية أهمّ طريق تجاريّ حيويّ هو ممرّ قناة السويس. من جهة أخرى فرنسا كانت تطالب بفلسطين كجزءٍ من سوريا حيث لها، ومنذ أيّام الصليبيّين، مصالح ومنافع خاصّة.
وبدورها روسيّا أيضًا كانت شديدة الاهتمام تطالب بالحماية الدوليّة للأماكن المقدّسة في فلسطين.
أمّا سايكس بيكو فكان شغله الشاغل الحدّ من طموحات هاتين الدولتين: فرنسا وروسيّا، وهو بذكائه لم يجعلهما تشعران بأنّ بلاده تخشى وجودهما على الحدود الشرقيّة لمصر، فرأى أنّ قيام دولة يهوديّة مستقلّة في فلسطين بحماية وكفالة بريطانيا، يضمن الحلّ لهذه المعضلة. وكان من الحكومة البريطانيّة أن أقرّت طرحًا مخفّفًا لهذا المشروع وقدّمته إلى القادة اليهود في رسالة بعث بها بلفور إلى اللورد روتشيلد. وقد اختار هذا الوقت بالتحديد ليطرح إعلانه ليس بسبب الظروف الدبلوماسيّة في الشرق الأوسط، ولكنْ بقدْر ما كان في ذلك خدمة للموجبات العسكريّة في الجهة الغربيّة. ففرنسا وبريطانيا كان يساورهما الشكّ بحتميّة الانتصار النهائيّ، ويرغبان في إقناع الولايات المتحدة بالمساهمة في الجهود الحربيّة، نظرًا لثروتها كما لعديدها البشريّ. وكان بلفور يهدف إلى دفع مجموعة الضغط اليهوديّ الكثيفة لمساعدة سياسة التدخّل في أوروبا.
أمّا اليهود فقد اغتبطوا بقبولهم عرض بريطانيا العظمى في مساعدتهم لإقامة الدولة اليهوديّة في فلسطين.
إلى هنا نتوقّف لنستخلص الحقائق التالية: إنّ وعد بلفور وما تساقط عنه وترتّب على نتائجه من مآسٍ وويلات خلال أربعة وستين عامًا، والحبلُ على الغارب.. إنّما تشكّل جميعًا في الأصل والنتيجة شبكة مرعبة لتوافق مصلحتين في حيّز معيّن في زمن التاريخ: مصلحة القوى العظمى هي دول الغرب، ومصلحة ملّة عنصريّة متزمّتة استفاقت من غفوة التاريخ على قرع طبول الذاكرة. والتقت المصلحتان على حساب أرضٍ اغتُصبتْ باسم «ذيّاك الإله» وعلى حساب شعبٍ هُجّر وشُرِّد وذُبح وأشلاءُ ذاكرته مُعلّقة على أسوار أورشليم، مدينة السلام.

.. ولا بأس، في المناسبة، أن نستذكرَ رسالة **نزار قبّاني** من تحت التراب، التي طلب ألاّ تُنشرَ إلاّ بعد وفاته (١٩٩٨/٤/٣٠):

من عالمي الجميل،
أريد أن أقولَ للعرب..
الموتُ خلف بابكم..
الموتُ في أحضانكم..
الموتُ يوغلُ في دمائكم..
وأنتم تتفرّجون..
وترقصون.. وتلعبون..
وتعبدون أبا لهب!!!
والقدسُ يَحرقُها الغزاة..
وانتمْ تتفرّجون..
وفي أحسنِ الأحوال..
تُلقون الخُطب!!!
لا تُقلقوا موتي..
بآلافِ الخطب!!!
أمضيتُ عمري أستثيرُ سيوفَكم..
واخجلتاه...
سيوفُكم صارت من خشب!!!
من ها هنا.. أريدُ أن أقولَ للعرب..
يا إخوتي..
لا.. لم تكونوا إخوةً!!
فأنا ما زلتُ في البئرِ العميقة،
أشتكي من غدركم..
وأبي ينامُ على الأسى..
وأنتم تتآمرون..
وعلى قميصي جئتم بدمٍ كذب!!!!!
واخجلتاه...
من ها هنا أريدُ أن أقولَ للعرب..
ما زلتُ أسمعُ آخرَ الأنباء..
ما زلتُ أسمعُ أمريكا تنام..
طوبى لكم.. طوبى لكم..
يا أيّها العربُ الكرام!!!
كم قلتُ ما صدّقتم قولي..
ما عاد فيكم نخوةٌ.. غيرُ الكلام!!!
لا تُقلقوا موتي..
فلقد تعبتُ.. حتّى أتعبتُ التعب..
من ها هنا.. أريدُ أن أقولَ للعرب..
ما زلتُ أسمعُ أنّ مونيكا تدافع
عن فضائحها..
وتغسلُ عارَها بدمائكم..
ودماءِ أطفالِ العراق..
وأنتم تتراقصون..
فوق خازوقِ السلام!!!
يا ليتكم كنتم كمونيكا..
فالعارُ يَغسِلُكم..
من رأسِكم حتّى الحذاء!!!
كلُّ ما قمتم به هو أنّكم..
أشهرتم إعلامَكم.. ضدّ الهجوم،
وجلستم في شرفةِ القصر
تناجونَ.. النجوم!!!!!
واخجلتاه...
ماذا أقولُ إذا سُئلتُ هناك.. عن نسبي؟؟!
ماذا أقول؟؟؟
سأقولُ للتاريخ..
أمّي لم تكن من نسلكم...
وأنا..
ما عدتُ أفتخرُ بالنَسب!!!!!
لا ليس لي من إخوةٍ..
فأنا بريءٌ..
فأنا بريءٌ منكم..
وأنا الذي أعلنتُ.. من قلبِ الدماء..
ولسوف أعلن مرّةً أخرى هنا..
موتَ العرب!!!!!

عبده لبكي

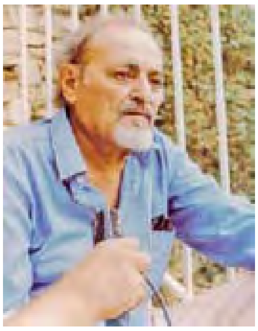

يوسف الخال أيّها الصّديق الثّلاثيّ الأبعاد
كَم أَفتَقدك بعد خمسة وعشرين عامًا

عرفته، وكانت مجلّة شعر هيكلاً على القمّة، له سَدَنتُه، ويؤمّه الباحثون عن الجديد من العالم العربيّ، ذلك الجديد الّذي ألبسه المحاربون درع القتال، وهو لمّا يزل طفلاً. وكانت بيروت في ألقٍ يستبدّ بالقلوب، لأنّها ربيبة الحرّيّة، حرّيّة الفكر وحرّيّة الثقافة، حرّيّة القول وحرّيّة التّطلّع، حرّيّة الإنسان في جميع أبعاده، ولاسيّما الأمل. ولعلّ هذه الحرّيّة هي الّتي استولدت الحرب من جوف قايين، فكانت وبالاً على الجمال وعلى الفنّ وعلى كلّ نزوعٍ إلى السّلام البنّاء...

أذكر يوم دخلت مكتبه في جريدة النّهار، تحملني غمامة من الأحاسيس الخفيّة، إلى حيث هيبة الشّعر وجبروته، بل عالمه المغامر الّذي رسمت حالته كلمات غير الكلمات، قدراتها الخارقة تعيد صنع العالم. يومذاك، كنتُ في العشرين، ولم يكن للأرض من حدود ما عدا ستارًا حديديًا كان حافزًا للفكر وغير الفكر رغم صَفاقَة معدنه. وأذكر أنّني بعد التّسليم وإلقاء التّحيّة، جلستُ مطمئنًا إلى تلك الشّخصيّة السّاحرة الّتي قرأتها شعرًا، وتأمّلت سماتها على صفحات الجرائد، يوم كانت تلك الجرائد تنعم بالخصب، وتنعّمنا به، وقبل أن تصبح كما هي اليوم، أي أَرضًا مفخّخةً لا تعد إلاّ باليباب.

جلست، قلت، مطمئنًا إذ أنست إلى ترحيبه ولطف استجابته لزيارتي، على الرّغم من غرقه بين الأوراق بين يديه، والّتي تكاد كانت، تتلقّف كلّ اهتمام بل كلّ حركة خارجيّة أو وجدانيّة، وخيّل إليّ أنّ تلك الأوراق، وما خُطّ عليها من شعر ومقالات وأدب، إنّما هي من الأنانيّة، بما لا يُسمح معها لأيّ دخيل، بأن ينتزع منها متعة أن تكون في تصرّف شاعر يحتضن الشّعر، متعة الاستسلام له طوعًا، يتصرّف في ما يمتلكه، حذفًا وتصحيحًا وتجميلاً وتصويبًا، دون أيّ التفات إلى سواها، وكأنّ همّها الأوحد أن تجعل همّه إيّاها. وقد استمرّ هذا الاستيلاء على حقيقة الشاعر في يوسف الخال، حقبة طويلة، تداعت إليها أسراب الشعراء من كلّ حدب وصوب، محلّقةً، تتخطّى الحواجز، ولكلٍّ منها هوّيته في الزمان والمكان، فيما تداعت الحدود على مساحة العالم العربيّ، من المحيط إلى الخليج. عذرًا لهذا الاستطراد الّذي كان لا بدّ منه إذ هو استباق لما سيأتي.

جلست، قلت، وكانت دعوة إلى مائدة نقاش حول الشعر والشعراء والحداثة، فإذا بي أمام رجل بلا شاطئ، بل أمام مغامر في رحلة «أوليسيّة»، حيث الحياة بحر مترامٍ لا بُدّ من اختباره، وحيث المواجهة حتميّة لا تَلين، وحيث الإنسان مدعوّ إلى اكتشاف جميع طاقاته، ما خفي منها وما ظهر، من أجل معرفة نفسه، أيًّا تَكُن وسيلته إلى التّعبير، متفلّتًا من قيودٍ عليه أن يستخدمها، ربّما ليقيّد بها أسباب قيده، ممّا يحيط به، أو ممّا يتوقّعه.

لقد كان يوسف الخال شغفًا بالحرّيّة يتمثّلها في كلّ مظهر وكلّ مشهد، يترصّدها في كلّ ما ينبض ويتنفّس، كأنّها طائر الجنّة. كان يعشق الحرّيّة، مؤمنًا بجوهرها، وبأنّها- وهذا ما كنت أشاطره إيّاه- في صميم الإبداع. إنّه العشق الفلسفيّ الّذي به تُكتنه أسرار الوجود، بل فيه يتحقّق وجودها، أي في عالم الأشياء وطبيعتها المتغيّرة. فالحرّيّة هي الثّابت، عبر ظواهر متحوّلة باستمرار، ولكنّها أيضًا من أسباب ديمومة تحوّلها، ولعلّ هذا ما حمل يوسف الخال على النّضال، رافعًا راية التجدّد والتجديد في الشعر، يقينًا منه أنّ الشّعر كفيل بأن يحدث ما نحن بحاجة إليه في عالمنا العربيّ، أيْ وجوب تغيير نظرتنا إلى حضارة الإنسان ونتاجه، على كلّ صعيد. ولم يكن يوسف الخال مخطئًا، إذ إنّ الحركة الفنيّة الّتي شملت الفنون التّشكيليّة آنذاك، وتجاوزت لبنان إلى جميع البلدان العربيّة، أسطع دليل على ذلك، فضلاً عن النّهضة المسرحيّة الّتي كان منير أبو دبس وريمون جبارة من أبرز أعلامها.

نعم، الحرّيّة في مفهومها الماورائيّ المطلق، لا في نسبيّة العوارض الماديّة وظروف ممارستها. الحرّيّة الّتي هي إرادة الله في خلقه، وغايته منه. وقد كان يوسف الخال مؤمنًا بعمق، ولطالما أصغت

نار الموقد شتاءً، في منـزله في غزير، إلى طويل حديثنا المتبادل حول هذا الموضوع.

توقّفت مجلّة شعر عن الصّدور بعدما أدّت دورها في تحرير الفكر العربيّ، وتفجير ينابيعه الخلاّقة الكامنة في أعماقه، مفسحة في المجال أمام الصّفحات الثّقافيّة، تتباهى بها الجرائد والمجلاّت، وفي طليعتها صفحة النّهار الثّقافيّة، الّتي أشرف عليها الشاعر شوقي أبي شقرا، أحد أعمدة الحداثة في مجلّة شعر، فجعل منها منبرًا للأقلام المبدعة، ونافذة على الثقافات العالميّة والشعر العالميّ.

ولم تنقطع رابطة الصداقة بيني وبين يوسف الخال، واستمررت أزوره في منـزله في شارع البطريركيّة، وفي قاعة العرض للأعمال الفنيّة الّتي كان قد أنشأها آنذاك.

وكم كان يفصح لي عن أمنيته في امتلاك منـزل ريفيّ يستقرّ فيه. فلم تلبث تلك الأمنية أن تحقّقت: منـزل في غزير قام بترميمه، فغدا محجّة للأدباء والشعراء والمفكّرين والفنّانين والأصدقاء، طوال إقامته وزوجته الشاعرة الفنّانة مها بيرقدار، وولديهما، ورد ويوسف.

في ذلك المنـزل الّذي عايشه الشعر، ليستعيد بعضًا من مائه المتفائل في زمن الحرب، كنّا نلتقي مع مجموعة من الشعراء والحالمين، هربًا من المأساة الّتي كانت أبرمت عقدها مع الشيطان.

وكثيرًا ما كنت أنتظر عطلة الأسبوع، لكي أتوجّه بسيّارتي إلى غزير. وهناك في حديقة المنـزل، كنّا نجلس نحْتسي القهوة، ونتجاذب أطراف الحديث، متطرّقين إلى قضايا الشّعر والسّياسة والمصير، وجميعها مترابط في الصّميم. وفي كلّ مرّة، كنت أزداد إدراكًا لحقيقة ثابتة، ألا وهي التحوّل الجذريّ في قناعات يوسف الخال السياسيّة، وتشبّثه بالخصوصيّة اللّبنانيّة كمثال مستقلّ. ولعلّ تجاربه المتعدّدة الحافلة بالخيبة، هي الّتي دفعت به في هذا الاتّجاه.

سقى الله تلك الأيّام الخوالي، فقد كانت من الغنى، بحيث أفاضت علينا من خيراتها الفكريّة، ما أيقظ البراعم من جديد...

وممّا لا يزال عالقًا في ذاكرتي، إحدى الأماسي الرّائعة، الّتي نسينا فيها الوقت، وقد اختطفه منّا حوار فلسفيّ راقٍ، جرى بين ثلاثة: المطران خضر، يوسف الخال، وأنا. وقد استمرّ هذا الحوار حتّى ساعة متأخّرة من اللّيل.

وكذلك لقاء مع أدونيس الّذي أعجب بمجموعتي الشعريّة باللّغة المحكيّة، فما كان منه إلاّ أن نشر معظمها في مجلّته «مواقف».

وكان يوسف الخال في تلك الفترة يروّج لنظريّة اللّغة المحكيّة، لا كما يراها سعيد عقل، بل كما ينظر إليها هو، من منظار أكثر دقّة وواقعيّة، وأوثق صلة بحقيقة اللّغة العربيّة وطبيعتها بعدما تطوّرت على الألسن. ففي رأيه، أنّ ما نتخاطب به اليوم ليس إلاّ لغة عربيّة خالصة، سقطت منها ظاهرة الإعراب ليس إلاّ؛ وأنّ كتابتها الإملائيّة يجب أن يُحافظ فيها على قواعدها الأصليّة، وبجميع حروفها، بحيث تكتب القاف «قافًا» وليس «آفًا» مثلاً: «حقل وليس «حأل»؛ وتكتب «التاء» بصورتها الحقيقيّة، ولاسيّما عند الإضافة مثلاً: «الوردة»، «وردة الحديقة» وليس «الوردي»، إذ ما مُبرّر أن تتحوّل «الياء» إلى «تاء» عند الإضافة؟ وأين المنطق في ذلك؟

وصدف أن عَرَضْتُ عَليه ذات يوم- ولم أكن على علم مسبق برأيه في تلك النظريّات اللّغويّة، وما ترسّخ عنده في شأنها من قناعة- فإذا بي أُفاجأ بما لم يكن منتظرًا. وأمام دهشتي، رفع يديه مهلّلاً وقال: هذا ما كنت أنتظره، وأردف: إذا كان لا بدّ من نتاج شعريّ يثبت صوابيّة ما أدعو إليه، فهو شعرك هذا، إنّه في صميم الحداثة. وعزم على نشر بعضه. كان شعرًا متفلّتًا من قيود الوزن والقافية الّتي تسجن الشعر باللّغة المحكيّة في قوالب الزّجل التّقليديّ، وتُلبسه ثوب العاميّة.

ولم يلبث بعد ذلك أن كتب على المنوال نفسه، فأصدر مجموعته الشعريّة باللّغة المحكيّة، تحت عنوان «الولادة الثانية».

يعتبر يوسف الخال أحد كبار روّاد الحداثة في الشعر، ويتميّز بشخصيّة قياديّة جعلت منه مرجعيّةً ثقةً، حتّى أُطلق عليه لقب بطريرك الشعراء. ومن الصّفات الّتي قلّما تحلّى بها شاعر، قدرته على الجمع بين تيّارات مختلفة، قد تتناقض في المدرسة الواحدة، لاعتباره أنّ التنوّع الديمقراطيّ في الإبداع، دليل ديناميّة، وحافز على التجدّد. وإذا كان ثمّة من نقد، فإنّما بالنقاش وتبادل الآراء في سياق جدليّة رائية، تستشرف المستقبل، ولكن دونما خروج على الأصول والمبادئ.

مع البئر المهجورة، بدأت هجرة الشاعر نحو أرض أكثر خصبًا، ولكنّه لم يرد أن يكون مهاجرًا دون رفقاء، فنادى، وسمع نداءه كثيرون، فلبّوا، وكانت قافلة مجلّة شعر الّتي جابت الأقاصي. وحيثما حطّت الرحال، حفرت آبارًا جديدة...

إنّها رحلة شقّ خلالها يوسف الخال بحرًا من الرمال، وبنى للشعر خيامًا بلا أسباب ولا أوتاد، فحرّر التجربة الشعريّة دون أن يتنكّر لقواعدها، أو يخلّ بأصول المنطق الّذي يضمن استمرارها التّواصليّ.

لم يخرق يوسف الخال مبدأ التفاعل بين الكلام الشعريّ والفهم، مهما بدت الصورة الفنّيّة عنده بارزة في إطار الذاكرة، سواء ذاكرة المعاني المتوارثة، أو تلك الّتي أرسلت جذورها الشفّافة في تربة المفاهيم القيميّة والقوميّة. وهو ظلّ في جميع ما كتب قريب التناول، يخفر مسيرتَه الرّياديّة حذرٌ من الانجراف في تيّارات مستوردة، لم يكن يثق بأبعادها، ذلك أنّ ذاته المجتمعيّة الّتي تأبى التّقوقع، قد بدّدت دوافع الأنا إلى النأي عن معاناة الإنسان المشرقيّ، فإذا به يتصدّى لقضاياه المصيريّة، سواء على المستوى الاجتماعيّ أو على المستوى التاريخيّ أو على المستوى الماورائيّ. ففي معظم قصائده، نرى إنسانًا تجرّد من يوميّاته الصّغيرة ليغدو شاهدًا يحتوي العالم.

ولم يكن يوسف الخال ليؤخذ دهشًا إلاّ أمام الموهبة، ينبوع الإبداع الّذي يدفع بالتّاريخ إلى الأمام. ولكنّه يتحفّظ على دور المرأة في ذلك، ولطالما أسرّ إليّ قائلاً: «المرأة ضدّ التّاريخ»، قاصدًا أنّها في أنانيّتها الطفوليّة، تُريد امتلاك المُبدع وإبداعه، بحيث تصبح وحدها القضيّة على حساب التاريخ.

لم يُصَب يوسف الخال يومًا بداء العنجهيّة، ولم يسقط في خطيئة الكبرياء، لكنّه كان متمسّكًا بعنفوانه وصلابته، حتّى خلال مرضه الّذي تمكّن منه، ولكن دون أن يُذلّه.

وأذكر مرّة أنّه بكى، وهو يَروي لي بعضًا من ماضيه الّذي تلألأ في دمعتَين، انحدرتا على وجنتيه، وارتسمت على شفتيه ابتسامة هازئة بهزء القدر. ولم يكن ليتساهل إزاء نفسه، مجيزًا لها إظهار ما تكنّه من العاطفة. أمّا تفسير ذلك، فيمكن اختصاره في مفهوم الخال للضعف البشريّ، وهو في قرارته لم يرد يومًا أن يؤخذ عليه، حتّى ضمن حياته العائليّة، وهذا واضح في مقاربته الشعريّة لقضايا الإنسان الّتي أغفل في معظمها جانبها الوجدانيّ.

وكما رافقته مها بيرقدار خلال إقامته في غزير، منسحبًا إلى صومعته، يطلّ منها على عالم متغيّر، خؤون، كذلك شاركته في لمساتها الفنّيّة، فحقّقت فسحة للفنّ، وأخرى للشعر الّذي لم يكن هو ليمنحه جميع بركته، مصرّا على الاكتفاء بقناعاته.

إلاّ أنّ مها لم تكن تَني تُحافظ على العناصر المحيية، لما سبق وحقّقه يوسف الخال في عالم الشّعر، إلى أن فاجأه المرض، وَلم يلبَث أن أقعده، فلازمته مها في المستشفى، تقوّي من عزيمته، وتواجه معه أشدّ الأيّام قَسْوةً.

وعندما غادرنا يوسف الخال، دون أن يهن له موقف اعتنقه أو آمن به، كانت السّماء غائمة على أهبة أن تمطر، ولكنّ شعرًا تخزّن في أحشائها، كان لا بدّ من إعادته إلى الأرض لكي تحيا من جديد.

الشّعر الزجليّ في كسروان

جان كميد

يولد الكسروانيّ زجّالاً كما يولد الإيطاليّ رسّامًا أو نحّاتًا.

ففي تبادل القفشات والنكات بين شخصَين في جلسات السمر والأنس قد يكون الكلام المتبادل بينهما بلغة التحادث العاديّة أو قد يجري على وزن وقافية، فبالنسبة إلى الكسروانيّ لا فرق بين هذا أو ذاك.

ولطالما حضرتُ مثل هذه المناظرات تنطلق فيها القّرادة ارتجالاً دون استعداد مسبق، ودون أن يكون الفريقان على معرفة بأنّ الجلسة ستؤول إلى ذلك، بل تتشعّب المناظرة بينهما إذ يجرّ الحديث إليها عفوًا، أو تأتي تلبية لطلب مفاجئ وإلحاح من الحاضرين.

أمّا أرباب هذا الزجل، أو «القَول» كما يسمّيه أفراد الشعب، فأناس عاديّون: قرويّون فلاّحون أو أصحاب مهن، أو من ذوي الحِرَف البسيطة: قزحيّا فرح قزيلي النّدّاب المعروف، والعطّار حامل الكشّة والعصبيّ المزاج بصورة محبّبة أنطون معوّض (بو فارس أو بو فرّوس) وكلاهما من غوسطا؛ ومسيح الخوري، الفتوحيّ من نهر الدهب. أذكرهم جميعًا بسراويلهم والطربوش على الرأس، والمداس في القدمين. وأنطون خيّاط (الرزّي) وواكيم سعادة، وكلٌّ منهما «كوّى» ومنظّف للثياب. ونقولا يعقوب صفير (أو نقولا العفيش)، الحلاّق واللّحام معًا، من عجلتون. وحنّا أسعد صفير من ريفون. ويوسف الخويري سائق السيّارة العموميّة الذي كان يسلّي الركّاب بشعره وصوته على الطريق، وقد انتمى إلى الجوقات الزجليّة بفعل براعته وأُطلق عليه لقب «الشاعر»، فلم يُعرف سائقًا بقدر ما عُرف شاعرًا. وفريد بلاّن نجّار الموبيليا. ونعمان صعب ضو من حارة صخر، الذي أنعم الله عليه بموهبة الرسم إلى جانب موهبة الشعر، وظلّ مغمورًا مجهولاً في الشعر والرسم على السّواء. وحنّا سابا، القبضاي الغوسطاويّ الذي كان يقرن القوّة والمراجل إلى الزجليّات اللطيفة في ساعات صفوه ورواقه؛ وابنه أنطوان صاحب النقدات الزجليّة اللاذعة، ومَثَلُها عندما توجّه بهذين البيتين إلى أحد الثقلاء، فقال لاعبًا على التشابه اللفظيّ بين ثقل الدمّ وثقل الوزن:

قدّيش كانوا عالخزينه موفّرين   بالنافعه لوفيك كانوا عارفين
تحدلا من دون زيت وبنزيـــن   تا كلّ درب اللي حداله بدّهـا

وليس الشرطيّ في بلديّة غوسطا إميل باسيل بخاتمة هذه السلسلة التي ينتظم فيها الكثيرون.

ونحن إذ نذكر أمثال هؤلاء فلا يفوتنا وجود شعراء علَوا بالزجل عن الصفة الشعبيّة إلى مواضيع فكريّة، كالشاعر نديم الأشقر من ساحل علما الذي يسير سيرًا صاعدًا إلى مستوى الشعراء الكبار، وله صِنوٌ هو حنّا الياس محاسب من حيث أنّ كليهما ينحو في شعره منحى التأمّل في الماورائيّات، وفي الكون والوجود، والحياة والموت، والخير والشرّ وما إلى ذلك، ومثلهما الشاعر منير وهيبة الخازن صاحب «يأجوج ومأجوج»، والشاعر الياس خليل.

نعود إلى الشعراء الظرفاء والظرفيّين في الوقت نفسه، فنراهم ذوي نقدات طريفة تناولوا فيها أشخاصًا ذوي شكل غير مرغوب أو صفات غير مستحبّة. فهذا نقولا يعقوب صفير يقول في الجمجمة الصلعاء لمواطنه، الزجّال أيضًا، يوسف البرَيدي:

هالقرعه قرعة سباع   لا بتنشرى ولا بتنبـــاع
لا من برّا عليها شَعـر   ولا من جَوّا فيها نخاع

وهذا شاعر آخر يقول في ثقيلٍ اعتاد حمل مسبحة «طقطق» في يده:

خْليل الحجّ ومسبحتـو   قاديشات وتشبحتو
حْكَمتْ عليه تقيلْ الدمّ   من أوّل مرّه لمحتـو

و«اللسان الفالت» في الحديث العاديّ له مثيله أيضًا في الشعر الزجليّ، خصوصًا متى كان صاحبه «شيخًا». والمشايخ معروفون بالنكتة «المالحة»، فكيف بـ«القَول» الذي من نوعها. والشيخ يوسف شاهين الخازن هو أخو راس الشيخ خليل من هذه الناحية. فهذا للنكتة التي من تحت الزنّار، وذاك للكلام الموزون صياغةً و«غير الموزون» معنىً إذا فهمنا بالوزن هنا الاتّزان والكلام «المرتّب» غير الخارج على حدود اللياقة والآداب، فيكون الكلام «غير الموزون» عكس ذلك. حتّى أنّ مثل هذه اللطائف الزجليّة كان يجري أيضًا على ألسنة شعراء الفصحى والأشخاص المثقّفين. فهذا يعقوب فيّاض، وله في الفصحى قصائد رائعة البيان، متينة البنيان، يقول في صديقه المحامي سمعان زوين، الذي كانت قد تقدّمت به السنّ فأطاحت بطاقته الرجوليّة دون أن تذهب بالرغبة

الباقية معتلجةً في نفسه:

بعدا نفسو خضرا كتير والمعده مش قطّيـــعه

وكان ردٌّ عليه من سمعان لا يصحّ نشره علنًا ما دامت العقليّة السائدة لا تسمح بإيراد هذه الأشياء على المكشوف.

ومن شعراء الزجل «على الماشي»، أي إذا استدرجت إليه المناسبة، الإداريّ جورج قازان، وله رقائقُ أيضًا في الفصحى. ها هو يخاطب صديقه الشاعر بولس أسعد الشرتوني بقوله:

بولس أسعد شرتوني جنونو مطابق عا جنوني

يمّا منسكن بيشرتون يمّا بتسكن بجونيـــــه

تلك صور من حياة الناس في كسروان، وهي تتكرّر في حياتهم اليوميّة وتشكّل، بالنسبة إليهم، شيئًا روتينيًا كقراءة جريدة أو احتساء كأس، فما يكاد اثنان يجتمعان في سهرة حتّى يبدأ «القَول» بينهما تلقائيًا أحيانًا دون حاجة إلى استدراجه أو طلبه.

يُنهي فريد بلاّن ونعمان صعب عملهما النهاريّ، فيَدلفان مساءً إلى بيت الشيخ خليل الخازن المجاور لقضاء السهرة. ويبدأ فريد بنكرزة نعمان واصفًا «البابور» الذي عاد فيه من الأرجنتين وصفًا كاريكاتوريًا هزليًا، فيردّ عليه نعمان قائلاً:

بابّور الأنا جيت فيه ما شفتو بعويناتك

إذ كان فريد بلاّن يضع على عينيه نظّارتين سميكتين.

وكانت ساحل علما من تلك القرى التي أطلعت «قوّالين» خلّفوا لنا تراثًا شعبيًا هو من أَولى ما يجب المحافظة عليه، لأنّه يعكس وجه القرية اللبنانيّة في حقبة من الزمن.. هووجهها النقيّ الصافي قبل أن يشوّهه الاختلاط السكنيّ وامتداد العمران الحديث إليها ذاهبًا بطابعها التراثيّ وصورتها التقليديّة. وأوّل هؤلاء «القوّالين» في «الساحل» زمنيًا هو شكري القسّيس، الذي كان يؤلّف جوقة زجليّة ثنائيّة مع زميله الغوسطاويّ يوسف فرنسيس البرّي، فيتطارحان الزجل أمام هُواته، ويمازح القسّيس رفيقه بهذه «العنتريّات»:

يا يوسف يا ابن فرنسيس، عا نفسك خلّيك حْريص (حريص)

داري عُقيد القوّالي بيقلّك شكـــــــري القسّيـــــس

الغضبان وعنتر والزير بالوغى ما يهمّوني

عا كلّ الفرسان قْدير والطاردني راح رخيص

ومن أدب النثر العاميّ في ساحل علما في ذلك العهد تلك الرسالة التي بعث بها ساحلانيّ مهاجر إلى ذويه وعشرائه في الضيعة عندما رمته الأقدار في جزيرة كريت اليونانيّة وهو في طريقه إلى المغترَب الأميركيّ، فوصف فيها حاله مع الحشرات والبراغيث والنمال التي دبّت عليه دبيبًا في الليل وهو نائم. إنّ هذه الرسالة يصحّ تسميتها من عيون الأدب الشعبيّ لما فيها من تصوير فنيّ للوقعة التي وقعها كاتبها حتّى كاد أن يرثي نفسه وهو يندب حظّه العاثر.

وفي عودة إلى الشعر في «الساحل» يطالعنا وجه وديع الأشقر، والد نديم الذي أتينا على ذكره. إنّه، أي وديع، صاحب أشعار حكميّة من تلك التي يصحّ اتخاذ مضمونها دستورًا في الحياة:

ساير رفقاتك ومْشي بِيطيبة خاطر

معك مش راح تاخد شي غير صيت العاطر

وهو شعر يسير على وزنين مختلفين في الصدر والعجز، والثاني أقصر من الأوّل، ممّا يجعل للسياق وقعًا حنونًا مؤثّرًا في النفس يَزيد المعنى رقّةً وعاطفة. وهي طريقة أطلقها الشعراء المحدثون خلال موجة التجديد للشعر العاميّ ولم تكن معروفة لدى شعرائه التقليديّين، فيُعَدّ انتهاجها من قِبَل وديع الأشقر سبْقًا شعريًا ناجحًا كشاعر ينتمي إلى ما قبل قيام الموجة التجديديّة.

وجه آخر بارز من شعراء ساحل علما يتمثّل في زخيا الياس الأشقر، ومن شعره ما يدلّ على أخلاق اللبنانيّ الأصيل، المحافظ على المبدأ لا يحيد عنه ولو كلّفه ذلك حياته، والعنفوانيّ في ترفّعه وإبائه، يسترخص جدًا مَن يجده منحدرًا عن تلك المراقي الخُلُقيّة وهابطًا إلى درك الصغائر والتفاهات، فيقول:

يا ثرثري معروف، يا نمّام، يا مَن سْعيت بهدم عمدتنـــا

منضمّ مهما تختلق أوهام أنقى من الروباص سمعتنـــا

ومن جهّتي لو جارت الإيّام ببقى على المبدأ القويم الحرّ

ولو علّقوا المرسه برقبتنا

وإلى جانب زخيا الأشقر يأتي قوّالون من أمثال توفيق برهوش، وجرجي عبدالله برهوش، وجرجي الحكيّم المعروف بـ«الصاحب»، وبولس البرباري، كما أتى على إثرهم أعضاء الجوقة الرباعيّة التي تألّفت عام ١٩٦٢، تحت اسم «جوقة حسّون الساحل»، من جوزف روبير برهوش، وجورج وديع السقيّم، وطانيوس جرجي نصر، وبرئاسة نديم وديع الأشقر. وقد استطاعت هذه الجوقة احتلال منزلة مرموقة بين الجوقات المماثلة التي كانت تضمّ شعراء ذائعي الصيت كجوقة الشحرور وجوقة الكروان وجوقة الزغلول، إلاّ أنّ حقل نشاطها ظلّ محليًا بوجه عامّ.

وفي العام ١٩٧١، بعد عشر سنوات على تأسيسها، خلا فيها مقعد بخروج جوزف روبير برهوش منها، فحلّ محلّه شاعر من غير أبناء البلدة هو بولس فهد.

هذا ويستمرّ الشعر حيًا في كسروان، زجليّه وفصيحِه.

د. عصام الحوراني

جوزيف نعمة

حكايات وأشعار في البال

«أُقسِم بالله إنّي أُطيع رؤسائي في كلّ ما يتعلّق بالخدمة التي انتُدِبتُ إليها. أُقسِم بالله إنّي لا أخون الشّرف، وإنّي في حال تأدية الوظيفة لا أستعمل القوّة المسلّحة إلاّ في سبيل تأييد النظام وتنفيذ القوانين»، وهكذا اختار جوزيف نعمة في آذار من عام ١٩٢٨ المؤسّسة الوطنيّة المكلّفة بتنفيذ القوانين والحفاظ على السلامة العامّة والنظام.

هذا الفتى كاد أن يُصبحَ في يوم من الأيّام راهبًا مريميًّا، ذلك أنّه عندما كان يدرس في مدرسة الأخوة المريميّين في دير القمر استهوته حياة الرهبان، وكان معجبًا بهم، وبخاصّة بمعلِّمه الذي أسرّ إليه يومًا أنّه يرغب بالانضمام إلى هذه الحياة المسيحيّة النقيّة. هكذا، وبعد موافقة الأهل توجّه برفقة معلّمه إلى دير سيِّدة اللويزة في زوق مصبح، وقابل رئيس الدير. ولكن، ولسبب ما عاد وتحوّل نحو حياة أخرى مغايرة، اختار الثكنة بدل الدير، ومشى في دروب هذا السلك العسكريّ باستقامة، ينهل من معينه معارف كثيرة، وقدرات متنوّعة، وتجارب مختلفة، راحت تخفق في أعماقه: واجبًا، وتضحيةً، ووفاءً، وإخلاصًا... واختار الكلمة التي كانت منذ البدايات نورًا يُضيء عتمات الإنسانيّة. لم ينسَ جوزيف نعمة المؤسّسة التي خدم في رحابها ما يُقارب الثلث قرن، فبعد إحالته على التقاعد عام ١٩٦٠، كُلِّف في آذار من عام ١٩٦١، من قِبَل قائد الدرك اللبنانيّ، بوضع تاريخ الدرك الخاصّ، وذلك بمناسبة مرور مئة سنة على تأسيس هذه المؤسّسة.

إنّي أتناول في هذا المقال نماذج من أدب جوزيف نعمة الخاصّ بالحكايات الشعبيّة والأشعار التي كانت في بال هذا الرجل الأديب الذي كان دوحة وارفة في الثقافة والعلم والفكر والأدب والتاريخ... فترك آلاف الصفحات ما بين مطبوع ومخطوط، والتي تحوي أكثر من ستّمئة موضوع في أمور الدنيا، والحياة، والطبيعة، والفكر، والتاريخ، والأنظمة، والشعر، والفنّ، والأدب، والتراث، وحكايات الناس وغيرها... لم يترك شيئًا يخطر في باله إلاّ ونطق به، وبحث في أمره من قريب أو بعيد، وتكلّم على مظاهره وخفاياه وتاريخه وأصوله، فكان باحثًا مدقِّقًا، منهجيّ الأسلوب. تعامل مع اللغة بمرونة وحذق ومهارة وعفويّة، فكانت طيِّعة لديه سليمة، وبلا تصنّع أو تكلّف، يستسيغها القارىء بشغف ومحبّة، ويطلب المزيد. لقد عرف جوزيف نعمة كيف يكتب للناس، كلّ الناس، فطعّم كتاباته وتاريخه وحكاياته وفكره وأدبه، بأقوال الناس وأشعارهم وأهازيجهم ومعتقداتهم وأغانيهم. وهكذا جعل القرّاء يُقبلون على أدبه بشغف، ينهلون منه ما لذّ وطاب، فينالون الثقافة والمعرفة، ويسعدون بألحان الماضي وحكاياته.
جوزيف نعمة يُلملم أشعارًا من عمق الوجدان في ماضي الزمان، يحتضن أدبًا حيّا سُطِّر بمداد التجارب المرّة والحلوة الكثيرة عبر السنين. لقد قدّم تلك الأشعار والحكايات إلى

الإنسانيّة في أعصرها المتعاقبة بثوب قشيب فيه حلاوة ومآثر وعِبَر وأمل وابتسامة وحياة. إنّه الباحث المدقِّق الرصين الذوّاقة، الذي كان يختصر الأزمنة والمسافات في عالم الأدب، ويُقدِّمه لنا أطباقًا شهيّة، وموائد عامرة، تُغذّي الأرواح وتُمتّع النفوس، ويحلو الكلام مع سيّد المقام.

تربّى جوزيف نعمة في كنف أسرة عريقة، تمتدّ بجذورها في عمق تاريخ لبنان الحديث، وكان أفرادها على اتّصال وثيق بالناس من مختلف الطبقات. هاجر والده إلى المكسيك مع أخيه مسعود في مطلع القرن العشرين حيث تاجرا وربحا مالاً وفيرًا، وأردف جوزيف نعمة: "ثمّ عادا إلى دير القمر شاخصين إليها في عربة يجرّها حصانان، ووراءهما رتل من عربات الأهل والأصحاب والمستقبلين، وعندما وصلا إلى «الدير» أنشدتهما امرأة من آل البستاني هذين البيتين:

آويها... غِيّابا رِجْعَــــــتْ   عا بْيوتها وِصْلَـــتْ
آويها... شَلْحتْ ثْيابِ السّفَرْ   كِسْبَـتْ وْما خِسْرَتْ....
لو لو لو لو.....

يقول: «فنفحها والدي بليرتين عثمانيّتين ذهبًا. ويردف: ولكن الذي غنمه أهلنا في المكسيك خسروه بتجارات صغيرة وبَهْوَرات، وديون عقدوها مع أهالي قرى القاطع، فمات المدينون في الحرب العالميّة الأولى، والذين سلِموا دفعوا بقايا هذه الديون ليرة ورقيّة مقابل كلّ ليرة عثمانيّة ذهب» (جوزيف نعمة، دير القمر عاصمة لبنان القديم، ص ٩)

لقد نهل من أحاديث الأهل والناس ومن رواياتهم أخبارًا كثيرة شهيّة ومهمّة، وحفظ ما كانت ترويه له والدته روز الربّاط من مقولات وأشعار وأخبار، نقلتها هي بدورها عن والدتها، وعن جدّتها لولو زوجة نصري الربّاط، الرجل الماهر في صناعة المنسوجات الحريريّة. يروي أنّ أسرة نصري الربّاط كانت من الأسر الحلبيّة التي كان قد استقدمها الأمير بشير الشّهابيّ الثاني الكبير من حلب، وذلك من أجل العمل في صناعة الأقمشة الحريريّة. وقد عهد الأمير إلى نصري هذا بصنع المنسوجات الحريريّة لأفراد أسرته من أميرات وأمراء وكبار المقرّبين إليه. ولولو زوجة نصري كانت تعرف الأمير الشهابيّ معرفة تامّة، نظرًا لتردّدها الدائم على قصر بيت الدين حيث كان يعمل زوجها. كانت تحكي لحفيدتها روز، والدة جوزيف نعمة، أخبار المير من خلال مشاهداتها الخاصّة، وكانت تصفه لها بأنّه كان ذا طلعة راعبة، وكان صوته يُدوّي كالرعد القاصف في أرجاء القصر.

وحدّثت روز حفيدتها أيضًا عن أنواع الحلِيّ والزينة التي كانت نساء ذلك الزمان يتبرّجن بها، ولاسيّما تلك التي تستعمل للرأس من مثال: الصفيّة، والغازيّة، والعاقوص، والطّاسة، والعسكريّة، والطنطور المخروطيّ الشكل الذي كان يعتلي رؤوس النساء ليلاً ونهارًا. وكذلك العقود منها، بحسب تسمية أيّام زمان: حبّ العبّ، حبّ تحت البلاطة، الصنوبريّة (البروش)، الإسوارة المشبّكة... كما حدّثتها عن أنواع الأقمشة التي كانت رائجة في ذلك الزمان، ومنها: «الستّ وبنتها»، «عرف كبير وعرف صغير»، «زعرك واشتريني» وهو القماش المحبوك بالقصب، وأيضًا: قماش «قشده بعسل» أي القماش المتماوج والمعروف لوقت ليس بالبعيد باسم «كريب ده شين». أمّا الأحذية فقد ذكرت لها منها: «الصّفا على القفا»، «الغنباز المفقّش»، «الطربوش المشموط»، «الزربول المقيطن»، «السرموجة»، «البحيريّة». وذكرت لها أيضًا أسماء النقود التي كانت متداولة في تلك الأيّام: الخيريّة، المصريّة، القمريّ، السّحتوت، أبو المتليك، البُشلُك، الزّهراوي، النّحاسة، المجيديّة، البرغوت الكبير، البرغوت الصّغير، البارة.

أمّا أشعار الحبّ بحسب مشاعر شبّان وبنات أيّام المير، فقد ذكرت السيّدة روز لابنها جوزيف ما نقلته عن لسان جدّتها لولو، نذكر منها هذا القصيد:

نِزِل دَمعي عَلى خَدّي، كِل دَمعة بِإيد- لو خيّروني غيركُم ما بريد...- بيحِق لي إبكي على الفرقة، ومْسَحْ كِلْ دمعَة بإيد- بيحِقْ لي إبكي على الفِرقة...- كِنّا اجتمعنا بَعِد ها الفِرقة- ولمّا نظَرتِكْ صار عندي عيد- لمّا نظرتِك زال عنّي الهمّ وراح...- يا قمَر مع نِجمة المِصباح...- يا وردْ جوري عاالخدود فتّح- يلبَقلق الشمّ ويزول عنّي الغمّ- واسقيتني كأس السمّ زاد مرار- يا كسر عظمي ما إلو جْبارْ- يا بو الجدايلْ عالِكتافْ مِرْخِيِّة- بتسوى ألفين رُبعيِّه- بتسوى ألفين وكرّة- يا حلو بالغرّة- فرقتك مُرّة- وشو طالِعْ بِالإيد...

وتغفو روز الصّغيرة بعد سماعها أخبارًا من أيّام المير، وتنهض الستّ لولو لتأوي إلى فراشها، فتُردِّد صلاة خاصّة بها: «الأب سور والابن حجاب، والروح القدس سدّ حديد وسدّ بولاد، يحرس هذا البيت وسكّانه من جميع البهائم والدبّابات، واللّصوص وأصحاب الغايات».

ويسأل جوزيف والدته أيضًا عمّا تحفظه من قصائدَ وأغانٍ، ولا سيّما تلك التي علّمتها إيّاها جدّتها لولو، فتُردِّد لها بصوت رقيق:

يا روحْ، يا روحْ، لَمّا تْشوفْني بتْــروحْ — بابِ المَحبّه انْغَلَقْ، بابِ الْجَفا مَفتوحْ
وطْلِعِتْ راسِ الجَبَلْ قَصدي أوَدِّعْهُم — لاقَيْتْهُم سافروا والرّيح طاوَعْهُـــمْ
نادَيْتْ يا رَيّسِ المَرْكَبْ بالله رَجّعْهُمْ — هَوْدي الْحَبايِبْ وْمِفتاح الْقْلوبْ مَعْهُم

وتردف الستّ روز:

وطْلِعِتْ راسِ الجَبَلْ لاصطادْ صادوني — داروا، دَعوني، وزَيّ السّبعْ قــادوني
بالتِّبْر مـا بِعتهُـم، بالتِّبِن باعــــوني — بْعامَيْنْ ما فِتُّهُمْ، بْيَوْمَيْنْ فــاتوني
يا رايح الشّـامْ سلِّمْ لي على إمّـــي — سلامْ مِنْ خاطري، سلامْ مِـنْ تِمّي
يا جامعِ الشّمْلْ تِجمَعني أنا وإمّـــي — لاحْكي لها ما جرى وافْرِجْ لها هَمّـي

وردّدت أيضًا.

يِسْعِدْ صباحَكْ يا وَدِّ القَـنا يــا روحْ — يَلّي قميصَكْ على صَدرَك تْرِدِّ الـرّوحْ
وِانْ طالْ هَجْرَك عْلَيّي لاكْتبوا باللّوح — وعلِّمِ الطّيْرْ يِبكي وِالحمامْ يْنُـــوحْ

يا صاحِبِ الطّيْرْ قُمْ وَلِّفْ عَشا لِطّيْـرْ — قبلْ ما يِمْسي المَسا ويظلِمْ عليكِ اللّيلْ
يِهديكْ عا الخَيْرْ يَلّي هَدَيْتْني عا لطّيْرْ — إنْ قَدّرِ الله ورْجِعْتْ عا بْلادي بْخَيْــرْ
لاوْفيكْ جميلكْ وعِندَ الله تْنالِ الخير

رحمة الله عليكِ يا ستّ روز، يوم قدمت دير القمر عروسًا عام ١٩٠٨، فزلغطت لكِ إحداهنّ:

آويها... يا نخلةِ الْعالْيه في دارْ قانيكِ...

آويها... ما في ولا نَخْله مْنِ النّخْلاتِ تْساويكِ...

آويها... إجو بناتْ ديرِ القمرْ لِيتفرّجوا عْلَيكِ....

آويها... لاقوكِ القمر وصاروا يتشبّهوا فيكِ..... لو لو لو لو ليش.....

(دير القمر — عاصمة لبنان القديم، ص ٩، بتصرّف)

أمّا الزجل اللبنانيّ فقد أفرد له جوزيف نعمة صفحات مضيئة في كتاباته، على الرّغم من أنّه كان يَنظِم بالفصحى في كلّ مناسبة. لقد نقل أزجالاً سمعها من أصحابها المغمورين، فسجّلها للتاريخ أدبًا قصصيًا، وثائقيًا، ومصدرًا يمكن الاعتماد عليه في تحقيق حدث ما. وهذا الأدب يزخر بمشاعر الناس من أفراح ومسرّات وآلام، يُصوِّر آلامهم العابرة، كما يُصوِّر آمالهم وأحلامهم، وما كان يدور في خيالاتهم من خواطر مميّزة، وأحاسيس وتجارب مختلفة لها صداها في النفوس. تحدّث عن الزّجل في مقال له بعنوان: «طرائف من الزّجل اللبنانيّ»، فتكلّم على الزجل اللبنانيّ منذ سليمان الأشلوحيّ (١٢٧٠- ١٢٣٥)، ومرورًا بالمطران جبرائيل القلاعيّ (١٤٤٠- ١٥١٦) والمطران عبد الله قراألي (١٦٧٢ -١٧٤٢). كما بحث في التراتيل الدينيّة والأناشيد والميامِر والأفراميّات، وهي من أنواع الزجل بالعربيّة والسريانيّة. وتحدّث أيضًا عن مشاهير في الفصحى نظموا الزجل.

وفي ما يخصّ الناس والمجتمع، فقد قدّم لنا جوزيف نعمة أزجالاً لعدد من الشُّعّار المغمورين، الذين كان يعرفهم، وتربطه

بهم صداقة ومودّة، نذكر منهم أسعد الحلو من بعبدا، يروي له أشعارًا تُصوِّر حالة الناس منذ منتصف القرن التاسع عشر، من مثال:

أنا الظّالمني دهري ودومًا يسعى في قهري
صِرتْ مِثل البزّاقة حامِلْ بيتي عا ضَهري
ورْفاقكْ متل البطّيخ بيعملولك طبيخه
بتجرّب مِنّي عالسّيخْ تا تْصدِّقلَكْ بَطّيخَه

(جوزيف نعمة، حكايات جدّتي، ص٣٧)

ويروي أديبنا على لسان هذا الشاعر قصيدة رمزيّة على ألسنة الحيوانات، تحكي حكاية السبع الذي ضاقت به البلاد في سنوات المحل، ففكّر بالرّحيل إلى بلاد الاغتراب، كما كان شائعًا وما زال في بلادنا. وبينما هذا السبع حائر في أمره، قصد أحد الأودية بغية طلب الصيد، فتنبّه له الكلب وصار ينبح، حتّى هربت كلّ البهائم من وجهه. وبقي الواوي وحده في السّاحة فريسة السبع المزمعة، ولكنّه بحيلة منه استطاع إقناع السبع بأن يسمح له بربطه لأمرٍ ما يهمّ السبع كما زعم، فصدّقه السبع وتمّ للواوي ربطه. ثمّ ولّى الواوي هاربًا تاركًا السبع وحده مأسورًا. إلى أن أتت فأرة صغيرة وأشفقت على السبع وخلّصته من رباطه، فشعر السبع بالعار وقال:

يا بْلادي عا فْراقِكْ ناوي راحَتْ آمالي خْساره
صارْ يُرْبُطْ فيكِ الواوي وِتْفِكّ السّبْعِ الْفاره

(جوزيف نعمة، حكايات جدّتي، ص٤٠)

ومن له أذنان فليسمع، ويفهم، ويعي...

ولقد روى جوزيف نعمة أهوال الحرب العالميّة والمظالم التي ارتُكبت بحقّ البلاد والعباد، على لسان زجّال آخر صديق له يُدعى رشيد عسّاف، الذي عاين الحرب العالميّة الأولى، فأكل خبز شعير أسوة بمعظم الناس في جبل لبنان فقال:

طَعْمَيْتونا خِبْز شْعيرْ شَنْهَقنا أوّلْ شَنهوقا
بُكْرا بِتْقوم الحَميرْ وِبْتطالبْنا بحقوقا

(جوزيف نعمة، صفحات من لبنان، ص ١٦٦)

كما روى أيضًا بأنّ الإدارة العثمانيّة أبّان الحرب العالميّة هذه، وزّعت على الناس نوعًا من المرق المطبوخ بالعظم المجرّد من اللّحم وبالكروش، فقال رشيد عسّاف:

رَطْل شْعيرْ بْعَشْرِ قْروشْ وِالدّامي عَظمِه وِكْروش
كِنّا رْضينا بْشَنهوقا صارْ بَدْنا نْشَنْهِقْ ونْهوش

(جوزيف نعمة، صفحات من لبنان، ص ١٦٦)

والحروب التي كانت تمرّ على هذه البلاد جيلاً بعد جيل، ولا تزال، كان يتولّى أمرها في كلّ مرّة زعماء يتجدّدون بأشكال أخرى والمضمون واحد، أو يتوارثون الزّعامة إلى ما لا نهاية، والناس، كما كلّهم في هذا الشرق، مساكين قد اعتادوا الذلّ والهوان، لا يعون ولا يعلمون الحقائق إلاّ بعد فوات الأوان، ثمّ أنّهم ينسون ويتناسون بعد زمن يسير، وتتجدّد الحكاية... وكما قال الشاعر شكر الله الجرّ الذي استشهد بقوله جوزيف نعمة:

إنّ الزّعاماتِ بين النّاس أكثرُها
مُشَعْوِذٌ يستغِلُّ الشّعبَ دجّالُ
والشّعبُ طفلٌ بسيطُ القلبِ يشغَلُهُ
في حالَةِ اليأس زمّارٌ وطبّالُ

وأورد جوزيف نعمة بيتين من الزّجل لأحد الشعراء قالها في أثناء الحرب اللبنانيّة الأخيرة:

يا زُعَما آخِر زمانْ شو عِمِلتوا بْشعِبْ لبنان
قسّمتو وْجَوّعتو وتاجَرتو بْكِلّ الأديان

(جوزيف نعمة، صفحات من لبنان، ص١٦٧)

كان الناس في الزمن القديم أصحاب كرامة وعزّة ومبادئ ثابتة، فيروي جوزيف نعمة على لسان واحد من هؤلاء:

يا شبابِ الفَطاحِلْ بْناديها جُرد وْساحِلْ
ما مِنغَيِّرْ مَبْدانا وْلَوْ صارِ العضم مْكاحِلْ

(جوزيف نعمة، حكايات جدّتي، ص ٧٩)

و«قبضايات» أيّام زمان، كانوا يختلفون عن الزّعماء، كانوا أصحاب «شَوْفِة» وأصحاب مآثر وهِمَم ومبادِئ و«حَلاّلي مشاكل»، وكما يقول فيهم سلام الرّاسي:

نحنا الرّجالْ بيلادنا، وبْلادنا إلنا
كنّا إذا قِلْنا فَعَلْنا، مِثِلْ ما قِلْنا
سقالله زمانِ الْمَضى، لا مَحْكَمِه وْلا حَبِسْ
كانوا قبضاياتْنا يْحِلّوا مشاكلنا

ومن قبضايات أيّام زمان يذكر جوزيف نعمة أسماء: حنّا بو شاربَيْن، وغنطوس القهوجي، وأبي الرّوس الأرثوذكسيّ شيخ قبَضايات الأشرفيّة- وكما يقول جوزيف نعمة- اِنحاز أبو الرّوس طبعًا لروسيّا القيصريّة، في حربها مع اليابان (١٩٠٤-١٩٠٥) من أجل السيطرة على كوريا ومنشوريا، وقد انتهت هذه الحرب بهزيمة الرّوس في (موكدن) وسقوط بورت آرثِر في يد اليابان. كان أبو الرّوس يدعم روسيا، وكان يطوف في شوارع الأشرفيّة يتقدّم شلّة من شبّانه ينشدون أناشيد حماسيّة تدعو إلى تمجيد الرّوس وذمّ اليابان، كما كانوا يقومون بتمثيل تلك المعارك وهميًّا تحت سنديانة قرب كنيسة القدّيس ديمتريوس في الأشرفيّة، حاصدين جنود اليابان منزلين بهم الخسائر الكبيرة. ومن أناشيدهم (على وزن يا بنات اسكندريّة):

قيصرِ الرّوس نْقولا   صِنْـهُ يـا مَنّـــــانْ
واجعلِ الفَـوْز حليفـو   في حـربِ اليابــانْ
جدِّد اللّـهُمّ عهـــدًا   في حرب المجوسْ
رايـة الصّليبِ عـونًا   للجنـودِ الـــرّوسْ

يقول جوزيف نعمة، إنّه عندما وصلت إلى أبي الرّوس أخبار الهدنة التي تمّ الاتفاق عليها بين القيصر وميكادو اليابان، انتفض أبو الرّوس وطرح طربوشه أرضًا، وصاح في جماعته: «إشهدوا يا ناس... إذا رضِيَ القيصر بالهدنة فإنّ أبا الرّوس هنا لا يرضى بها أبدًا»
(جوزيف نعمة، حكايات جدّتي، ص ٨١)

يُقدِّم جوزيف نعمة صورًا من إحدى عادات المجتمع وهي الاستسقاء، وذلك عندما كان ينحبس المطر لفترات طويلة. ثمّة معتقدات شعبيّة لدى الناس في كلّ منطقة، وهي متشابهة. يذكر جوزيف نعمة في هذه المناسبة، أنّه يوم كان ولدًا في دير القمر، كان يُرافق عددًا من الأولاد، يحملون قصبة في أعلاها عارضة من نوعها يُلبِسونها ثوبًا، ويطوفون في الحقول والبساتين والطرقات وهم يُردِّدون:

يَمْ غـادي وْغادينــــا   شَتّـي في حَقاليـنا
شَتّي في حْقولِ الزّرْعْ   لَيِكْبَـر وْيِنشيـنــا

وعندما كانت الأمطار تهطل بغزارة، وتتكاثر السيول، وتطول أيّامها، فتطوف البساتين، وتغرق الحقول بالمياه، وكذلك المصاطب والسّاحات والأسواق والطّرقات، وتقلّ المونة، ويكاد الوَقود من فحم وحطب ينفد، فكان جوزيف الصّغير ورفاقه يخرجون مردّدين:

يم غادي وْغـادينــــا   حاجي تْشَتّي هْلَكْتينـا
ما بَقـا في عِنّا فحمْ   وْلا حَطَبِ يْدَفّينــــا

تلك كانت نماذج مبعثرة، التقطناها من صفحات تنبض بالحياة، تركها جوزيف نعمة للأجيال الآتية، قبسًا يُضيء دروب الثقافة الإنسانيّة، ويُنير ديجور سراديب التاريخ الإنسانيّ المتشعِّبة، فهو يُقدِّم لنا عيّنات من آداب الناس، تحمل في حناياها مدلولات تاريخيّة مهمّة، وهو بهذهِ الإطلالات يُضفي على جدّيّة الأدب الفصحويّ والتاريخ والفكر فسحات من الرّاحة والسعادة والبسمة المشوبة بالأمل والحبّ والرجاء.

شربل شربل

صدى الصورة

كانت فرقة من الطلاّب تعرض بحثًا عن الحروب الصليبيّة. وكان كلّ شيء يسير على ما يرام، حتّى تطرّق العارضون إلى الحديث عن كتاب الأديب الكبير أمين المعلوف «الحروب الصليبيّة كما يراها العرب». وما إن ملأت الشاشةَ صورةُ المعلوف، بابتسامته المألوفة وتسريحة شعره المعتادة، حتّى توالت التعليقات، ومن الطالبات، بصورة خاصة، مستهدفةً استنكار مظهره الذي لم يعجبهنّ مطلقًا، لا بل أثار استهجانهنّ. وكان لا بدّ من وضع الأمور في نصابها الصحيح.

حاولت إفهامهنّ، بدايةً، أنّ الانطباع الذي تكوّن لديهنّ سببه رداءة الصورة لا «بشاعة» الكاتب. إلاّ أنّ ذلك لم يقنعهنّ. فاضطررت إلى التذكير بالمسلّمات التي نعتمدها منطلقًا معياريًا للحكم على الكتّاب ومحكّاتٍ لتقييمهم، والتي لا تأخذ بعين الاعتبار طول قامة الكاتب أو بدانته أو لون شعره أو ما يمتّ إلى مظهره الخارجيّ بصلة، سواء كان عيبًا أم حلية... إلاّ ما وجد النقّاد له انعكاسًا في أدبه. وبما أنّ الكتاب الذي نحن بصدد الحديث عنه ينحو منحى البحث الموضوعيّ فمن الطبيعيّ إسقاط هذه الفرضيّة من حسابنا. وكان لا بدّ ، بعد انتهاء العرض، من التبسّط، بعض الشيء، في شرح هذه النظريّة وتوضيحها، في محاولة لإقناع أبناء جيل يصعب إقناعهم.

تطرّقت إلى وجود ظاهرة التكرار في أسلوب العميان. وذكرت أنّ النقّاد والمحلّلين عمومًا، يعلّلونها بعدم ثقة الأعمى بقدرته على توصيل ما يريد توصيله إلى السامع لأنّه لا «يرى» ردّة فعله...

وذكرت اعتداد عمر بن أبي ربيعة بجماله، وربطت ذلك ببروز النرجسيّة في شعره، وهو القائل على لسان حبيبته المتيّمة:

ما أبهجَ النفسَ من شيء تُسرّ به   وأعجبَ العينَ إلاّ فوقَه عمــر

ومررت على عنترة الذي عانى ما عاناه بسبب سواد لونه وعبوديّته وشرحت قوله:

إن كنت عبدًا فنفسي حرّة كرمًا   أو أسودَ الخَلق إنّي أبيضُ الخُلُق

وعرّجت على أبي دُلامةَ الذي طلب منه الخليفة أن يهجوَ نفسه، فصوّر بالكلام ما لا نتمنّى رؤيته في المنام، حيث قال:

ألا أبـلغ إليـك أبـا دُلا مــةْ   فليس من الكرام ولا كرامةْ

إذا لبس العِمامةَ كان قردًا   وخنزيرًا إذا نزع العـمامـةْ

وقرنت به الحُطيئة الذي هجا أمّه، وهجا نفسه في قوله:

أرى ليَ وجهًا قبّح الله خَلقه   فقُبّح من وجهٍ وقُبّح حامله

وأضفت إلى ذلك ما قاله إبن الروميّ، الذي اصطلحت عليه العاهات النفسيّة والجسديّة، في وصف مشيته التي تشبه حركة المغربل:

إنّ لي مشيةً أغربل فيها   محاذرًا أن أساقطَ الأسقاطَ

وتوقّفت مليًا عند الجاحظ الذي قال فيه الشاعر:

لو يُمسخ الخنزيرُ مسخًا ثانيًا   ما كان إلاّ دون قبحِ الجاحظِ

واستعرضت نماذج من سخريته بنفسه، ومن الدعابات التي كان الناس يطالعونه بها بسبب دمامة خلقه وجحوظ عينيه وقصر قامته، وأكثر ذلك مثبت في كتبه.

وتحدّثت عن حافظ إبراهيم، الذي يصفه صديقه الأديب الساخر إبراهيم المازنيّ، ويقول فيه «كأنّما سُوّيَ على عجَل» لشدّة قبحه، ولكنّه يردف قائلاً «فإذا تكلّم بزّ المتكلّمين فتمنّيت ألاّ يسكت»...
وختمت بالحديث عن جورج برنارد شو، الذي يروي قصّته مع نجمة سينمائيّة باهرة الجمال قالت له: قد أوافق على الزواج بك لوكنت أضمن إنجاب طفل له جمالي وذكاؤك. فأجابها بما معناه أنّه يخاف من مأساة إنجاب طفل له «ذكاؤها» و«جماله».

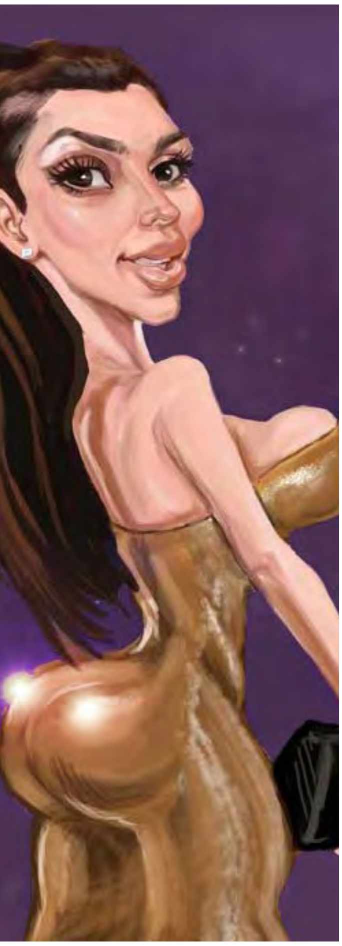

وقد اكتفيت بهذا القدر من النماذج المعبّرة جميعًا عن ضرورة النظر إلى إبداع المبدعين بغضّ النظر عن الصورالتي أُفرغوا فيها . فهؤلاء المذكورون تركوا بدائع خلّدتهم في دنيا الأدب، ونحن نحمد الله على أنّ فنّ التصوير لم يحفظ لنا عن الكثيرين منهم صورًا طبق الأصل، قد تدفع البعض إلى النفورمنهم.
ومهما يكن من أمر، فإنّ عصرنا هو عصر الصورة بامتياز، حتّى ليكاد الجيل الجديد لا يستوعب ما يُقال إن لم يأتِ مقرونًا بالصورة.
الصورة !الصورة!
إنّها المعيار والمفتاح. فأنتِ لا تستطيعين الحصول على وظيفة في مؤسّسات الإعلام المرئيّ إن لم تكن لديك مواصفاتُ عارضةِ أزياء. ولا بأس بعد ذلك إذا كنتِ تحسنين القراءة ، فلا ضير في ذلك.
فمذيعة الطقس عارضة أزياء.
ومذيعة الأخبار عارضة أزياء.
ومقدّمة البرامج عارضة أزياء.
ومذيعة الربط عارضة أزياء.
ومذيعة اللوتو واليانصيب عارضة أزياء.
ولو استُحدثت صفحة وَفَيات في هذه المؤسّسات فستُختار لها عارضةُ أزياء.
عفوًا، أيّها القارئ العزيز، وأنت أيضًا لو فكّرت في دخول عالم الإعلام المرئيّ لوجب أن تكون عارضَ أزياء... ولا بأس بعد ذلك إذا كنت تحسن القراءة ، فلا ضير في ذلك.
رحم الله زهير بن أبي سُلمى الذي قسم الفتى إلى نصفين : اللسان والقلب ، ولم يترك مكانًا للصورة، فقال:
لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه   فلم يبقَ إلاّ صورةُ اللحمِ والدّمِ
وهو لو لم يقل «ومن لا يُكرِّم نفسه لا يُكرّم» لحاولنا شطبه من قائمة الحكماء التي يشغل مكانًا فيها منذ إنشائها، وأحلناه إلى التقاعد أو إلى المحاكمة.
الصورة! الصورة!

وعليه، فإنّ «الإنسان تحت طيلسانه وليس تحت طيّ لسانه»، كما جاء في القول المأثور.
ولا يستقيم البيت الآتي إلاّ إذا قلنا:
وكائنٍ تَرى من صامتٍ لك مُعجبٍ زيادتُه أو نقصُه في «التلوّنِ»
وليس في «التكلّمِ» كما زعم زهير.

وأخاف أن نُضطرّ، يومًا ما، إلى القول: «الثوب يصنع الراهب»، عوض قولنا في ترجمة الحكمة الفرنسيّة الشهيرة ما قاله المنجد في الأمثال والحكم والفرائد اللغويّة «المرء بآدابه لا بزيّه وثيابه» و«اللُبُوس لا تعمل قُسُوس». أو القول «المُسُوحُ لا تصنع الراهب» المنسوب إلى جوزف هايز. وقس على ذلك حذفنا حرف النفي (لا) من قول الفيلسوف إبن رُشد «اللحية لا تصنع الفيلسوف».

وأخاف أن نضطرّ، يومًا ما، إلى تغيير التعريف التقليديّ للحكمة الذي اشترط أن تكون مطلقة صالحة لكلّ زمان ومكان. وأن نضطر إلى إعادة النظر في تصنيف أقوال حكميّة مشهورة كقول الشاعر:
الكلبُ كلبٌ ولو طوّقتَه بالذهبِ والسبعُ سبعٌ ولو بين الكلاب رَبِيْ

وقول غيره:
ولو لبِسَ الحمارُ ثيابَ خَزٍّ لقال الناسُ: يا لك من حمارِ!

وقول ثالث:
ليس الجمالُ بأثوابٍ تزيّننا إنّ الجمالَ جمالُ العلمِ والأدبِ

إنّنا في عصر الصورة، وعلينا أن نتعامل مع مفاعيله كلّها.
ولكنْ هل انتهت الإشكاليّة التي ضخّمتها الثورة الصناعيّة، إشكاليّة مكننة الإنسان وغربته عن عمله، إلى حلّ مطمئن يجعلنا نطوي صفحتها ونفتح صفحة غربة الإنسان عن صورته؟ هل نترك أمكنة لائقةً للّواتي، وللّذين، لا تنطبق عليهم مواصفات عارضات الأزياء وعارضيها؟

بصراحة، ومن دون مبالغة أو مواربة، أخشى أن تضطرّ الأُمم المتّحدة إلى إعادة النظر في شرعة حقوق الإنسان لحماية الناس «الأسوياء» بحسب المفهوم التقليديّ، فضلاً عن أصحاب الاحتياجات الخاصّة.
وأخشى أن يضطرّ جميع الذين يتفلسفون معتبرين الرجيم قِصاصًا وعمليّاتِ التجميل ترفًا أو حرامًا إلى تغيير قناعاتهم أو التخبّط أكثرَ فأكثرَ في غربتهم عن صورهم (أو: ألينتهم).
لقد قيل لكم: إشبع ثمّ تفلسف. أمّا أنا فأقول: جُعْ ثمّ تفلسف.

وأخيرًا، عزيزي أمين معلوف، قرأناك وعرفناك، فارسًا مجلّيًا من فرسان الكلام، ونحن نحرص، كلّ الحرص، على التزوّد بما تتحف به المكتبة. ولقد شعرنا بفخر عظيم عندما تمّ اختيارك عضوًا في الأكاديميّة الفرنسيّة.
أمّا الصورة «الرديئة» التي تحدّثت عنها في بداية المقال والتي كانت دافعًا مباشرًا لكتابته فهي، وبالتأكيد، لا ولن تؤثّر على «صورتك» المشرقة والمضيئة في سماء الثقافة العالميّة. نحن بك وبأمثالك من المبدعين في عصر الكلمة أيضًا.

جورج مغامس
حسبي مشاركتُك إبداعَك

عبده لبكي

كانَ لِصوته النّقيّ ذات يوم، وَلمّا يَزل، انعِكاسُ الضّوء عَلى الألماس، يَخترقُ دخانَ الحرب بسهامِ الأثير، ليُلاقيَ القُلوبَ المُختبئةَ في القلق وَالانتظار. وكان لا يَقولُ ما يكتبُ بل يزورُ، وفي يديه هديّةٌ شريطُها العيديُّ المُخمليُّ عَلمُ لبنان: إنّه صديقي جورج مغامس الذّي، بِلُغَةِ المراهقين، هو، إنسانٌ بيعقّد !

واستطرادًا، وللإيضاح فحسْب، ولعلمكم أيضًا، فإنّ كلمةَ بيعقّد تكادُ تشمُل كلّ ما عند هذا الهمنغوي، ذي اللّحيةِ المقيمة معه في صمتِ الكِتابة وعُزلتِها، وتنطبقُ عليه (أي كلمة بيعقّد) انطباقًا تامًّا، بالرّغم من غيرة منه وعليه. ومن لا يُصدّق، فليقرأه. ومن يُساورهم الشّكّ، فليراجعوا بكلّ بساطة وحرص، سجلّ معموديّته الأدبيّة، وسيجدون أنّ الحبرَ الّذي تعمّد به، ما يزالُ شاهدًا: فهو غزيرُ الفكرة، يستلُّها من بين الأغصان المتشابكة، وبعضُها وَأجلى لَمعانًا، وَأروى بَريقًا، وَأنقى إشراقًا، وَأنضَر شَبابًا، وَأشَدّ حَيَويّةً، وَأزهى عَصرنَةً، وَأعمقَ تُراثيّةً، وَأبهى جَمالاً، وَأرقى فنًّا، وَأروعَ أدَبًا. أمّا اسْتِقراءُ التّغَيّراتِ وَالثّوابِت، وَاسْتيعابُ التّنوّعات، ومَعرِفةُ القرائن، واستِبانةُ الحالاتِ على تداخُلِها، ثُمّ إعادةُ نَسجِها حُلّةً للأمراء، فَهو شَأنُ جورج مغامس وَحدَه، لا يُنازِعُه فيه مُنازِع. وعِندهُ فرادةُ الإبداع، الّذي به يَخرُق جِدارَ الصّوت في أدب الحياة. فَهو من القاماتِ الكبيرة في مقاماتِ القلم. (انتبهوا المظهر غشّاش) . يمدّ يدَه الطّويلة جدًّا إلى الثّمار المتعالية في شجرة الحياة، فيَظفَرُ بها، لكنّه لا يتذوّقُها وحدَه، بل يناولُها مَن ينتظرُه إلى جانبه، أو على أدراج السّلّم ليتقاسماها معًا.

لله درُّك من مغامرٍ، مغامسٍ، لا يستكين. يقتحمُ الوجوهَ والطّبائعَ أشكالاً وفئاتٍ، ويختبرُ المسافاتِ أدغالاً وصحاريّ وحضاراتٍ، ويَلِجُ عماراتِ التّراث المختزِنةَ الإبداعَ والدّيمومة، متجاوزًا مَن

شائكٌ أو إلى يباس، ويُخرجُها من العتمة إلى الرّؤية، في ظهوريّة فينومينولوجيّة لا يُدركُها إلاّ المُرْهَفون. ثمّ يُرسلُها إلى قدَرها، حمامةً مَرّةً، وصَقرًا مرّةً أُخرى. وهو ثريُّ المادّة اللّغويّة، تتدفّقُ هادئةً حينًا، وَجامِحَةً حينًا، وَمُتأَلّقَةً في كُلِّ حين، هي مادّةٌ صُلبةٌ لا يَلوي عودَها غيرُ شَفافيّته، أو يَصهَرُ مَعدِنَها النّادِرَ غيرُ نارِه، وفي جميع الحالات لا يَني يُفاجئُنا، وَتَتَتالى المفاجآتُ تَترى، لتُريكَ كيف العبقريّةُ تصنعُ النّهارَ واللّيل، على كُرةٍ بين يديه، يَتَلاعَبُ بها كَما يَشاء؛ يَرْميها حينًا في الفَضاء، ويُمَرّغُها حينًا بمادّة الطّبيعة، ثمّ لا يلبثُ أن يُغرقَها في القاع، ليُطلقَها بعد حين، أكثرَ جِدّةً، سبقه إليها، وإن آتيًا من عين كفاع، أو الفريكة، أو إبل السقي... يتجاوزهم منتكبًا كِنانةَ الشّباب، مخترقًا قوسَ الغمام تحدّيًا لأسطورة الاستحالة والتّحوّل.

كلّما قرأتك أيّها المهووسُ بِعنديّاته، انفتح أمامي بابٌ جديد في قصرك المسحور، كان أُقفِلَ على الذّاكرة، لا لتجميد ما حفظته مع أرصدة الرّوّاد، بل لإقامتِه حيًّا من ناووسه، على يد مَن يملك السّرّ في كلّ كلمة يكتبها.

من نبْضِ باريس ومْراح المير، تراجُعيّا إلى كلّ أرض، إلى عندما يأتي المساءُ- والمساءُ واحدٌ عندما يأتي، إلى قايين الّذي لم يمت- طبعًا- والشّواهدُ أكثرُ من أن تُحصى وخصوصًا في لبنان- إلى الحبر الأحمر- الّذي يسيل لكي يسقيَ الرّوحَ فلا تَيبس- إلى تكوين ويليه آخر- وأكوان جورج مغامس تحوي أكثرَ من مجموعة شمسيّة- إلى كتاب الصّورة- الّذي ثَبّتَتْ ملامحُه فلا يمحوها الدّهر- إلى جورج مغامس نفسِه لأنّنا نقرأه ونقرأُه ونقرأُه، ولا يلبثُ أن يغريَنا لنستزيد، كأنّه يترصّدُنا على كلّ مفترق دون أن يظهر. مسيرةٌ طويلةٌ ومسافاتٌ كُتبت لنا، ولكنْ أيضًا كُتبت علينا، بقلمِ مَن عنده الوحيُ اختزالٌ للمرئيِّ بما يجعلُه أكثرَ وضوحًا، وتجسّدًا أمام الأعين، وأشدّ مثولًا في الوجدان، وأعمقَ رسوخًا في الذّاكرة.

ذاكَ من الأنسجة، والأشكال، والألوان، والحركات القُماشيّة، فضلًا عن الإثارة في حركات الجسد. ولا يغيب الشّعرُ عن لفتاته كاستراحةٍ قصيرة في الظّلّ، أو كتبادلِ ابتسامةٍ أو تحيّةٍ مع حسناء تمرّ عَرضًا على الرّصيف، ففي ذلك تجدّدٌ للشّمس، يجعلُنا نطمئنُّ إلى الصّباحاتِ آتيةً بلا تردّد.
لا يُعوزُه الصّبر، ولا تفوتُه التّفاصيل، ولا تبخَل عليه الملاحظة بدقّتها، فبالمقاييسِ يتابع، وبالموازينِ يضعُ كلّ محصول حيّ في نصابه، هو واقعيٌّ لا يُغمط الواقع حقّه، ولا يسلبه صدقيّته، ولكنّه في الوقت عينه، يُعطي ما لقيصرَ لقيصرَ وما لله لله، وأعتقدُ أنّه حافظُ المسيحيّةَ أكثرَ من ذلك، وخصوصًا، وجوبَ ألاّ يحفِظَ شيئًا على أحد من النّاس. وفجأةً وبينما

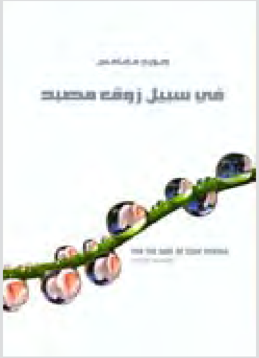

يُدهشني هذا المتأمّلُ بسخريةٍ، ثوابتَ البشر المتغيّرة. يصفها وكأنّه يتطاير حولها بجناحَي نحلة، بمقاربةٍ خاليةٍ من اللّثْم، يُلقي عليها من رحيقه، يلقّحُها بلقاح من صيَغ الكلام، ويَنسجُها تارة بخيوطٍ من تجربته العسليّة، وطورًا بثقافةٍ ذاهبةِ الجذور عميقًا في التّاريخ، تخترقُ طبقاتِهِ حتّى نواةِ الجاذبيّة. كم هو رائعٌ في ما يتمثّلُه من جمال، كلّ مرّة يُعرّي فيها مشاهداتِه من واقعيّتها المستهترة، ليُلبسَها أثوابًا لا حدودَ لأشكالها، من بدائعِ الفنّ الكلاميّ، وكأنّه من مصمّمي الأزياء؛ مبدعٌ يصدم ويدهش ويثير الرّغبة... والإعجاب، إذ يتقن بسحره السّاحر، تلبيقَ هذا على

تكون مسترسلاً كالحالم في مرافقته: أنت قارئًا، وهو مخبرًا، وواصفًا، ومتسلّلاً إلى ما يُرى وما لا يُرى، ومعلّقًا، وشاعرًا، وحتّى دليلاً، يَرشقُك بكلمةٍ واحدة قد تكونُ مشتقّةً من فعل، ولكنّها على الإطلاق غيرُ مشتقّةٍ من الجوّ الّذي وضعك فيه، فإذا به ينقلُك من غفلةٍ هي من نوعِ الهَدهدةِ على الأمواج، إلى يَقظةٍ هي من نوع المفاجأة، ومن صنعِ اللّغة تلك الّتي تستجيبُ له، فتأتيه مطأطِئَةً رأسَها في ترادفاتها، وأضدادها، وسلاسة إيقاعاتها، وغُنجها، وطرافتها، وزغرداتِ فرحها، فقط لأنّ قلمَ المغامس يخطّها على الورق. وتمنّت- قالت لي مرّةً هامسةً بخفَر- أن تبقى هناك،

مضمّخةً بطيب الرّقّة، وزيتِ الطّبيعة، ومتوّجةً بتاجِ الجماليّة، ولابسةً أبهى ممّا تباهى به سليمان.

ويُلحُّ عليك سؤالٌ وأنت تقرأُ لوحاتٍ وصورًا ومشاعرَ، جالسًا في مقصورتك المسحوبة بسرعة قطار سياحيّ. والسّؤال، كيف لهذا اللاّهادئ باستمرار، والّذي تحرّكه العجلاتُ والعروضُ والزّيارات، فلا تستقرّ به حال، ولا يُغمضُ له جفن، كيف له أن يَخرجَ من «العجقة» المتحكّمة بالشّعور، إلى صفاء الدّيباجة، يَمسحُها بالرّيشة مشبعةً بالألوان، دون أن ينسى تفصيلًا، أو يهملَ ظاهرةً، أو يتجاوزَ مشهدًا، أو يرذلَ ما قد يبدو تفاهةً، وهو في الحقيقة ممّا يستدعي عبقريّةَ القلم.

ويحضُرني كلّما قرأته، كبارٌ، ممّن تزيّوا بالأسمالِ أحياءً، وكُفِّنوا بملابسِ الملوك أمواتًا، أمثال بلزاك وزولا وفلوبير وسواهم... هؤلاء حفروا الوقائع، وكانت أقلامُهم أزاميلَ، وأوراقُهم مِسلاّتٍ، أين منها المِسلاّتُ الّتي حُفرت عليها الملاحم.

جورج مغامس، بربّك قُلْ لنا، وباعترافٍ علنيّ، والآن، بمن تَستعينُ لاستحضار مَجرياتٍ مرّت، وأَدرجَها الزّمنُ في أرشيفه، ومَن يساعدك على استذكار الملامح، والخطوط، والانطباعات، والأسماء، وأصحاب الحواضر والسّوابق، والأفعال، والصّفات، وما يمكن أن يُسجّلَ على صخور نهر الكلب أو لا يُسجّل، مع اشتراط المحافظة عليه، ممّن يتولّون مهمّةَ تحنيطِ حنطتنا، رغم أنّنا لم نعد نعوّل عليهم بشيء، أو نأتمنهم حتّى على حاجاتنا اليوميّة–ولا بأس هنا بالقليل من النّقد السياسيّ، فقد يريح ولو إلى حين.

اِسمعوا أيّها السّادة، سأخبركم بما أشبَه كتاباتِ جورج مغامس: عندما كنّا صغارًا، نلهو بطيّارات الورق، نطلقها في الفضاء الرّحب، بعد أن نتربّصَ بالرّيح، غِبّ هبوبها، كانت تلك تعلو حينًا، حتّى تكادَ تقتلعُنا من على الأرض، وترتفعُ بنا وتهبطُ حينًا آخر، فنسارعُ إليها... وفي كلا الحالين، ينتابُنا شعورٌ بلذّةٍ لا مثيلَ لها، لذّةِ الحرّيّة والانعتاق.

هكذا هو جورج مغامس، يضعُك حينًا وجهًا لوجهٍ أمام المحسوس، حتّى تكادَ تلامسُه، ثمّ يذهبُ بك بعيدًا إلى حالاتٍ أصفى من سماء الصّيف. ويجالسُك بعاطفة الصّديق، وغيرةِ الشّريك، ومجّانيّةِ تسكبُ انسكابَ الضّوء في الغابات. ويُشركك معه في خِبْراتٍ إنسانيّة، تظنُّ أنّك أضعتَها، وسرعانَ ما تكتشفُ أنّك كنتَ غافلًا عنها، وها هي بين يديك. يصفها بتقنيّةِ المَهرةِ من الصّنّاع، وبعاطفة الرّومنطيقيين من الشّعراء.

وفي وصفه ينسابُ بين طيّات الموصوف، فيستوحي حالاتِه، ويعيدُها له، بالأفعال المتعاقبة، معطوفٌ بعضُها عَلى بعضٍ، في رصفٍ بنائيّ يرتفع، أو أرضيّ ينطلق، وحركةٍ لا تنقطع، وتتبُعه وتُتابعُ بلا تعثّرٍ لنجدَ أنفسَنا في غرفة متحرّكة بملايين النّوافذ، وفي كلّ اتّجاه. أمّا الصّفاتُ فمن الصّميم، صميمٍ مرهفٍ، يختطفُ السّاكنَ والصّاخب، برقّةِ جَفنٍ لا تكاد العينُ تلحظُها، وهو لا ينقلُ الشّيءَ إلى صورةٍ جامدة، بل يتقمّصُ الموصوف، كما يتقمّصُ الممثّلَ الشّخصيّة والدّور. وهذا الوصفُ ليس نَزوةً، وإن كان ميلاً، وليس تكلّفًا، إنّه طبعٌ. وليس للزّينة، إنّه الوجهُ الآخرُ غيرُ المرئيّ للموصوف، بل هو النّموذجُ الّذي على مثاله تمّ خلقه. إنّه بلغةِ أفلاطون الهيولى الثّابتة، لحقيقةٍ عابرة. وبقدْر ما يحرّرُك وصفُه، ويحرّر موصوفَه، يقيّدك والموصوفَ معًا، فتتلازمان. وأمّا الإخبارُ فهو نزهةٌ للرّوح في شغفها بالواقع، وتوقُها إلى الظّليل من المطارح. إنّه الاختبارُ شكلاً ومضمونًا، بعيدًا عن التّطفّل أو اللاّجدّيّة، الاختبارُ المعيوشُ بالقلب والجسد وبالحواسّ الخمس، لا تمنعُه عليه أوقاتٌ أيًا يكن وقتُها، ولا الأمزجةُ أو حاجاتُ كلّ يوم.

وإنّكَ لَو رُحْتَ تَبْحَثُ عن جورج مغامس في أيّ فَترة من دَوَران الأَرض حول الشّمس، لَوَجدتَه في منتجعه مُتنعِّمًا، يُعاشر الكلمات أيّما مُعاشَرة. وإذ يَنتهي دون انتِهاء، يَذهب للنُّزهة في الهوامِش، وإذ تُرافِقُه، تَقِفُ دَهِشًا أَمام عِمارةٍ أَتْقَنَ صُنْعَها، بِناءً وَبَحْثًا وَصياغَةً، مُعيدًا إلى المُتون فُتونَها. فَتَتَولاّك الرّعشة.

صَديقي جورج، أَتسمح لي بأَن أسمحَ لنفسي، بأَن أسديَ نصيحةً واحدة؟ تُغني وإن لم تُسمن من جوع، تاركًا الاكتفاءَ لمن يقطفُ من شجرتك غيرِ المحرّمة. أقول ومن له أذنان سامعتان، فليُسْمِعْ غيرَهُ: اِزرعوا في حدائقكم شجرةً واحدة اسمُها جورج مغامس، ولكنْ من دون أفعى، فالأفعى منها وفيها. وعندئذ، لن تحتاجوا إلى غيرها، لأنّها وحدَها تحملُ جميعَ أنواعِ الثّمرِ المحرّم وغيرِ المحرّم، وحتّى ذلك الّذي لا يزال حلمًا أو في ضباب على أرض الخيال.

وأخيرًا، أريدُكم أن تَتَصوّروا جورج مغامس، وَهو يفيءُ إلى القلم مساءً، وَيَستفيقُ عَلى صَريره صَباحًا. ثمّ أَخبِرونا عِندَما تَكتَمِل الصُّورة، لكي نستطيعَ أن نتمثّلَ أصدِقاءَ همينغواي في كوبا، مِن صَيّادي السّمك الفُقَراء، الّذين أَقاموا لذلِك الكاتِب الأَصيل تِمثالاً من مالٍ فقير، حَرَموه أَنفسَهم.

جميل الدويهي يحكي «طائر الهامَة»

د. عصام الحوراني

هي حكاية الإنسان في كلّ عصر وزمان، حكاية الصراع الذي كان وما زال يلفّ الكون والإنسان، في جدليّة لا تعرف السكينة أبدًا ولا الراحة، فهي ليست مِلحًا جامدًا على شفتي السرنوك، ولا هي ملح في الهواء يوم قتِل الدروبي، إنّ الحكاية حياة لا تغيب أبدًا عن فلك هذه العناصر الحيّة والجامدة على السواء، ولا تنتهي، ولو انتهت، لا سمح الله، لتلاشى الإنسان في عالم العدم.

مسكين، هو السرنوك، هذا المجنون الذي ما برح يلوك الزمن وحده كئيبًا تائهًا، ولا يمضغه، لكنّ الزمن يعصره عصرًا، وبين الجنون والعبقريّة خيط واهٍ، «المجانين لا يقرأون ولا يكتبون، ولكنّهم يُجيدون قتل الحروف وهي في مهدها».(ص ٣) إذن فهو أُميّ، كما يدّعي، والأنبياء أمّيّون، «وفي ساعات مليئة بالسخرية، يتحوّل السرنوك إلى مُعجزة» (ص ٣) ولعلّ المجانين من أمثال السرنوك يحلمون هم أيضًا بالخلود، كما آلهة الشرق القديمة، وكما حلم بالخلود جلجامش، وسعى إليه، لكنّ خلوده ضاع في جوف أفعى، كانت في فجاج الأرض تسعى. جميلٌ! هو هذا السرنوك، وهو البراءة المتدثّرة بالليل، وفي قلب اللاوعي البشريّ، وهي بعيدة في أعماق الأنسان.

جميل الدويهي المخرج البارع، الذي يتحرّك بخفّة وليونة وحيويّة بين أبطاله، يُحرّكهم برشاقة ويُوزّع الأدوار بمنتهى البساطة والعفويّة، فيضيع القارئ مسمّرًا بين الحقيقة والمجاز، بين الرمزيّة التي تنسج أكثر من رداء في القصّة، وبين واقعنا المعيوش الرّاهن. وتبقى أبطاله تلاحقنا، نحن القرّاء، فنمشي خلفهم صاغرين تغمرنا الدهشة، ويشدّنا الشغف، ونحن نسمع وقع أقدام الدويهي بين «غابة الخرّوب» و«الدّهبيّة»، نسمعها في لهاث السرنوك، وفي تأمّلاته وشعره، كما في سكوته: «لأنّ زمن الكلمات قد انتهى، وعليه أن يُخبّئ وجهه...» قال السرنوك: «إنّ المَحْو أفضل من الكتابة، فرجل مثلي يجب أن يُنسى... عليه أن يكون عشبة في حقل بعيد... أن يُصلّي باكيًا، وتذوب ركبتاه من الركوع...لقد فرّت الحقيقة من الحقيقة...وأصبحتُ أنا روحًا باردة في عالم الأرواح...» (ص ٥٩)

قصّة جديدة للدكتور جميل الدويهي، صدرت عن منشورات «دار أبعاد الجديد» في بيروت. تقع هذه القصّة/ الرواية في ١١٢ صفحة من الحجم الوسط. مساحتها محدودة ومحتواها لا تحدّه «أبعاد»، فيها الحياة بكلّ جدليّتها وصراعاتها، من حقد ومحبّة، وثأْر وتسامح،

وعصبيّة وانفتاح، وكذب وصدق، وشرّ وخير، ومجاز مرمّز وحقيقة خرساء تحت غبار النسيان... وتستوقفنا على دروب «طائر الهامة» تساؤلات كثيرة: لماذا كتم السرنوك الحقيقة؟ لماذا جعله الدويهي يُخبّئ الحقيقة في قلبه؟ ولماذا جعل السرنوك يتبعثر ضياعًا وشرودًا، ويتشظّى قلقًا وأوهامًا وذهولا وكآبة وسِرّا؟ وكَم في الأرض من أبرياء كثيرين يضيعون في عالم السجون الأسود، حيث يتساوى البريء والمجرم، ويتّحِدان ليصبح المجرم بريئًا والبريء مجرمًا، ويختلط عليهما الأمر في عالم النسيان، وفي مجتمع أعمى لا يرحم.

ولعلّ السرنوك وقد تلبّس الجريمة صدّقها، فصار ما يُشبه الانفصام في ذاته التائهة غي عالم الغيب والنسيان، هذا العالم الذي لا يُدرك كنهه سوى المفكّرين والعباقرة. وقد تبدّت تلك الأسرار المتشابكة في لاوعيه بذاك الصراع النفسيّ الذي أبرزه لنا الكاتب بأسلوب أخّاذ يُحاكي الواقع ويُماشيه. إنّه الصراع النفسيّ الذي تحدّث عنه علماء النفس بإسهاب وأشاروا إلى مداه في عمليّة التبديل والتحويل في سلوك بعض الناس، وفي تصرّفاتهم، وأعمالهم. إنّها معاناة الضمير التي ما بعدها معاناة، حيث التمزّق النفسيّ، والكآبة الدكناء، والصمت الأسود المخيف: "جريمة في الذاكرة، مقتلة الحروف، أحمل نعش الذاكرة وأسير تحت المطر، مَن يتبعني إلى سكوتي؟ مَن يحمل معي صناديق العتمة؟

هذه المعاناة التي تعتمل في الأعماق، تملأ حنايا القصّة، وتتبعثر فيها، وتتلوّن بأشكال متنوّعة بدءًا من السرنوك الذي صار «المارد المقيّد في كيس... صار العدم، والخطيئة... صار الشاعر الفيلسوف الذي يكتب السكوت بصمته القاتل».(ص ٢١) «وعندما عاد السرنوك إلى ضميره، كانت الحقيقة مدفونة في مقبرة واحدة مع القتيل».(ص١٠٨) وكذلك،

فسلوى التي تحمل في أعماقها طائر الهامة، ما برح الحقد يصرخ في أعماقها بلسان الهامة: إسقوني فإنّي صديّة! وشفيق نفسه يُعاني من خلف ستائر الحقيقة السوداء، فهو القاتل والعاشق والكاذب تتلوّى كلّ هذه الصفات فيه كما الأفعى: «أنتِ يا سلوى... جمرة في قلبي، وجرح عميق في ضميري». (ص ١٩) وأيضًا فإنّ زوجته وردة كانت تحيا هي تحت ظلّ هذا الصراع الماثل بين الحقّ والباطل. لقد تبدّى الصراع أيضًا بين جيلين: جيل الهامة الذي تمثّله سلوى، وجيل الحداثة الممثّل بسعاد ورياض، وهذا الصراع يتماهى في ذلك القتال الذي نشب بين طائرين في الغابة، طائر الهامة الذي يتأبّط بين جناحيه الحقد والتشاؤم والدم والموت، وطائر الفينيق رمز الانبعاث، والشمس، ونور الصباح، والتجدّد والقيامة، والتسامح والسلام، وهو الذي ينتصر في نهاية معركة الحياة: «إنّها معركة الحياة والموت، بين كلّ ما في الكون من متناقضات: بين الجبّار والهزيل، والظالم والمظلوم، والغنيّ والفقير، والكبير والصّغير». (ص٢٩)

وفي القصّة صراعات كثيرة، بعضها ظاهر، وبعضها الآخر خفيّ، فحين يقول الدويهيّ: «خذوني إلى السائق لأتشاجر معه، لأزلزل الأرض تحت قدميه، ولأنشب أظافري في ابتسامته الصفراء... رجل مريض... يرافقني من مكان إلى مكان، ولا أعرف كيف يرتّب الأمكنة والعناوين...» (ص ٨٣)، يكون المقصود بالسائق القدر الذي يحرِّك مصائر الناس الضعفاء- الأقوياء. أمّا طيّارة الورق التي تطلّ دائمًا في فضاء الحياة، فهي رمز لطموح الإنسان أن يغادر التراب إلى كواكب أخرى، بل هي الروح التي تنتصر على الآلة، وبها يرتفع الإنسان: «في الأحلام يمكنني أن أصل إلى أيّ كوكب في لمح البصر، ولذلك أحبُّ طيّارتي أكثر من أيِّ اختراع آخر.» (ص٥٠)

«طائر الهامة»، حكاية وطن يُلازمه الحقد، والطمع، والحسد، والكراهية، منذ أزمنة غابرة، تعبث به من حين إلى آخر، وتتركه في كلّ مرّة أشلاء، ليعود طائر الفينيق الذي يأوي في أرزه فيتغلّب في النهاية على طائر الهامة، ولو بعد حين. إنّها أزمة وطن ولعنة تُواكبه في كلّ جيل. ولقد نسج الدويهيّ ببراعة ثوبًا بمقياس وطنه الذي يتمحور بين «غابة الخروب» و«الدّهيبة»، وهما قصّة الصراع المفتعل في كلّ جيل بين كلّ ضيعة في لبنان وأخرى، بين كلّ منطقة وثانية، مجاورة أو متداخلة، بين شرقيّة وغربيّة، جنوبيّة وشماليّة، ساحليّة وجبليّة... ويبقى شباب أرضنا وقودها، والهامة صوتها الصارخ أبدًا: إسقوني... إسقوني، وقد أشار الكاتب إلى هذا الأمر بصراحة وشفافيّة: «وإنّ ما حدث للسرنوك حالة طبيعيّة أصابت كثيرين من الذين شاركوا في أعراس الدم... فبعد أن ينتهيَ الاحتفال، لا بدّ من العودة إلى الذات، فتتكاثر الأسئلة، وتعجز العقول عن تقديم أجوبة لها... فتتردّى الأرواح في جحيم العقاب...ماذا جنت يداي؟ وكيف تحوّلتُ إلى وحش كاسر لا يرحم؟ وما هي المكافأة التي حصلتُ عليها غير البؤس والعذاب». (ص ٢٢) وكما قالت وردة: «وفي أزمنة الحرب يخلط الناس بين الخير والشرّ بين الحقّ والباطل». (ص١٠٧)

والجواب على تساؤلاتنا السابقة بخصوص السرنوك، جاء على لسان وردة التي كتمت الحقيقة طول هذه السنين: «كان شفيق سيقتلني لو تفوّهتُ بحرف واحد». (ص١٠٨). بين السرنوك وشفيق حكاية الإنسان في كلّ عصر وزمان، فكم في الأرض من مساجين أبرياء، يرتعون في أقبية الزنزانات مرذولين مهانين معذّبين، والحكومات والقضاة والناس عنهم لاهون وغير مبالين... وكم في الأرض من مجرمين ولصوص صاروا حكّامًا أو من كبار القوم يختالون في صالونات الناس ومنتدياتهم بكبرياء وتعال، والناس حولهم يُصفِّقون ويُزوِّدونهم بالدّعوات والشكر والامتنان. إنّه التكاذب والرياء في جلد حرباء، هي الدنيا بمتناقضاتها تبدو ماثلة للعيان في قصّة الدويهيّ، فالأدوار تنقلب بين السطوح والأعماق، ولكنّ الكاتب يميط اللثام عن تكاذب البشر مع وردة الصباح الفوّاحة التي نطقت بالحقيقة.

إنّ اللغة التي استخدمها المؤلِّف، وبخاصّة في «أفكار السرنوك»، هي من الطراز النخبويّ من ناحية البلاغة، وجودة السبك، فهي بيّنة في معناها ورموزها، ومفهومة عذبة سلسة، يسكن إليها السمع، فلا تنافر في الكلمات، ولا تعقيد في المبنى، أو المعنى، بل ثمّة ملاءمة للكلام مع الذي يُقال فيه، فتترك عباراته في النفس أثرًا خلابًا. وهو يستعين بمجازات ليّنة طيّعة فيها جرس الشاعريّة الرقيقة. ومن أمثال ذلك وهو كثير في «أفكار السرنوك الدويهيّ»: «لأنّ لها صوتًا كنحيب الأشجار، فأجمع شتات عمري على صفحة من غبار.... في يديّ ارتعاشة، وفي شفتيّ ملح، فمن أين تأتي الأفكار...» (ص ٣) ويقول: «لكنّ الذكرى تبقى سكّينًا على عنق الحاضر... ينبغي أن نتمهّل، لكي لا يمحونا الفراغ» (ص ٦٣) ويقول أيضًا: «فالكلمات سكاكين على سطور... أنا قتلتُ حقدكم، وحطّمتُ أصابع الليل...» (ص ٨٣)

القصّة ولا شكّ، مشروع عمل مسرحيّ دراميّ، فهي تحكي الإنسان في كلّ زمان وفي أيّ مكان، وبخاصّة في عصرنا، إذ إنّها تروي حكاية لبنان وغيره من الأوطان، في وقت نحن نعيش أزماته باستمرار، وما زلنا نعاني من مشكلاته كما من أحقاد أناسه الأقدمين. القصّة صدى لما يعتمل في أعماق الإنسان من صراعات تتبدّى بأشكال خفيّة متنوّعة، ويُصبح الناس لها أسرى يأتمرون بما تُمليه عليهم من أفكار وعصبيّات وأوهام، تشتّتهم وتبعثر أرواحهم في عالم الكآبة والتشاؤم والتلاشي. القصّة صوت الدويهي الصارخ في بريّة المعمدان، ينشد من خلاله حريّة الإنسان القائمة على أساس الحقّ والحقيقة والسلام، وهو يمضي مع السرنوك على عربة تأخذهما إلى جسر الضياء.

مع رحاب كمال الحلو
في: كنعان.. أرض عشتروت

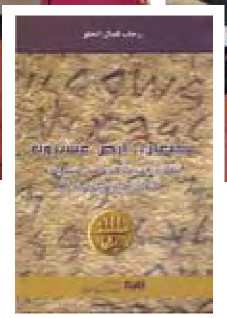

في مساء ١٢ حزيران ٢٠١٢، استضافت الجامعة جمعًا من أهل رحاب كمال الحلو والأصدقاء، احتفاءً بكتابها: كنعان.. أرض عشتروت، الصادر حديثًا في منشورات الجامعة، ومفادُ محصّلاتِه على ما قالت رحاب في كلمةِ ترحابها والشّكر:

ونخرج بمحصّلات جديدة لا ندّعيها ناجزة، مهما بلغت، مفادها أنّ: كلمة «كنعان» تعني: «أرض أو بيت عشتروت». كلمة «فينيقيّ» تعني: «عابد عشتروت وأدونيس». كلمة «لبنان» تعني: «مقام عشتروت».

كما نثبت أنّ عبادة «أدونيس وعشتروت» ما زال صداها يترجّع خالدًا في أسماء القرى والبلدات اللبنانيّة، وخاصّة تلك المحيطة بنهر أدونيس.

«كنعان أرض عشتروت»، أي كنعان أرض المرأة، وهذا ما يسمح لنا أن نطرح الأسئلة التالية:

أين حقوق المرأة اليوم في أرض المرأة؟ متى سيتمّ القضاء على جميع أشكال التمييز ضدّ المرأة؟ متى سيصدر قانون ضدّ العنف الأسريّ؟ متى سيحقّ للمرأة أن تعطي الجنسيّة لأولادها؟ متى سيمنع تعدّد الزوجات؟ أو بين مزدوجين (يسمح بتعدّد الأزواج)! متى ستعي المرأة في كنعان اليوم أنّها متساوية في الحقوق مع أخيها وزوجها، وأنّ لابنتها نفس حقوق ابنها في الميراث والدراسة والزواج والحريّة؟

وكان الأستاذ سهيل مطر قال للرحاب: حبّك للبنان، كلّ لبنان، هو القاعدة التي اعتمدت عليها لكتابة هذا الكتاب، وأكاد أقول هذا الأثر: العلميّ والفنّيّ، العلميّ من حيث المضمون والمراجع، والفنّيّ من حيث الشكل والدقّة.

وجميل أن نحبّ لبنان، برصاص القلم، لا برصاص البندقيّة، أن نحبّه بكشف أسرار حضارته، لا بطمس ماضيه وتراثه.

ورأت الدكتورة إلهام كلاّب البساط أنّ رحاب الحلو كتبت، في تحوّلات اسم عشتروت وتحوّلات أسماء أوطانها وشعوبها، كتابَ علم يقود إلى الحلم...

قالت: هو كتاب علم يتميّز أوّلاً بمنهجيّته المتأنيّة، الواضحة، وبإيجازه العلميّ دون ثرثرة اعتراضيّة، وبوحدة منطقه دون إضافات عارضة تشتّت ذهن القارئ عمّا ذهبت إليه في استشهاداتها وبحثها الدؤوب.

هو كتاب علم، لا يثقل عليك، بل يدخلك معه إلى اختبار التساؤلات بين الشكّ واليقين.. كتاب يفرد مساحة لقارئه بين التكهّن والمقارنة.. كتاب يحفّز على الاستغراب أو القبول، ولا بدّ أن تثير استنتاجاته الأولى غبارًا كثيرًا في استدعاء للنقاش، وتوسيع لإطار البحث، واستكناه لتاريخنا الذي لا يزال يغطّيه، بالرّغم من العديد من الدراسات، غبار تاريخيّ كثيف..

هو كتاب علم بنصّه العربيّ الجميل الواضح والدقيق.. ولغته النقيّة الصحيحة.. نصّ يسوّر نفسه باقتضابه، للتأكيد على أهميّة كلّ تعبير، كمنشئ للنصّ، لا كمزخرف له..

وأخيرًا، قال الأباتي بولس نعمان، أنا هنا لأقول إنّ الجامعات لم توجد للتنافس السياسيّ، والتبعيّة العمياء، بل للتنافس في المعرفة والخلق والإبداع، ولاكتشاف المواهب عند تبرعمها، فتعمل على تنميتها ونفسح لها الطريق لتقدّمها، على مثال الكاتبة الشابّة التي أنجزت كتابها الخامس، وهي لا تزال في الجامعة، تعمل بطرقها الجديدة الخاصّة على اكتشاف ثروات بلادنا، لتنتقل فيما بعد، كما نأمل ونتمنّى، إلى الخلق والإبداع والتنافس مع المبدعين، الذين نقرأ عنهم كلّ يوم، والذين وحدهم اليوم يوجّهون العالم إلى آفاق جديدة لم نكن لنحلم بها، فنتبعهم صاغرين مندهشين.

عفاف راجي صليبا

طالبة في علم النفس
والعلوم البيولوجيّة

على مقاعد الدراسة أم وراء المتاريس؟

كانت الساعة الأولى فجرًا. إستيقظتُ وفي رأسي حركة حسابات ومعلومات كنت أدرسها قبل النوم تحضيراً لامتحاني في اليوم التالي. وكانت خفقات قلبي تتسارع على وقع أصواتٍ ودويّ رصاص أشبه بقصص أبي وأقربائي وجيلهم الذي عانى من قسوة الحرب والزعزعة الأمنيّة... كنت كأنّني في جبهة حرب.

حاولت تدارك نفسي والعودة إلى النوم، لكنّ همّ الامتحان واشتداد إطلاق النار حالا دون ذلك. بل حدّثتني نفسي: لعلّ أحدًا في البيت يشاهد فيلمًا حربيًا ولم ينتبه لارتفاع الصوت؛ فمن المستحيل أن تعود الحرب إلى لبنان. ولكم فوجئتُ برؤية التلفاز مطفأً، ولكنْ فيما الجميع في أسرّتهم متأهّبين. سألتُ: «أبي ما الذي نسمعه؟ أمّي ما هذا؟ ما الذي يجري؟».

وقمنا جميعًا إلى التلفاز، فرأينا الاشتباكات والدواليب المشتعلة. قلّبنا القنوات... كلّها سوداء تعمّها أخبار العنف.

لقد تبدّلت حالي من فتاة قد تتمنّى حدوث أيّ شيء ربّما... لتأجيل امتحانها، إلى أخرى ترجو الله أن تستطيع الخروج من المنزل للوصول إلى الجامعة وتُجري ألف امتحانٍ وامتحان.

ما الذي يجري؟ وكيف تنقلب الأوضاع ويتحوّل الصراع على كرسيّ السلطة إلى اختلاف في الرأي إلى اقتتال واشتباكات أشبه بحروب العصابات الشارعيّة؟ وأنا الطالبة، كيف يمكنني أن أُحقّق ما أحلم به وأصل إلى هدفي في ظلّ هذه الأوضاع؟ وهل بإمكاني أن أحصّل العلم والمعرفة والتقدّم، أم أنّني أكون مجرّد كائن أقصى طموحه أن يبقى على قيد الحياة؟

يؤكّد علماء النفس أنّه من المفيد للطالب أن يتمتّع بوعي سياسيّ واجتماعيّ، فيكون باستطاعته قراءة الأحداث من حوله فيرتقي من طالب علم ومعرفة إلى مواطن مثقّف يُدرك مصلحته ومصلحة مجتمعه والإنسانيّة. إنّما وللأسف، ما آلت إليه الأمور في منطقتنا هو أوضاع نفسيّة تضغط على الطالب لتجعله كائنًا غرائزيًا يرى العنف من حوله فيترجمه تلقائيًا في مجتمعه الصغير، وحتّى في جامعته.

فلدى كلّ احتكاك أو احتدام في المواقف أو في الشارع، نرى حادثًا طلاّبيًا عنيفًا (الجامعة اللبنانيّة واليسوعيّة مؤخّرًا). ومن

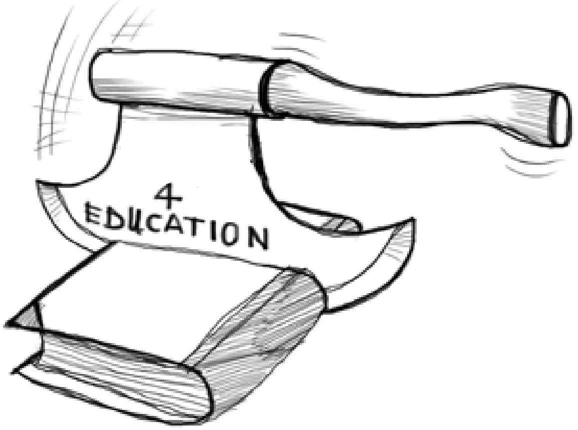

المضحك المبكي أن نرى بعض الطلاّب يحملون العصا والسكّين عوضًا عن الكتاب والدفتر، فيما زملاؤهم يعطّلهم الخوف عن متابعة الدراسة.

قال فرويد في رسائله إلى أينشتاين حول حلّ مشكلة الحروب (١٩٣٣) إنّ في الإنسان غريزتين متناقضتين: الأولى غريزة التوحّد والمحافظة على الجنس البشريّ المسمّاة بالغريزة الجنسيّة، والثانية غريزة القتل والتدمير المعروفة بغريزة العنف. وإنّ تلك الحروب في المجتمعات تأتي لتغذية غرائز العنف لدى الإنسان، فيمسي كتلة هستيريّة حربيّة. من هنا نرى أنّ الإبداع في ظلّ ظروف مماثلة هو شبه مستحيل.

ففي المناطق التي تشهد اضطرابات أمنيّة وسياسيّة، يسعى الطامحون إلى الهجرة. أمّا من يتعذّر عليه السفر فيبقى سجين التوتّر مكبّل الجناحين إلى جانب تداعيات نفسيّة ترافقه طوال عمره. ونتيجةً لذلك، قد يُصبح المجتمع لا يضمّ إلا أصحاب النزعة العنفيّة ومن لا حول لهم ولا قوّة في مواجهة الصعوبات.

يقولون إنّ الشباب هم نواة المستقبل. إذًا، لماذا لا تُبذَل الجهود اللازمة لإبقاء هؤلاء الشباب في وطنهم؟

وإنّي أسأل القادة هل ستبقى مدارسنا وجامعاتنا تستقبل فعلاً طلاّب المعرفة وبناة المستقبل أم ستصبح ثكنات عسكريّة ومأوى للمنكوبين... أم ماذا؟

نور زاهي الحسنية
سنة ثالثة علم البنوك والتمويل
فرع الشوف

تجمّع لا مجتمع...

عادةً نستذكر الماضي ونشتاق إلى لحظاتٍ عشناها، إلى أمكنةٍ زرناها، إلى أناسٍ أحببناهم. نشتاق لأنفسنا، لما كنّا عليه في طفولتنا، لتلك البراءة الجميلة. ولكن أن نشتاق إلى لحظاتٍ لم نعشها بعد أو لن نعيشها، أن نشتاق إلى أيّامٍ لم تمرّ علينا لأنّنا لم نكن قد ولدنا حتّى، هل يعقل ذلك؟! بالنسبة إليّ، نعم. لا أدري ما هو الوصف الصحيح للحالة، لذلك دعوتها بـ«الاشتياق».

أشتاق إلى زمنٍ لم يقدّر لي أن أولد خلاله، زمن كانت فيه الدنيا بألف خير. كان الناس يعاونون بعضهم بعضًا من دون مصلحة أو غاية. يقفون بعضهم إلى جانب بعض في الأفراح، ويتشاركون الأحزان من قلبهم. أمّا اليوم، فأحد لا يقدّم لك خدمة إن لم يكن في حاجةٍ إلى مثيلتها منك غدًا. ومن يشاركك الفرحة ويرسم لك ابتسامةً على وجهه، يراكم الانتقادات في رأسه أو الحسد في قلبه. أمّا الحزن، فكن أكيدًا أنّك وحيدٌ في مواجهته، وأنّ كلّ العبارات المنمّقة التي قد تسمعها ليست سوى أصوات لا تعبّر عن مشاعر صاحبها أبدًا.

باختصار، أعلن يأسي من الجنس البشريّ الذي أنتمي إليه، أعلن ازدرائي واجباتٍ اجتماعيّةً بالية أضحت واجباتٍ فقط وفقدت صفة «الاجتماعيّة». فأيُّ مجتمعٍ هذا الذي نعيش فيه؟!

أين الترابط والتضامن والمشاركة؟! أين المفردات التي يتعلّمها التلامذة في كتب التربية والتنشئة المدنيّة، ويدركون بعد حين أنّها أكاذيب لا وجود لها في زمننا هذا؟!

أضحينا تجمّعًا لا مجتمعًا، ومجموعاتٍ بشريّةً لا يهتمّ أفرادها بعضهم ببعض، وكلّ ما يجمعهم بقعة جغرافيا مشتركة. أين الصداقة والأخوّة والعائلة؟! أين نحن من تلك الروابط اليوم؟! كم صديقٍ ظننته كذلك إلى أن فاجأك بطعنةٍ في الظهر. كم أخٍ تنكّر لأخيه لأتفه الأسباب. كم عائلةٍ تجري المياه في عروق أفرادها لا الدماء...

أتساءل أحيانًا لماذا أصبحنا هكذا؟! ما السبب الذي يجعلنا نفقد إنسانيّتنا يومًا بعد يوم؟ أصبحت أخبار القتل والسرقة ومختلف الحوادث البشعة من مقبّلات حياتنا اليوميّة. لماذا كان الناس في الماضي أكثر عطفًا ومحبّةً وخيرًا؟! هل حالتنا جزءٌ من نظريّة داروين؟! أنتكيّف مع محيطنا ونفقد صفات أسلافنا لنستمرّ ولا ننقرض؟ أسئلة كثيرة لم أجد أجوبة عليها بعد، وقد لا أجد. والسؤال الأكبر الذي يشغل فكري هو: ماذا بعد؟ ماذا سيحلّ بنا بعد ٥٠ سنة؟ إلى أيّ درجة من التفكّك سنصل؟ هل سأصل إلى يومٍ أشتاق فيه إلى هذا الزمن؟!

المرأة في شعر نزار قبّاني

نور زاهي الحسنية

سَرَقَ الأضواء بكلماته، خَطَف القلوب بأشعاره. كان «شاعر المرأة» وهو يُدرك أنّ اختيار المرأة كموضوع رئيسيّ للكتابة، هو اختيار صعب، وأنّ الحديث عنها هو حديث في المحرّمات، وأنّ من يمسك يد امرأة، كالذي يمسك جمرة مشتعلة. إنّه نزار قبّاني: محامي الدفاع عن المرأة والبحّار المتمرّس في بحرها.

«لو أنّي..لو أنّي..بحّـــار لو أحدٌ يمنحنـــي زورق
أرسيْتُ قلوعي كُلّ مَساء في مرفأ عينيكِ الأزرق»

هو الذي حذف جسدها من قائمة الخراف التي تنتظر الذبح، والعجول التي تنتظر السلخ... ووضعها في قائمة المتاحف التي تزار والسمفونيّات التي تُسمع... فَكّ الرّهن التاريخيّ على نهديها... وأطلقهما حمامتين... في سماء تحترف صيد الحمام الأبيض. وضعها قرنفلة بيضاء، على صدره... ودخل بها على حصان أبيض إلى المدن العربيّة التي تمارس الحبّ بصورة سريّة... وتخاف أن تصافح امرأة حتّى لا يُنْقَضَ وضوؤها.

يقول نزار قبّاني: «إذا لم أضيّع وقتي في اكتشاف المرأة، فهل أضيّعه في اكتشاف الرجل؟» إنّ الرجل في نظر نزار قبّاني مخلوق غير شعري، بل يابس ومالح وغليظ. لا يقرأ إلاّ جريدته اليوميّة وجدول أسعار البورصة. في حين أنّ المرأة، تبقى حتّى آخر لحظة من حياتها تذوب أمام العاطفة الجميلة والكلمة الجميلة. وهو يستنكر تجاوز الكاتب للمرأة؛ فذلك معناه أنّه يتجاوز نبضه، ودورته الدمويّة، ويدخل في التكلّس والموت. لا أحد تجاوز المرأة، إلاّ تحوّل إلى إسفنجة أو مسمار. ولا أحد تجاوزته المرأة، إلاّ ونشّفت شرايينه، وأخذ شكل القنفذ.

«لم أعرف قبلك واحدةً
غلبتني... أخذت أسلحتي...
هزمتني... داخل مملكتي...
نزعت عن وجهي أقنعتي...»

المرأة هي الشعر... هكذا صوّرها نزار قبّاني. فكلّ شعر كُتِبَ، أو يُكْتَب، مرتبط بالمرأة. الشعر يجد في المرأة مرضعته، وحاضنته، وأنثاه... وبالتالي فهي تؤكّد ذكورته وفحولته... والمرأة تجد في الشعر رَجُلَها وبَطلها ومحرّضَ أنوثتها وصانعَ مجدها وأطفالها... وحامي أنوثتها من الذبول والنسيان.

إذنْ، فالمرأة والشعر يكملان بعضهما بعضًا... هي تعطيه الاشتعال، والتوهّج، والمادّة الأوّليّة للإبداع... وهو يجمّلها ويكمّلها ويعطّرها ويحفظها من التبدّد والاندثار... فالمرأة أعطت شعر نزار قبّاني حضورًا مائيًا على حدّ تعبيره ونفضت عن أبجديّته الغبار الصحراويّ، وهو لا يخصّ هنا شعر الحبّ فقط، وإنّما كلّ ما كتبه من شعر أو نثر كانت المرأة السحابة التي تنشر ظلالها عليه.

لم يكنْ نزار قبّاني لطيفًا مع المرأة في كلِّ شعره. مع بعض النساء كان لطيفًا... ومع بعضهنّ كان متوحّشًا... وهكذا كان في حياته، يتعامل مع كلّ امرأة بأسلوب يتّفق مع نوعيّة المرأة التي يلتقي بها.

«كفّي عن الكلام يا ثرثارَه...
كفّي عن المشي...
على أعصابي المنهارَهْ
ماذا أسمّي كُلّ ما فعلتِهِ؟
سادِيّةٌ..
نفعيّةٌ..
قرصنةٌ..
حقارَه..
ماذا أسمّي كلّ ما فعلته؟
يا من مزجت الحبّ بالتجارَهْ
والطّهرَ بالدعارَهْ..»

دعا نزار قبّاني إلى تحرير المرأة، وطالبها بالثورة.

«ثوري! أحبّكِ أن تثوري..
ثوري على شرقِ السبايا.. والتكايا.. والبخُورِ
ثوري على التاريخ، وانتصري على الوهمِ الكبيرِ
لا ترهبي أحدًا. فإنّ الشمسَ مقبرةُ النسورِ
ثوري على شرقٍ يراكِ وليمةً فوق السريرِ..»

شَطَبَ نزار قبّاني فكرةَ التوبة عن شعره النسائيّ من حياته، فهو لم يَنْوِ توقيع معاهدة فكّ ارتباط مع المرأة، لأنّ فكّ الارتباط معها يعني فكّ الارتباط مع الشعر، ومع الحياة.

«شَرّشْتِ... حتّى العظمِ.. يا امرأةً
فتوقفي... رفقًا بأعصابي...»

برحيل نزار قبّاني فقدت المرأة الفارس الذي امتطى صهوة الشعر ليلج فؤادها. فقدت من أرادها أن تكون الحرف التاسع والعشرين من أبجديّته. لكنّها لم تستسلم للحزن، بل تمرّدت وتحدّت كلّ العوائق التي تعترض طريقها، وأثبتت نفسها في شتّى الميادين أدبيّةً، سياسيّةً، اجتماعيّةً، واقتصاديّة.

المرأة اليوم في أوجِ عطائها واندفاعها، فزمن الخضوع والانكسار والطاعة قد ولّى.

END OF YEAR EXHIBITION **2012** - FAAD, NDU

أنطوان رعد

فالس الأرقامِ

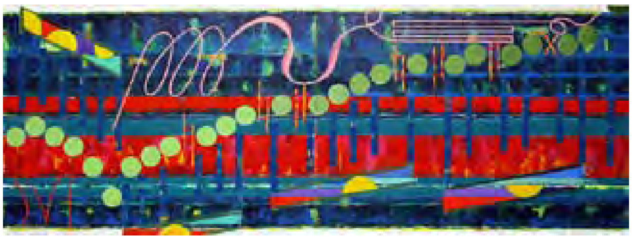

إنّها تَرقُصُ «الفالس» في أدمغةِ العلماء
وتَرقصُ على إيقاعِ
الألحانِ الجنائزيّةِ فوقَ القبور.
الموتُ عمليّةُ أرقام
أرقامٍ تُضغَطُ في علبة
تتقمّصُ في شَبَحٍ يَطير
وتَنفجِرُ في مطارٍ يَقومُ على الماء
والموتُ حِبرٌ يُطهَى على النّار
مع بعضِ حبّاتٍ من المِلح
وبعضِ أرقامٍ تتلاشى غبارًا
يَحمِلُ الدماملَ والأوبئةَ والجراثيم.
هللويا، هللويا
إقرعوا الأجراس
فالأرقامُ لم تَعُدْ عاقِرًا
إنّها حُبلى
والجنينُ طائرٌ لهُ جناحان
واحدٌ يُريدُ أن يطيرَ بنا إلى الموت
والآخرُ إلى القمر.
لن نَتغزّلَ بعدَ اليوم بالقمر
القمرُ لم يَعُدْ لنا يا أميرتي
لقد أصبحَ مستعمرةً للأرقام.

العصافير المهاجرة

نحنُ يا صديقتي عصافيرُ زرقاء
تُهاجرُ معَ الرّيحِ إلى عواصمِ الضّياع
وتَحملُ في مناقيدِها الجُوعَ
إلى صغارِها الذينَ لا تَعرفُهمْ
نحن عصافيرُ وديعةٌ
تُدمنُ الكآبةَ والصّمت
وفي هجرتِها المرسومةِ مُنذُ البدء
تَجمعُ الحزنَ قشّةً قشّه
لِتبني عشًّا تَسقُفُهُ بالمطرِ
وتَفرشُهُ بالرّيح.
العصافيرُ الزّرقاءُ لا تُزقزقُ
ولا تصلّي
إنّها تُهاجرُ دائمًا مع الرّيح
وعندما تبتلّ أجنحتُها الصغيرة
تنقضُها وتَبكي
وتبكي
وتَموتُ في العاصفة التي تَسُدُّ لها
الطّريق
وفي خاطرِها خيالُ عُشٍّ مهجور
وفي مناقيدَها حبّةُ قمح
تحملُها إلى صغارِها المهاجرينَ مع
الرّيح
إلى عواصمِ الضّياع
إلى صغارِها الذينَ لا تعرفُهُمْ.

قائمة الانتظار

في العاشِرَةِ تَمامًا مِنْ صَباحِ كُلِّ يَوْم
يَفْتَحُ الجَريدَةَ بِمنْهجيّةٍ تَصِلُ حَدّ
الاحْتِراف
وفي بابِ الوَفَياتِ تَنْهَبُ عَيناهُ السُّطُور
علّهُ يَقَعُ على اسْمِهِ في عِدادِ المَدْعُوّينَ
إلى رِحْلَةِ المَجْهول
التّي لا تَبُورُ مَواسِمُها.
يُرَكِّزُ نَظّارَتيه
ويَعُودُ إلى بابِ الوَفَياتِ مِنْ جَديد
خِشْيَةَ أن يكونَ بَصَرُهُ قَدْ خانَهُ
أو خِشْيَةَ أَنْ تَكونَ ذاكِرَتُهُ
قَدْ غَدَرَتْ بِهِ
فَنَسِيَ اسْمَهُ
أو شَيْئًا من هذا القَبيل.
ها هُوَ الآنَ يَتَحَرّى الكلِماتِ
ويَقرَأُ قِراءَةً دقيقَةً مُتَأنّيَة
كناقِدٍ يَتعامَلُ مَعَ نَصّ بالغِ الصُّعوبَة
قَبْلَ أَنْ يَقُومَ بِعَمَليّةِ شَرْحِهِ وتَشْريحِه
وعِنْدَما يَفْشَلُ في العُثُورِ على ضالّتِه
يَزْفُرُ زَفْرَةً عَميقَةً ويُرَدّدُ في نَفْسِهِ
اللاّزِمَةَ الّتي تَعِبَ لِفَرْطِ تَكْرارِها:
أُفٍّ ما أَطْوَلَ قائِمَةَ الانْتِظار!...

الغربة

جَمرَةٌ سوداءُ تَحترقُ في محبرةٍ
أَغطُّ فيها ريشتي
فيعلَقُ بها الفراغُ واليأسُ والمجهول
تِلكَ هيَ الغربة.
غريبٌ أنا بينَ هذهِ الوجوهِ الجديدة
وغربتي شطآنٌ تقذِفُ بزوارِقِها
إلى أحضانِ المجهول
فتغيبُ وتَظلُّ الأمواجُ
تحمِلُ إليها لعنةَ الرمال
وأنا أهرُبُ منها
واللعنةُ تطارِدُني
والغُربَةُ أمامي.
تُرى كيفَ يَعيشونَ في المنفى؟
كما أعيشُ في غُربتي
يَمضغُونَ الجوعَ ويَنهلُونَ السراب
ويَشبعُونَ من الضّجر.
أيّامُهم ساعةٌ عقارِبُها
تَدورُ إلى الوراء
وغَدُهُم جنازةٌ كئيبَةٌ
يسيرُ فيها الصّمتُ مُطرِقًا غريبًا
فوق أرضٍ غريبة.
الغربةُ تُنشِبُ أظفارَها في لحمي
وفي محبرتي تَحترقُ جمرةٌ سوداء
وعلى مائدتي ثَلاثةُ مَدعوّينَ
بدونِ بطاقات:
الفراغُ واليأسُ والمجهول
يَنتظِرُهُم رغيفٌ يابسٌ
يَلعَنُ المِلْحَ ويُجَدِّفُ على مناجلِ
الحصّادين.

حبيب يونس

ديوان شَيْخ الشِّتي

مْن بْعيد
وِبْأَوَّلْ رَبيعْ،
ومْن التّلجْ باقي بَعِدْ
بَصْمِةْ صَبيعْ،
طَلّ الجَبَلْ
بَيْتَيْن شِعْر مْأَلّفُنْ
شَيْخ الشِّتي،
وِمْحَرّكُنْ
وِمْعَلّمُنْ
بِالصّفّ لِتْلاميز جِرْد
مْغَيّبينُنْ مِنْ سنين سْنينْ،
وِمْخَبّيُنْ
بِدَفْترو تَ يِطْبَعُنْ ديوان،
مِنْ يَوْم ما كانِتْ دِني
بيقول... يِمْكِنْ يِنْشرو بْتِشْرينْ.
بَيْتَيْن ما شافُنْ حَدا،
وَحْدي قريتُنْ مِنْ بعيد
وْخِفْت يِبقو بْهَـ الجِّرِدْ
بِالشّمْس مَشْلوحينْ.
كَسْرا تَحِتْ صَخْرِةْ أَلِفْ،
ضَمّي عَ سَجْرِةْ نون خَضْرا عالِيي
صَرْلا عِمِرْ بِمَطْرَحا
بْتِخْيَّط وْبِتْبَدِّل فْصول السِّني فْساتينْ.
فَتْحا عَ عَيْن المَيّ
والدّمْعا بْعَيْنا واقفي،
شْتاقِتْ لَعَصْفور الصِّبِحْ
يِعْزُم رفاقو،
عَ حسابو، يْضَيّفُنْ
مِنْ خَرْجيتو الشّمس تِرْويقا،
وْعَ نَغْمات الْخَرير يْسَمّعُنْ
كَسْرِةْ ميجانا مْرَنْدِحا
فِلّاح فَيّ بْيَعْرفو:
يا ميجانا وْيا ميجانا وْيا ميجانا
يا عَيْن ما تْجِفّي... بيحْزَنْ دَمْعِنا!!!
ويطير رَفّ الأوف
يِلْعَبْ بِالسّما
وِجْناح خَلْف جْناح خَلْف جْناح،
تِنْشاف السّما بَيْن هْلالَيْنْ.
وِسْكون عَ غَيْمي مِتِلْ هَمْزي،
سَرَقْ كانون مِنْ تَحْتا، تَ يِدْفا،
كَسْرتَيْنْ،
والنّهْر دافِقْ،
ما وِقِفْ مَرّا عَ نِقطا،
وْما سِمِعْ مِنْ فاصلي،
بِرْتاح لَحْظا،
وْيِنْطُر الشِّلّال
تَ يْكِنْلو لْقَوافي رَحْلتو،
يا ضَمّتَيْنْ،
يا فَتْحتَيْنْ.
قِفْيت العَيْن
وْبَعْدُن الْبَيْتَيْن
عَ اللّوْح... وْبِقي
شَيْخ الشِّتي
يْصَلّحْ،
يحَرّكْ،
يْكَتُب،
يْمَحّي،
وناطِرْ يِطْبَع الدّيوان بْتِشْرينْ.
شو ناقصو تِخْمينْ؟
يِضْحَك بْعِبّو عَ السّكِتْ
ويِردّ عَ الشّيْخ الجَبَلْ:
يا ناقصَكْ حَرْفَيْن تَلْج
بْبال خِمّارِةْ نِدي،
وْكاسَكْ مقفّى كِلْمتَيْنْ،
يا مِنْ خَيال الْمَحْبَرا
شي نِقْطتَيْنْ.

من منشوراتنا